خالد محمد خالد

مواطنون .. لا رعايا

« إذا ماسئلت : هل الشعب جدير
بأن يكون حراً . . . . ؟
« أجيب سائلا : وهل هناك فرد
جدير بأن يكون مستبدا . . . ؟ »
« جون رسل »

الطبعة السادسة

ملتزم النشر والتوزيع
مؤسسة الخانجي بالقاهرة
مكتبة المثنى ببغداد

الإهداء

إلى الذين :

ضاقت صدورهم بالظلم . . .

وطال شوقهم إلى الحرية..

ويتساءلون أين الطريق . . .

فى هذا الكتاب

مقدمة الطبعة السادسة

أرادت « مكتبة المثنى » ببغداد . . و «مؤسسة الخانجى» بالقاهرة أن تحيا ثورة العراق بطبعة خاصة من كتاب « مواطنون .. لارعايا » . . هذا الكتاب الذى حظرت حكومات العراق السالفة نشره ، وكان مجرد اقتنائه جريمة تسوق صاحبها للسجن والعذاب . . !

لقد صدرت الطبعة الأولى منه عام — ١٩٥١ — أى بعد عام واحد من ظهور سلفه وشقيقه « من هنا . . نبدأ » .

وتحدثت عنه فى مقدمته التى ستطالعونها بعد هذه الصفحات ، فقلت : « هذا كتاب يجئ مع الربيع ليبشر بالحرية أمة أضناها صقيع الاستعباد » .. !! كان صقيع البغى يهرأ أجساد البشر فى المنطقة التى نعيش فيها نحن شعوب هذا الشرق العربى . .

كانت حفنات تعد على أصابع القدمين من الملوك ، والأمراء ، والأقطاعيين تسخر الحياة والأحياء لخدمتها . .

فى كل بلد عربى ، كان ثمة طغاة ومستهترون يحتسون دموع اليتامى ، ويرقصون على حشرجة الضحايا ، وكان شعارهم دوما :

اليوم خمر . . وغداً خمر . . . !!

ولكن سورة الانبعاث القومى كانت تتجمع وتتنادى .

وكانت قصائد الشعراء ، ومقالات الكتاب ، ومحاولات السياسيين الشرفاء وإصرار الجيل الجديد الصاعد . .

كان ذلك جميعا يؤكد وجود الطليعة التي ستقتحم الهول وتبدأ الزحف ، وتقرر المصير .

كانت القصيدة تنظم في بغداد . . فلا تمضى ساعات أو أيام حتى تكون ملء أفئدة الناهضين بمصر وعلى ألسنتهم .

وكانت المقالة تنشر في القاهرة . . فإذا هي بعد برهة حديث الناس في بغداد وفي دمشق ، وفي الأردن ، وفي الحجاز واليمن . وكل وطن عربي . .

وكان ذلك أمراً مألوفا بل محتوما لمشا ؛ كانما كانت واحدة . .

الطغيان ، والأقطاع . .

السجان ، والجلاد . .

الشقاء ، والمسغبة . .

كل ذلك كان هنا ، وهناك . .

كذلك كانت وثبة الجموع المرتقبة واحدة . . وإصرارها المتبدى ، واحد . .
وكان فجرها المنتظر مع تلك الجموع كلها على ميعاد . . ! !

وحين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في مصر ، سُقط في أيدى الحاكمين الذين فوجئوا به . . وعبسوا وبسروا . . وفكروا وقدروا . .

أيصادرونه أم يتركونه . . ؟ ؟ ولكن أحد رجالهم بمدينة المنصورة سارع فصادره وأحيل الكتاب إلى النيابة العامة ، حيث لم تجد وجها لإقامة الدعوى . فقررت حفظ الاتهام . .

وقرأه الناس في مصر . . وفي سوريا . . وفي لبنان . . جهرة وعلانية . . ولكن أهلنا في العراق ، وفي بعض الدول العربية الأخرى . . لم يستطيعوا قراءته إلا خلسة . . فقد صودر ، وحرم ، وأخذ مكانه في قائمة الممنوعات . . ! !

واليوم ، ونحن نهدى طبعته هذه إلى العراق الرشيد الذى كنا إلى الأمس القريب ندعوه « العراق الشهيد » . . يسعدنا أن نسهم به فى بناء نهضته المقبلة المجيدة .

إن رعايا « جلالة الملك » . . بالعراق ، قد أصبحوا مواطنين . .

وضحايا « ولى العهد » هناك ، تحولوا إلى عمالقة عارمين . .

والجوع التى حسبوها قطعانا . .

والتربص الذى ظنوه خذلانا . .

انطلق كل هذا مع القدر العظيم ليحقّ الحق ويبطل الباطل . . وليأخذ بناصية الأمور نحو مجراها الصحيح فى بلد طالما عاث الفساد والظلم بين ربوعه ونجوعه . .

تحية للمواطنين فى العراق . .

وأول دعواى إليهم وآخرها : أن كونوا دوماً مع الحرية ، ومع العدل ، وخذوا مكانكم إلى الأبد بين أصدقاء الحياة .

القاهرة : فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٥٨

خالد محمد خالد

مقدمة الطبعة الأولى

سنة ١٩٥١

هذا كتاب يجيء مع الربيع ، ليبشر بالحرية أمة أضناها صقيع الاستعباد .
ويدعو المواطنين جميعا أن يؤمنوا بالحرية ، ويكرسوا لها حياتهم حتى يعيشوا كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً . لاتلفحهم مقايظ البطش ، ولا يحتدم عليهم أوار القمع والارهاب .

وهو قد كتب لنقرأه جميعاً ، فاذا تواثبت بين صفحاته وسطوره فقد اختصرت رحلة الربيع ياصديق . ثم هو ليس جديدا عليك ، ولا بعيداً عنك ، فكل كلمة فيه خفقة فى صدرك ، أو دمعة فى عينك ، أو أمل يتململ بين حناياك .

كما أنه ليس بحثا علميا فى السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة أو التاريخ بل تصويرا نحسبه صادقا لأحاسيس الشعب حيال أمنيته الكبرى ــ الحرية .

ولقد كان كتابنا الأول ــ من هنا . . نبدأ ــ دعوة خالصة لتحرير الشعب من الجوع والوهم .

وهذا الكتاب دعوة مماثلة لتحريره من العبودية والظلم ، وإذا الجماهير جاعت ، وخافت ، فقد تقطع مابينها وبين الحياة من عروة وسبب . . وحق عليها فى مجال مقارنتها بالعالم السعيد قول الشاعر العربى :

زعمتم أن أخوتكم قريش   لهم إلف ، وليس لكم إلاف
أولئك أمّنوا جوعا وخوفا   وقد جاعت بنو أسد وخافوا

ونحو نعلم أن فى بلادنا فئاما من الناس يتساءلون فى حنق : لماذا نكتب ولماذا ننقد . ؟ ولماذا لانغمد أقلامنا ، ونرخى علينا ستورنا ، ونأمر أبصارنا أن تغمض . وتغضى على الذل أشفارها ؟

ولـكن إذا رأينا نارا ماردة تجتاح أهلنا وعشيرتنا ـ تلفح وجوههم ، وتشوى أبشارهم ، وتجلجل عليهم جلجلة الجحيم . ثم اقتربنا بمضخات الأنقاذ نـكافح النار المجنونة ، ونطفيء غيظ هذا السعير ، أنـكون قد اجترحنا خطيئة واقترفنا وزرا . . ؟

كلا ـ وهذا هو جوابنا للذين يتساءلون ، واعتذارنا عن الواجب الذى نهب لبذله وأدائه ، وأنه لمن نـكد دنيانا أن يصير الوفاء بالواجبات العامة أمراً يستحق التبرير والاعتذار . !

إننا حين ندير أبصارنا فى هذه الرقعة المظلومة من الأرض . الرقعة التى تضمنا . وتضم ماحولنا من الأمم الجاثية ، نرى شعوبا قد أحاطت بها خطيئتها من استعمار دخيـــل تتضرم هواجره ، واستبداد وبيـل تتوقد لوافحه .

على كل شبر من أرضها ـ آثار أقدام الغزاة .

وعلى كل ظهر من ظهورها بنيها ـ سياط العتاة .

فلماذا . ؟ وإلام . ؟

لماذا يحرمها الاستغلال من لقمتها . !

ولماذا يحرمها الاستبداد من حريتها . ؟

ولماذا يحرمها الاستعمار من سيادتها .

ولماذا يأتمر براحتها ، وحياتها قوم ليسوا من أصلابها ولا من ترائبها ، ؟

وإلام يذل أهلها ، ويعزفيها الغرباء . ؟

أن أهدافنا اليوم تتركز جميعها فى الحرية .

فلنجرد روح الحـكم من الهمايونية والتفرد والبغى .

ولنجرد روح الشعب من الاسترابه والتربص والخوف .

ولقد مضى هذا الكتاب يرتاد لنا الطريق ، ثم عاد وعلى محياه وعثاء السفر ، وإشراقة الظفر ليحدثنا عما رأى ويستحثنا للمسير .

فلنمض معه فى خطوات أكيدة مطمئنة مسلحين بروح الحرية نفسها ، روح الحرية الذى يضع التفاهم مكان العنف – والفكرة موضع القذيفة والوضوح بديل المؤامرة . والغيرية الفاضلة . مكان الأنانية الباغية . . .

ونحن على يقين بأننا لن نجد حاكما تنوء منه لبلادنا وشائج القربى والرحم يثبط مسعانا ، ويعترض ركبنا ، ويتحدى مشيئة وطنه ومواطنيه وإذا خاب يقيننا ، ووجد هذا الحاكم ، فليتقبل منا هذا النصح الأمين . .

إن الحرية لاتغلب أبدا . . وهى تقتات بالمقاومة ، وتزدهر بالتحدى، وتترقرق الحياة فيها كلما هطلت عليها ألسنة السياط .

وكما قال فيلسوف كريم : « الذين يكافحون الحرية بالبطش – كالذين يكافحون الحريق بقاذفات اللهب » وأنا لأكثر برآ بالحاكمين من أنفسهم حين نتهاهم عن الأنانية والعدوان . .

ماصالحهم فى أن يفقدوا محبة الشعب ويظفروا بعداوته ؟

ماصالحهم فى أن يبيعوا مكانهم المرموق فى التاريخ بلذة عاجلة ، وحظوة آفلة ؟ !

إن الاستعمار يكيد لنا – حكومات وشعوبا – ويريد أن يضرب بعضنا ببعض ،ويؤلب بعضنا على بعض ، فلنحذره ، ولنؤاخ بين كفاحنا المشترك من أجل التحرر والخلاص . ويا أيها الذين ينتظرون موكب الحياة ليستردفهم وراء ظهره كما يستردف اللقطاء .

سيروا وحدكم وقابلوه فى الطريق

سيروا ، قبل أن يطول بكم الانتظار ؟

شعب في السلاسل ..

« قبل أن تحملوا مطارق التحرير ،
تبينوا مواضع الطرق .. وقبل أن تمضوا
إلى الغاية مثقلين ، طهروا أرجلكم من
الأغلال ، وخففوا كواهلكم من
الاثقال . »

عصر الشعوب . .

على ظهر هذا الكوكب الفامليون من البشر ، قرروا من غير لقاء تم بينهم أن يحققوا حرية الشعوب ، ويرفعوا ألوية الجماهير .

وهو قرار أزلي قديم . . !

ويوم عزم آباؤهم الأولون على إنفاذه أرسلوا رائدهم . . رعيلا من البواسل الأمجاد ، مضى كالشهاب يرتاد لهم الطريق . . وبينما هو ماض إلى غايته ، دهمه البغاة من كل فج يحملون المدى ، والرماح ، والسيوف . . وطفقوا يصلونه من نقمتهم سعيراً . . وإذ هو يفكر في غمرة المباغتة : أيمضى قدما أم يعود — صاحت به الأجيال المستقرة في ضمير الغيب : تقدم فليس إلى مرد من سبيل . . !

وانطلق من جديد يحمل الأمانة الكبرى في شجاعة وإيمان ، وشق طريقاً محفوفا بالمكاره والأخطار وكلما مر على ملأ من صنائع الشر سخروا منه وتألبوا عليه . . !

لقيته الجيوش في موج كالجبال . . شارعة حرابها ، فخاض معها معارك الهول وقضى نحبه فريق . . وتدفق الباقون يثخنون في الأرض المجهوله لايلقون لهواتف اليأس سمعاً ولا بالا . . !

لقيه المرجفون والمثبطون ، وحاولوا إيهامه أن السفر طويل والزاد قليل ، والمغامرة خاسرة ، والهدف جد بعيد . . فنفاهم عن طريقه ومضى

تصدت له قصور الأباطرة ، والقياصر . . تسد الطريق وتزحم الأفق تطأ بقواعدها أرض الناس وتتحدى بأبراجها سماء الله ، فد مدم عليها ، وتر كها كثيبا مهيلا — رحلة الضنى والهول كلما تقطعت دون غايتها أنفاس

جيل أسلمها إلى جيل ، وكلما أنجز تبعاته رعيل ، نهض فى أثره رعيل .

وكانت رواية فذة ، اختلفت مناظرها وتغير أبطالها ، لكن موضوعها لم يتغير . . ما أروع هذا الذى حدث من أجل الحرية . !

انظر ! مشاهد تغرى بالتشاؤم والقنوط . . وأخرى ترفع قبل العيون منى عذابا . . وآمالا رطابا .! مشاهد تتقاذف كهدير العاصفة ، وأخرى تنساب وديعة ساكنة كأشعة القمر . . ! فى بداية الطريق ظلام ويأس ، ثم محاولة وتردد ، ثم اقتحام وتحد . . وعلى طوله أشلاء ودم ومعاصم ، وأعاصير وعواصف : ومن وراء ذلك عالم تشرق عليه من ذلك الأفق البعيد شمس الحياة والحرية والحضارة .

وعالم آخر لايزال يلفه مثل الضباب فهو مقرور ضرير .

وفى ضمير التاريخ وحده يكمن سر هذا التفاوت البعيد بين الذين غمرتهم الحرية ، فلا يحزنهم اليوم فزع . . ولا يؤرقهم خوف . والذين لايزالون مقرنين فى الأصفاد .

***

وما أشد حاجتنا إلى استطلاع هذا السر الدفين لنفقه . ونرى . !

لقد وقف حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ذات يوم ينشد من شعره مايثير ذكريات الجاهلية الأولى . . ولكأنما شق الحديث على عمر فهب فى وجهه بصيحته الزاجرة . . فقال الرسول : دعه ياعمر يذكرنا بأيام الله ، فأن لنا فيها عظة وعبرة . . فليتنا نستطيع أن نتذاكر أيام الله فى هذه البشرية الكادحة ، لنرى كيف مرقت مروق السهم من قبضة الطغيان والكبت . . وكيف انتقلت من عهد الوحدانية الحاكمة — إلى عصر الشعوبية وحكم الشعوب .

فبعد أن كان أمير الإقطاع يتوج بوثيقة سطر فيها : « نبايع صاحب الحق المطلق فى حياتنا » . أصبحنا نقرأ مكانها . . « لكل إنسان الحق فى الحياة وفى الحرية . وفى العيش آمنا مطمئنا . » . . . !!

وبعد أن كان حسن الجواربين أمير وأمير يقوم على تبادل هذا النص المخزى . « أتعهد ألا أعتدى على أرضه ومواشيه ورعاياه العبيد » ! . . صرنا نقرأ بديلها « لايجوز أن يعيش إنسان فى الرق والاستعباد » .

وبعد أن كان الناس ــ كما يقول أوليفيه . « . . يسخرون لصيد الضفادع من الغدران كى لاتقلق الأمير الإقطاعى من نومه » . . « ويجلدون بالسياط إذا نهروا كلاب سادتهم التى تخرب حقولهم . . ويقذفون فى السجون إذا عارضوا رغبة الملك وبطانته فى الولوغ بزوجاتهم أو بناتهم » .

بعد أن كان ذلك كذلك . . إذا لواء السيادة ينعقد اليوم لهؤلاء ، فلا يسخرون لصيد الضفادع ، ولا يجلدون بالسياط ، ولايستباح لهم عرض أو تنتهك لهم حرمات ، والآن . لنتذا كر أيام الله فينا . . فى أمتنا التى أتعبت التاريخ وأتعبها . . لنبصر مكانها فى عالم اليوم ، فإذا كانت لاتزال جاثية مصفدة ــ نقبنا عن الأوتاد التى تشدها إليها . وعملنا لتبديد هذا الضباب الجاثم الذى يحجب عنها ضوء السيادة وحرارتها حتى ينزاح عن أفق طالما بزغت فيه حضارات ألهبت أشعتها الدافئة الإنسانية المقرورة المرعشة بعد أن عاث فيها الصقيع . . نحن نحس أننا فى بلادنا مستوطنون ، لامواطنون . . ورعايا . لا أكفاء . . رعايا كل حاكم مستبد ، وكل أقطاعى كبير . . رعايا طائفة من التقاليد العفنة التى توجه السياسة والاقتصاد والاجتماع . . رعايا استعمار مضى ــ ولا يزال ينالنا

بأذاه ، واستعمار قائم يلفنا فى الضباب والظلمات ، ويوشك الذى حاق بالهند أن يحيق بنا .. فالبرهميون الذين غزوها وفتحوها — أصبحوا هم الهنود . أما الهنود الأصليون ، فقد جرفهم الموج وألقاهم على الشاطىء البعيد نثارات . . ! وصار اسمهم المختار — المنبوذين — فلنحاول قبل أن يبلغ الموج بنا مداه . . ولننظر السلاســل التى صفدتنا بها الحوادث ، وننفضها ، حتى نقدر على التجديف ومغالبة الطوفان ، وإذا نحن علمنا أن روح الأمة يسيطر على مصايرها ومستقبلها ، وأن هذا الروح مشحون بالرواسب الضارة التى تقعده وتثقله وتخــذله ، فقــد استبان لنا طريق التحرر والخلاص .

تطهير الروح من رواسب المــاضى ، وتطهير الضمير من مخاوفه . وتطهير العقل من أوهامه . وتطهير الإرادة من سلاسله الغلاظ .

وقبل أن نحمل مطارق التحرير — يجب أن نتبين مواضع الطرق ، وقبل أن ننطلق إلى الغاية مثقلين — علينا أن نطهر أرجلنا من الأغلال .

*

إن الفساد الذى أرهقنا بمشاقه . وإعناته — هو الاستعمار التركى ، ثلاثمائة عام سويا . . ثم امتداده الذى تلقف منه العهد ، وسار على الدرب ولا يزال يسير ، وهو الاستعمار البريطانى ، ثم النظم التى تقمصتها روح الاستعمار وشهواته ليعملا عن طريقها . وأهمها البرلمــان البرجوازى . ثم النفسية الواهنة المريضة التى أغرها الاستعمار ، وقسمها على ذاتها ، وتتمثل فى الغرائز المــكبلة الناقمة . . . وسنتحسس الآن بأيدينا هــذه القيود ، قيدا ، قيدا . ولن نطيل المــكث معها حسبنا أن نتبين طبيعتها ونقف على عوامل بقائها — ثم نعنى العناية المستطاعة بفصمها ، والخلاص منها

طوفان رجيم . . !

ذات يوم ، وأنا أطالع فى كتاب « أزمة الضمير الأوربى » التقت عيناى بآية رائعة تحيت الكتاب بعد تلاوتها جانبا وشرعت أتدبر المعانى الجليلة التى تشف عنها هذه العبارة الجامعة ، وبلغ من إشراقها أن أضاءت لى مابين يدى وما خلفى ، ورسمت أمامى نهجا كاملا للحرية والخلاص ، أما العبارة فهذه :

يقول فنيلون — « إن الغزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التمجيد أشبه بتلك الأنهار التى تفيض فتبدو رائعة ، لكنها تخرب الأرض الخصبة التى كان عليها فقط أن ترويها . . » .

ترى كم من الغزاة الذين تطفلوا على بلادنا يجللهم هذا الوصف ويحتويهم داخل أطاره الأسود الرهيب . . ؟ .

سنراهم الآن رأى العين ، أولئك الذين حسبهم آباؤنا الطيبون أنهاراً تجرى بالخصب والنماء ، فشقوا لها الأرض ، ومهدوا أمامها الطريق — وفى أصيل يومها ومجراها راحوا ينشدون الحب والثمار ، فإذا الأرض خراب يباب ، ليس فيها مايهتز سوى نفحات القر ، وسبرات الشتاء ! .

لقد استحال نبعها الوديع ، وانسيابها الرقيق غربا هائجا ، وطوفانا رجيما — تبر الربوع تتبيرا . !

نعم — هذا هو الذى حدث — فالغزاة الذين اقتحموا ديارنا زعموا أنهم هداة لاغزاة . . ومصلحون لا فاتحون . وأنهار غاية سعيها أن تروى الأرض لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . . أنهار ستروى الشعب الشعب بالمعارف جميعا . . المعارف السياسية لينهض ويسود ، والإدارية لينظم

نفسه ويسوس أمره ، والعلمية ليشب عن طوق الجهالة ، ويمضى مع الركب العليم الرشيد . . ثم ألفيناهم جميعا فى سباق جبار نحو الكذب والنكوص بقدر ما كانوا فى سباق هائل نحو الوعود المبذولة . والمزاعم الجريئة . . ألفيناهم طوفانا وسيلا ساق أمام أمواجه العاتية الصاخبة ما كان الشعب قد ناطه به من منى وأمـــل . . وجرف فى عنفوان وجنون بقايا جلده وتماسكه . . والتهم فضل ماخلفته الأيام بيديه الضامرتين من قوت . . ثم مضى يتجشأ فى استهتار ـ ويواصل تساوقه وانحـداره فى عربدة منقطعة النظير . . ؟ ليست هذه الـكلمات شعرا ، ولا مبالغة . . ولنسمع الآن للتاريخ القريب لا البعيد ، فإن لنا فيه عظة وعبرة ، ولـكننا فى هذا النطاق لن نبسط حوادث . . ولن نتقصى وقائع ، فليس هذا الـكتاب سجل تاريخ ـ وغاية ماسنصنع أن نرفع تجاه الأبصار أعتى نماذج الاستعمار الذى عاش فى أرضنا وطوق أعناقنا .

الاستعمار التركى . . والاستعمار الانجليزى :

وإنما نختارهما دون سواهما لأنهما أثقل وطأة ، وأشد عراما وكيدا ولأنهما لايزالان يلفاننا فى مثل الضباب من احتلال بريطانى جاثم ، ومن مساوىء خلفها الاستعمار التركى ، واصطبغ بها حكم هذه البلاد .

١ ـ الاستعمار التركى :

تركى = طاغية . . !

وحين نبدأ بالحديث عن الغزو التركى تستبد بنا طبيعتنا الأزهرية التى تولع دائما بتحليل اللفظ ، وتعقب مادته واشتقاقه . وتأبى إلا أن تحلل لفظ « تركى » فما هو ؟ ولنذكر أولا ـ أن علم النفس قد اكتشف علاقة وثيقة بين الإنسان واسمه ولقبه ، ويضرب علماء النفس لنا ـ مثلا ـ رجلا

اسمه « صعب » فإن دوام انصباب هذه التسمية فى سمعه ، ووعيه يطبع عقله الباطن بطابعه ، ويسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة .. وذلك لاريب هو سر تغيير الرسول أسماء بعض الناس الذين كانت أسماؤهم من هذا القبيل فقد أبدل باسم « حرب » وكان يحمله بعض أصحابه « سلما » .. وأبدل باسم « جهم » اسما آخر هو « سمح » .

هناك إذن وحى مستمر توحيه أسماؤنا إلينا ، ويلون إلى حد كبير طباعنا ، أيكون هذا هو سر التلازم بين التركية والطغيان ؟ ولكن ـ هل كلمة تركى ترادف طاغية ، حتى نتشد بينهما هذا التلازم والانسجام . . ؟؟ نعم فالترجمة الحرفية لكلمة تركى هى ـ طاغية !

يقول العلامة البستانى صاحب دائرة المعارف :

« وقد خرجت من جبال التاى قبائل ، وتفرقت فى أنحاء آسيا العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم توركو . كما سمى الفرس بلاد تركستان باسم توران ، فكان لفظ ترك أو تورانيه ـ اسما جنسيا للقبائل المتوحشة ، وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان تيران ومعناها طاغية . ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن الأتراك كانوا يلقبون قديما بالمدمرين . » ونحن على ذلك من الشاهدين فلقد دمرونا باحتلالهم وأشاعوا فينا الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وسنرى الآن من حكامهم طرازا مقام يوم واحد فى هجيرهم عذابه يتواضع إزاءه عذاب الجحيم ! وإنها لثلاثمائة عام متشحة بالسواد والفزع لبثناها تحت وطأة هذا الاحتلال التركى ، فتعالوا لننظر ما خلفه فى ضمائرنا من قروح ، وفى أرجلنا من أغلال . !

فمنذ عام « ١٥١٧ » ، يوم غزا السلطان سليم بن بيازيد مصر ، إلى ماشاء الله من أعوام ، والشعب المصرى فى باستيل تركى يروض فيه على

الذل والغش والجاسوسية وفى محنة لاهثة جاست خلاله بالسلب والنهب والعلو والاستبداد ، ولقد أفاد الانجليز حين استعمرونا بعبقرية الأتراك القدماء فى البغى والفساد . وطبقوا مناهجهم ، واقتفوا معالمهم حذو النعل بالنعل . ؟ ألسنا نعتقد أن مبدأ « فرق تسد » بضاعة انجليزية خالصة ؟ .

والواقع أنه من مخلفات الاستعمار التركى . مارسه طوال عهده البغيض حتى مزقنا شر ممزق فلما جاء الإنجليز وجدوه سلاحا ماضيا فتقلدوه ! .

لقد كان السلطان سليم صاحب الفضل بأسوأ معانى الكلمة ، فى وضع هذا المبدأ الفاجر واستعماله . فقبل أن يغادر مصر إلى تركيا مزق السلطة فيها إلى ثلاث مزق ، وجعل لكل منها اختصاصات تتنافر مع اختصاصات الأخرى كى يدوم الشقاق بينها جميعا ، وهو صاحب هذه الحكمة الخبيثة :

« إذا اختلف الذباب وتناحر . ضمنت لنفسك نوما طويلا » !

(أ) النهب والإقطاع :

ولقد شرع السلطان سليم لأبنائه وحفدته فضيلة انتهاب الأمم وسرقة الشعوب فإن « جورجى زيدان » يحدثنا فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » أن هـذا السلطان بعد فتحه القاهرة والإسكندرية ، وحين أزمع الرجعة إلى بلاده نقل معه ألف جمل محملة ذهباً وفضة وأسلاباً أخرى ! أرأيتم . ؟ !

لقد هام كالكلب المسعور فى بلاد لاتربطه بها سوى صلة التقحم والتسور والعدوان : ومضى ينهش كل لقمة فى كف ، وكل درهم فى جيب وتولى الخلافة بعده ابنه السلطان سليمان ، فأعلن فى فرمان رسمى « أنه المالك الحر لجميع أرضى مصر .. » !! ووزعها إقطاعات على مزارعين دعاهم « الملتزمين » نظير خراج باهظ ! . ووجد من الأربعة عشر باشا الذين ولاهم حكم مصر فى عهده كل عون لمظالمه وتثبيت لسياسته ، وإذن فنظام

الإقطاع هذا آفة تركية جاءنا بها استعمارهم القديم ، ثم لم ترحل معه يوم رحل — بل ظلت على شكل باذخ مثير .

(ب) الرشوة . . !

والاستعمار التركي هو الذي دنس ضمير هذا الشعب بالرشا ، فلقد وجد نفسه على دين عصابة ضخمة تنتظم الخليفة والباشوات الذين كان ينصبهم على مصر ولاة ، وكل هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن الرشوة والانتهاب من طيبات ما أحلّ الله .

تصوروا أن الباب العالي نفسه كان يشجع الرشوة ويتقاضاها ، ويثيب عليها ! يقول « بركهاردت[1] » :

« يطلب الباب العالي الموارد ، ولا شيء سواها ، ولكي يتسنى للباشا إشباع هذه الحاجة تراه يعمد إلى إرهاق الشعب ، ويضع على عاتقه الأعباء الثقال ، أما الباشا الذي يريد خيراً بالشعب ، ويقنع بالإيراد العام ويجعل الغلبة في مجالسه للعدالة فإنه يجلب على نفسه دون ريب سخط مليكه ، لا لأنه عادل ، وإنما لأن عدالته تمنعه من النهب . ومن نقل جانب مما ينهب إلى الديوان . وإذا أراد الباشا أن يبقى على نفسه ، فليس أمامه من سبيل إلا أن يسلم في صمت رعاياه البائسين إلى عصا المستبد . وكان الارتقاء عن طريق السرقة والرشوة » ! إذن ، ونحن الآن نعيد فقط كلمات هذا المؤرخ ولا نزيد .

كانت الرشوة طريق الوصول إلى قلب السلطان ، وكان الباشا الذي يريد خيراً بالشعب . . ويقنع بالإيراد العام ، ويجعل الغلبة في مجالسه للعدل يجلب على نفسه سخط مليكه .

---

(١) الدولة والنظم الاقتصادية في الشرق الأوسط — تعريب دكتور راشد البراوي.

كان الباب العالى يطلب الرشوة من ولاته ، وولاته يقتسرونها من الجماهير الجائعة المضناة ، لذلك كانت عملة متداولة مشروعة ! وتحدثنا كتاب « الكافى » فى جزئه الثالث : « أن على باشا الصوفى أحـد ولاة السلطان سليمان كان يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم ، مما أغرى الدهماء والخطرين بأمن النـاس . » وكان خلفاؤنا الأبرار يبيعون المناصب جهرة فيحدثنا عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة القومية » ناقلا عن المستشرق ما رسل .

« . . إن تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر إلى آخره انحصر فى تعاقب الباشوات الأتراك على ولايتها ، فكان الواحد منهم يشترى منصب الولاية من ديوان الآستانة ، ويظل الباشا فى منصبه لاعمل له إلا جمع المال واستصفاؤه من أهله بمختلف وسائل النهب حتى يغادر منصبه وبهذا نرى أن الحكام الأتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير حمايتهم ورعايتهم ، والذين يرشون ويرتشون فى وضح القانون ، كانوا أساتذة علموا هذا الشعب الطيع السمسرة ، والرشوة الحرام . !

(ج) الغدر والإرهاب :

ولم تصب مصر بمثل ما أصابها به الاستعمار التركى المديد من غدر مسلح ومؤمرات موصولة وإرهاب رجيم . !

لقد كان الولاة يتآمر بعضهم على بعض ، بل والخلفاء أيضاً يتآمر الابن على أبيه ، والأخ على أخيـه ، وتفننوا فى الاغتيال وحبك المؤمرات ضد الشعب ، وكانت الجريمة هى الشىء الوحيد الذى يتناولونه بيد الأستاذية البارعة المتفوقة . ولو أنك معى الآن تقلب الصفحات التى أقبلها من تاريخ

استعمارهم الأسود لتولاك من الروع والوهل مثل الذى يتولانى .

إن القلم ليجفل فى مسيره ، وأكاد أشم رائحة الرصاص ، وترتج سكينتى بأصداء الصراخ المنبعث من الضحايا المضرجين . وأسأل نفسى : مم تخافين وقد ذهبوا . ؟ ربما تفزعها تلك الأشباح التى تتراءى من وراء جرائمهم كأنها رءوس الشياطين . وربما من تلك الظلال المديدة المكتنزة التى تملأ علينا حياتنا رعبا . ؟ حين تقرأ مثلا أن « محمود باشا التركى » آخر ولاة السلطان سليمان على مصر حين وصل القاهرة لقيه « محمد بن عمر » متولى الصعيد ، ومعه هدايا نفيسة ، وخمسون ألف دينار تقبلها الباشا التركى متظاهراً بالغبطة والشكر ، ثم تواصل تلاوة الخبر ، فترى الباشا التركى يأمر باغتيال « محمد بن عمر » عقب مخرجه من لدنه خوفا من منافسته ، ثم يأمر بخنق القاضى المصرى « يوسف العبادى » ثم يأمر باغتيال معظم أعيان القاهرة الذين انتقدوا حكمه وسلوكه ، ثم يخترق شوارع القاهرة ومعه (الشوباصى) عميد الجلادين ، يقتل بأمر الباشا رجالنا ، ويستحيى نساءنا عندما تطالع هذا النبأ الدامى ، فاعلم أن بجواره مئات الأنباء والمذابح ، وامش الهوينا ، فالطريق التى أمامك مضرجة بجثث آبائنا الذين صرعوا جهرة أو اغتيلوا فى الظلام البهيم . !

(د) دنشواى . . التركية . . !

وإذا كنا نحتفظ بين ضلوعنا بذكرى مرجفة لفضيحة « دنشواى » التى أعدم فيها الإنجليز خمسة من مواطنينا فى ظروف معروفة ، فإن هناك فى تاريخ الأتراك فضيحة مشابهة ، تجعلنا نعتقد أن الانجليز كانو مقلدين فى جريمتهم للغزاة الذين سبقوهم بالقسوة والجريمة !

وإذا كانت (دنشواى) ، التركية ، لم تأخذ فى التاريخ مثل المكان الذى

أخذته (دنشواى) الانجليزية . فلأنها لم تكن (دنشواى) واحدة ، بل كانت تتكرر دائماً كوسيلة لإذلال الشعب ، وإسلاس قياده حتى أصبحت من العقوبات العادية فى شرع الأتراك . !

حدث أن استولى «محمود باشا التركى» على جميع تركة «إبراهيم الدفتردار» أمير الحج ، وكانت مائة ألف دينار ، واجبى من الناس بواسطة السوط والأرهاب مثلها ، ثم رفعها إلى الاستانة ليرضى عنه مولاه وعلم القاهريون ذلك وكانوا قد التمسوا من السلطان عزله ، علموا أن الرجل قد اشترى سلطانه وسيده بهذه الهدايا المنهوبة ، فـكمنوا له فى الطريق وقتلوه ، وفر القاتلون . وأرسل سوء الطالع فى هذه الطريق جماعة من الفلاحين لم يشتركوا فى القصاص من محمود باشا ، بيد أن الحاشية التركية للحاكم الصريع التمست لقتلهم ، والتمثيل بهم نفس الأسباب التى التمسها الانجليز فيما بعد لأعدام ضحايا دنشواى وبث الرعب فى البلد جميعه .

ولعل من الطرائف المسلية ، التى تخفف عنا لأواء هـذه القساوة أن نستمع لبعض الأشعار التى تغنى بها الناس عندما خر ذلك الوحش التركى السائب .

أتى محمود باشا يوم نحس   فساقته منيته عصيبة
تجاه الناصرية خلف حيط   بغيط جاءه منـه مصيبة
ببندقة رماه كف رام   فسددها فجاءته مصيبة . !

(هـ) الثورة . . والعلة . . !

ورسم الاستعمار التركى سياسة لإذلال الشعب ، وإفنائه . . . وإن ما نعانيه اليوم من جبن عقلنا الباطن ، وتوجس عزمنا وإرادتنا لأثر محتوم لما أنزلوه بنا من رعب وبطش . لقد أنشبوا قسوتهم فى الشعب وشردوا

طمأنينته ، وضاقت عليه المحاولات بما رحبت ، وبقيت لذلك مثلا ، تلك القصة التى تروى عن أحد الولاة الأتراك ، حكم هذا الوالى على مصرى بالإعدام ،وعند التنفيذ شدوا وثاقه ، وربطوه إلى سارية ، ثم سألوه . ألك حاجة قبل أن تموت ؟ .

قال : نعم ، أن أنقل إلى سارية أخرى ...

ففصموا وثاقه ، وإذ هو فى طريقه إلى العمود الثانى ، توفى الوالى الذى حكم بإعدامه ، وولى الأمر بعده وال جديد ، ألغى حكم الإعدام وأفرج عن المصرى المسكين . !

إن هذه القصة لم تقع ، وإنما اصطنعها آباؤنا ليصوروا بها مبلغ القهر الذى أخذ بخناقهم ، وهوان الأمل الذى ناطوا به خلاصهم ، فالجماهير المضطهدة المغلوبة على أمرها بعد أن عجزت عن مواجهة جباريها بوسائل عملية حاسمة ذهبت تتمنى ، وتتخيل ، وحتى خيالها كان مكبلا يدور فى مـــدار ضيق مساحته تلك الأشبار التى تفصل بين ساريتين ... !

ومن هنا إذن جاء هذا المثل الذى ترتله الملايين اليوم : «من خطوة لخطوة يأتى الله بالفرج »

إنه تعبير آخر كتلك القصة التصويرية عن بغى الاستعمار التركى الذى حرم الناس حتى من رحابة الأمل . ! وكان للأسقام والأفناء سياسة مرسومة كالسياسة المرسومة للأذلال ، ولـكن ماصالح الاستعمار فى إذلال الناس بالعلة ، وإفنائهم بالجملة وهو فى حاجة إليهم ليخدموه ؟

والجواب على ذلك — أن سليمان بن سليم كان قد أصدر الفرمان الذى جعل نفسه به المالك الأوحد لجميع أرض مصر — وهو لن يزرعها بيده طبعاً فأعطاها ، للملتزمين ، نظير ضرائب فادحة لاتبقى للملتزمين سوى

بمسكة الرمق ولكن هذا القليل المتبقى للملتزمين لم ينج من أطماع سليمان ، غير الحكيم ، فاشترط أن تؤول إليه جميع تركات المتوفين الذين لاعقب لهم ولاوارث وبقى هذا المرسوم نافذاً بعد خلافته ومماته.

ثم تطاول العهد ؛ فكان الباشوات الأتراك يجبون هذه التركات لأنفسهم وليرشوا بها السلطان أيضاً – فاشتد حرصهم على أن يموت أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين تتوافر فيهم الشروط . ! وطبعاً لاسبيل لتمييزهم فأتاحوا للأوبئة أن تتخذ من بلادنا مزاراً ووطناً لتحقق لهم الغرض الدنىء ولتعصف بكل محاولة للمقاومة والنضال ، ومن هذا الإحصاء المتواضع ندرك مبلغ ماكان بين الأوبئة وبين حكم (آل عثمان) من صداقة وائتلاف !

فنى عام ١٥٢٨ اجتاح مصر طاعون صرع ستمائة ألف نفس .
وفى عام ١٥٣٥ اجتاح مصر وباء صرع ثلثمائة ألف نفس .
وفى عام ١٥٥٠ اجتاح مصر طاعون خرب مائتين وثلاثين قرية .
وفى عام ١٧١١ اجتاح مصر طاعون اسماعيل ، وصرع ستين ألفا[1]
هذه الأوبئة المنقضة الموصولة جعلت من آبائنا الأقدمين ، حملة ميكروبات ، الوهن والسقم توارثناها ، ولا تزال أرحام الأمهات تنشق كل يوم عن نماذج واهنة لتلك الوراثات !

ونلاحظ أن الاستعمار الانجليزى قد ورث فيما ورث عن سابقه هذه المؤامرة السفيهة المتوحشة ، فسلط علينا وباء الكوليرا فى أعقاب الحرب حتى لانجد قوة نثور بها فى وجهه ، ورفض رجاء الحكومة المصرية فى منع القيادة البريطانية عن بيع فضلات الطعام الملوث بالأوبئة المتيل بالأمراض ، وحتى الوقت الذى نكتب فيه هذه الكلمات لا تزال

---

(١) تاريخ الحركة القومية — جـ أول — عبد الرحمن الرافعى

بريطانيا ترفض حق مصر القانونى فى إنشاء محطة رقابة صحية بمنطقة « فايد » كى تتمكن من إشراف صحى كامل على وسائل المواصلات فى تلك الأراضى المصرية . !

* * *

ولم تكن وسيلة الإذلال لدى الاستعمار التركى ، السوط وحده ، بل والسلوك أيضاً ، فالوالى التركى ذو سلوك خاص مع الشعب ، سلوك يمتاز بالصلف والغطرسة والتعالى ، وهو نوع السلوك الذى كان السلطان يعامل به الولاة والرعايا ، فالسلاطين حين يخاطبون الولاة والباشوات يقولون « . . أما بعد ، فقد رأت إرادتنا السنية الشاهانية (كذا) فإذا أردت اكتساب الملوكانية ، فتعال إلى أعتابنا ، واقسم على طاعتنا والإخلاص لنا » ...

هكذا يخاطب السلطان الولاة ثم تتم مراسم الهوان بالسعى إلى أعتابه والقسم بين يديه على الطاعة والإخلاص ! .

وهم إذا خاطبوا الشعب لايوجهون الحديث إليه لهوان شأنه . بل يخاطبونه بواسطة الباشوات قائلين : « بلغوا عبيد بابنا العالى » ! .

ثم لكى تكون سيادتهم مقدسة وعبودية الرعايا ضربة لازب يعلنون فى قحة أنهم «احتلوا عرش أجدادهم الأمجاد طبقاً للأوامر الواردة من ملك الملوك» ولم يكن هناك مايربطهم بملك الملوك جل شأنه سوى هذا الانتحال . لقد راض الاستعمار التركى رعاياه على الذل ، وراض ولاته على الزلف ، ويمثل الأخير أصدق تمثيل خطاب الخديو توفيق المرفوع منه إلى الصدر الأعظم بمناسبة تعيينه مكان والده المخلوع .

نحن الآن مع الصفحة « ٢١٦ » من الجزء الرابع لكتاب الكافى فى تاريخ مصر ، وأبصارنا تقترب مشدوهة لتقرأ :

« وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الآمر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن الحكومة المصرية ، وتوجيه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية لعهدة رقيقكم هما من مقتضى عالى إرادته السنية السلطانية ، وبالحقيقة أن تكرم حضرة صاحب الخلافة الأقدس الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهدة هذا العبد كان دليلا على وجود عبدكم مشمولا بفيض النظر الملوكانى . .

« فلذا رفعت إلى مقر إجابة الرب القدير أكف الأدعية الخيرية ببقاء عمر ، وعافية ، وارتقاء شأن ، وشوكة الحضرة السلطانية . عالما علم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية . » ... !!

من هذا الذى يتكلم ، ويكرر كلمة عبدكم ورقيقكم مرات عديدة . ؟ أهو فرد عادى من الشعب . ؟

أنه الخديو يبذل كرامته بسخاء ، لأن السلطان التركى لايقنع بدون هذا الهوان من تابعيه وموظفيه . ونستطيع على ضوء هذا الخطاب أن نتصور مبلغ اعتداد الشعب بشخصيته — إذا كان هذا مبلغ اعتداد خديويه وحاكمه

ونستطيع أيضا أن نقف على تفسير علمى صحيح لقول توفيق للمصريين « أنتم عبيد إحساناتنا » واختياره كلمة (عبيد) بالذات . إنها عملية تعويض لاغير ، وهو فيها معذور ، لقد تواضع كثيراً للذين فوقه فلابد أن يتقاضاه من الذين تحته ، من الجماهير والرعايا . ! !

(و) الخداع بالدين . !

ولم يترك الأتراك وسيلة يستغلون بها الرعايا إلا انتضوها وإذ كان شعبنا متدينا عميق التدين ، فقد استغلوا فيه هـــذه الفضيلة أسوأ استغلال فالسلطان سليمان الذى جرد الأمة من جميع أرضها وأملاكها ، جاد عليها بكثير من المساجد والكنائس التى بنـــاها . ! وفى الوقت الذى وقع فيه فرمانا يجعله « المالك الحر لجميع أرض مصر » ، وقع فرمانا آخر هذا نصه « لا تخرج امرأة قط إلى الأسواق والشوارع ولو متنقبة إلا العجائز ، ومن تخالف تضرب ، وتربط من شعرها فى ذيل حمار ويطاف بها فى القاهرة » .

وفرمانا ثالثاً : « نطلب من الناس جميعاً أن يسيروا بمقتضى الشريعة ، ويعملوا بموجب السنة » !

يا سبحان الله ! نهب وإقطاع ، ثم دعوة إلى القرآن والسنة . !
عتو وجور . ثم تشييد للمساجد والمعابد . !

هذه شجاعة ضمير لا يقدر عليها سوى الأتراك أحد . إن خالق هؤلاء وخالق نيرون واحد . فحين ولى « نيرون » الإمبراطورية الرومانية قدمت إليه أوراق محكوم عليه بالإعدام لتوقيعها . فبـكى ، بكى نيرون وصرخ : ليتنى ما تعلمت الكتابة . ! ولـكنه فى الفصل الثانى من الرواية ، رواية حياته الآثمة ، سفك دم أمه بيمينه ، وأحرق روما وهو يقهقه أمام مشهد صاخب من مشاهد الجحيم . إن الحـكام الأتراك لـكذلك ، يؤمنون أول النهار ، ويكفرون آخره ، ويخدعون الشعب بمجاملة نزعة التدين فيه ثم يأكلون حرثه ونسله ، ويسومونه سوء العذاب .

والشعوب حين تبتلى بهذا اللون من السلاطين ، ولا يكون فيها رجل كالعز بن عبد السلام يقرع الجرس ويبيع أمراء المماليك بالمزاد ، فإن عاقبة أمرها تـكون خسرا ، وهكذا كان عصر الاستعمار التركى لمصر وللعرب .

ألم تر مرة أو مرات . رجلا يشكو ويئن ، فيقول له صديقه متهكما أو مسليا : ادع للسلطان بالنصر . ! إن لهذه الكلمة الذائعة قصة فى تاريخنا القديم والحديث .

فقد دخل «شيخ تركى» أحد المساجد ليخطب الجمعة فى عهد بعض السلاطين الأتراك ، فوجد المصلين جميعاً رقوداً يئنون . فسألهم عن سر هذه الظاهرة الصامتة فأجابوه : أن الباشا هاجم بيوتنا ومعه « الشوباصى » والجند ، وانتهبوا ما فيها من حبوب وقوت زاعما أنه سيرسلها إلى جيش السلطان . فسألهم الشيخ : أليست جيوش السلطان تحارب الكفار ؟

أجابوا فى سذاجة : نعم !

قال الشيخ : إذن — ادعوا للسلطان بالنصر . !

وذهبت مثلا . .

ولقد أفاد نابليون من هذه التجربة يوم غزا مصر فاستغل الدين ورجاله وشهدت شوارع القاهرة منشورات كبيرة هذا نصها :

« نصيحة من علماء الدين بمصر »

« . . نخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الأفرنجية ، يحبون المسلمين وملتهم ، وهم أحباب لمولانا السلطان . قائمون بنصرته ، وأصدقاء ملازمون لمودته ، يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه . ولذلك بين الفرنسيين وموسكو غاية العداوة الشديدة وهم يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكو إن شاء الله . . » !

إن استغلال الاستعمار التركى للدين لم يكن مصادفة ولا اتفاقا . . بل هو ثمرة خطة واعية هادفة أصاب البلاد منها شر وبيل . بل وكان الدين نفسه مجنيا عليه فيها . وآية ذلك مالا نزال نراه من التعصب ضد المرأة باسم الدين ؛ فليس هذا من الإسلام فى شىء . . ولكنها الخرافة الدينية

التى روجها الأتراك ، وأصدروا بها فرمانا ومرسوما .

وعلينا أن نعيد تلاوة مرسوم السلطان « سليمان » الذى مر بنا آنفا ، والذى حرم على المرأة أن تخرج لحاجتها ولو منتقبة ، ولمن تفعل تربط بشعرها فى ذيل حمار . !

أهذا هو الإسلام الذى خاطب رسوله النساء قائلا : « إن الله أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن » وأباح لهن الخروج حتى بغير نقاب وحجاب ؟ لكن أمة تعيش ثلاثمائة عام فى ظل الجهالة التركية ، والتنطع التركى والسيطرة التركية لا بد أن تثمر ما نعانيه اليوم من رجعية وانحطاط وتعفن .. !!!

* * *

لقد قال أحد الخلفاء الأتراك : « سأصنع بكم كما يصنع قيصر الروس برعاياه » مخاطباً شعبه وشعوب مستعمراته . ! فماذا كان يصنع القيصر ؟

هنا سيتبين صدق قولنا ، إن استغلال الدين كان خطة مرسومة ، ولم يكن مصادفة طارئة ، فقد كان القيصر — أى قيصر — بارعا فى استغلال دين بلاده .

وكان رجال الدين فى الكنائس يصلون بالناس « صلاة القيصر »

أيها القيصر ، نحن عبيدك المخلصون . ! يا ظل المسيح . ! ويا روح الحق . ! نعيش لخدمتك . ! ونطيعك فيما تقول . ! وهكذا أراد الأتراك أن نعبدهم من دون الله ، وأفهمونا ! ، وهم يتولون الملك كابراً عن كابر ، أو صاغراً عن صاغر ، أنهم كما يقول الفرمان « يتولون العرش طبقاً للأوامر الواردة من ملك الملوك » ... !!

(ز) الاستعمار التركى — والجهل :

وهذه الأمية التى لا تزال لطخة سوداء فى وجه مصر أثر من أمجد آثار الاستعمار التركى ، وأحقها بالإشادة والتنويه ، فقد عاشت مصر أعوامها

الثلاثمائة محرومة من الثقافة والمعرفة ، ودبر الأتراك مؤامرة للأجهاز على لغة البلاد ، وأسموا اللغة العربية « لغة الفلاحين » وكانت اللغة التركية لسان السادة والقصور ، ولا تزال مظاهر هذه الاستهانه بلغة البلاد ماثلة أمامنا — فعلى بعد خطوات منا ، وفي داخل القصور السعيدة المترفة — يعيش أقوام لا يعرفون عن لغتنا القومية شيئاً سوى أنها الهمهمة التي تتحرك بها شفاه الرعايا ، وتضطرب بها مشافر القطيع حين يكلم بعضه بعضا . . ! ولقد كانت مصر قبل استعمار الترك واحـــة يأتلق فيها علماء نوابغ كابن إياس وابن خلكان والمقريزى وابن حجر وابن العميد والذهبي والدميرى وابن نباته وصاحب « صبح الأعشى » وسواهم ، كذلك كانت مهاجر الأحرار المفكرين حين يمسهم في بلادهم نصب واضطهاد ، فقد هاجر إليها ابن خلدون وابن تيمية وابن القيم وآخرون . فلما جن ليل الأتراك . وكان ليلا بهيما . ران الجهل على البلاد وعاش قرير العين في حمى حلفائه وأصدقائه الأتراك .

ترى هل كان اضطهادهم للعلم تشيعا للجهل . ؟

هنا نلتقي بكارل ماركس ، على غير موعد بيننا ، حيث تضيء لنا الطريق نظريته التي يرد بها جميع الظواهر والأشياء إلى أسباب علمية واقتصادية فلقد كان للمدارس أوقاف كثيرة يانعة . تلفت الأتراك نحوها ثم قالوا : يا ليت لنا هذا الطول العريض ، وما أسرع ما تتحقق لهم الأمنيات ، فنهبوا أوقاف المدارس ، وباعوا جميع المكتبات الكبرى التي كان الفاطميون قد خلفوها — وجاوز جشعهم واستكلابهم كل حد ، فاقتلعوا أبواب المدارس ، وأخشـاب النوافذ والسقوف ثم باعوها . ! يقول على باشا مبارك في « الخطط التوفيقية » ، أهمل أمر المدارس ، وامتدت يد الأطماع إلى أوقافها ، واحتجزت مرتبات المدرسين والطلبة والخدم ففارقوها جميعاً

وانقطع التدريس فيها ، وبيعت كتبها وانتهبت فخربت وصارت زرائب » .

لماذا ننبش القبور : ؟

هل تظن ، وأنت تقرأ هذه السطور ، وتستعرض بعض مشاهد الماضي، أنك أمام عرض تاريخي ، أو حديث نزجي به الفراغ ، ونملأ به الصفحات. لا — أنت أمام غرض أجل ، وغاية أسمى .

ونحن ننبش قبر الاستعمار التركي حقاً لنكشف الأوتاد المطمورة. تحت ترابه والتي لا تزال تصلنا بها سلاسل وأغلال . أن نشوء الجريمة يلقي ضوءاً ناصعاً على أطوار نمائها ، وعوامل تشبثها بالبقاء ، ونحن شعب تعيث فيه جرائم الاستبداد السياسي ، والاستغلال الاقتصادي ، والإقطاع المتفشي ، والرجعية المنحدرة ، وتحتل نفوسنا عقد غليظة تحملنا على الخنوع والعجز والاضطراب ، ويجثم فوق ظهورنا ماض موقر بالأوزار يوبقنا عن الحركة ويعتاقنا عن التقدم ، فليس لنا بد من تطهير آبارنا .

إن علماء الاجتماع يقررون أن « روح الأمة يسيطر على مصايرها ومستقبلها » .

وأمتنا . . ما هي ؟

أنها ليست جيلا يقيم على أرضها ثم يزاور ويختفي ، بل هي تيار بشري، متساوق الموجات ، يجري لا مستقر له . . وكل موجة فيه دافعة مدفوعة . مؤثرة متأثرة ، معطية آخذة . . وهي في نقل تطورها تأخذ من ماضيها وتصب في حاضرها ، وتتدفق نحو مستقبلها . وما لم ننظف روحنا المسيطر من رواسب الماضي فسنظل دائماً نعيش في ذلك الماضي برجعيته وفساده، واستبداده . . وسيظل الشعب جاثيا تحت الأثقال التي أنقضت ظهره، وهدمت قواه .

لا بد لنا من روح جديد مطهر من ذكريات الأخفاق والفشل . . تسويه وتنفخ فيه ضرورات حاضرنا ، وتبعات مستقبلنا . . وإذا لم نصنع فسنظل امتداداً لظلمات الحكم التركى ، ومطايا ذللا تحمل فوق ظهورها أخطاء وأعباء ماضيها . . وقطيعا أبله ، يضطرب فى المرعى القاحل ويدور . . يرى هشة العصا فيتراكض . . ويصك الزحام بعضه ببعض فيتهارش . . والراعى هناك فوق الهضبة السامقة ، يسوس القطيع بنظراته الزاجرة . . وهو يقلب بيديه البضتين شرائح الشواء على المدفأة . . حتى إذا غص بطنه الكريم . . ألقى على القطيع نظرة فاحصة . . واستل سكينه المخضبة ، وخاض بين قطيعه المطيع . . يتخير منه ذبيحاً آخر ، لوجبة أخرى . . . ! !

فلنغادر الماضى :

إن هذا العرض « السيكولوجى » للحقبة التى قضيناها فى قبضة الاستعمار التركى لتكشف عن المأساة . . المأساة التى تتمثل فى أننا — الدولة الشعب — لا نزال نعيش فى ذلك الماضى السحيق . . إن كل نصيبنا من التقدم ومزاملة الزمن . . بل كل ما يربطنا بالحياة المتجددة السيارة هو تواريخ الشهور الأعوام .

فنحن نؤرخ لوجودنا الآن بعام « ١٩٥١ » بيد أننا نعيش فى « ١٥١٧ » حيث بدأ الاحتلال التركى ، فيما تلاه من أعوام وقرون . فالعجز السياسى . الرجعية الاقتصادية . . الانهيار الخلقى والشعب المستسلم والحكم الأتقراطى . . والفساد الإدارى . . والحريات المصادرة . . واستغلال الدين . . كل هذه الخطايا تقترف اليوم بنفس الهمة العالية التى كانت تجترح بها فى تلك القرون .

ودلالة هذه الحقيقة المؤسفة أننا لانزال نعيش فى ظل الاستعمار التركى.. صحيح أن أشخاصه اختفت وطواها التراب . . ولكن أخلاقه وشعائره لايزالان يشمران

كل ما أثمراه بالأمس من فساد . فأول أغلالنا التي تصفدنا ، هذا الماضي . . . فلنغادره ، ولنصنع لنا حاضرا جديداً باسلا ، وستكون فصول الكتاب الآتية بمثابة القنطرة التي نقترح إقامتها/للعبر عليها . . مغادرين هذا الظلام ، ميممين وجوهنا شطر حياة تستحق أن تسمى حياة .

والآن ، فإلى ثاني أغلالنا .

(٢) الاستعمار البريطاني :

إن الفساد التركي الذي أوجزناه في السطور السالفة . . كان القنطرة التي عبر عليها إلينا الاستعمار الإنجليزي . وبقاء آثار ذلك الفساد . هو العامل الأوحد في بقاء الاستعمار الإنجليزي . فالاثنان مرتبطان نشوءا ، وتطوراً وبقاء ، وهذه حقيقة يجب أن تملأ منا البصائر والأذهان .

عندما بدأت الامبراطورية الباغية ـ التركية ـ تترنح تحت وطأة الترف الذي بددها ، والفتن التي مزقتها . . كانت طبائع الأشياء تهيب بسيد جديد كي يتقدم ليستولى علينا . . وكان هذا السيد هناك ، وراء الحوادث واقفاً يترقب .

لم يكن نابليون . . فقد ذهبت محاولته في نفس الطريق الذي ذهبت فيه محاولة لويس التاسع في القرن الثالث عشر . . بل كان هذا الناهب الجديد . . بريطانيا .

لماذا دخلت بلادنا . ؟

لقد أعلن الجنرال «هتشنسون» بلسان حكومته أن القوات البريطانية جاءت لتثبيت سلطة الباب العالي ، إذن فالأترك هم الذين أدخلوهم ديارنا بعد أن قبلوا حماية الإنجليز لهم من الفرنسيين أولا ، ثم من الشعب ثانيا ، وأعلن الإنجليز أنهم مسئولون عن حماية الباب العالي ومنافعه ونفوذه .

وقبل أن يغادروا مصر هذه المرة احتفروا وقيعة غائرة بين الأتراك الذين يدعون الحرص عليهم وبين المماليك ، ثم أوعزوا إلى « محمد الألفى » أن يذهب إلى لندن ليطلب معونة الإنجليز وحمايتهم . ! وهذه هى اللعبة التى ظلت بريطانيا ولاتزال تلعبها لتبقى مصر منطقة نفوذ لها ، فقد تكررت فى المؤامرة التى أوقعوا فى حبائلها «توفيق عرابى» ذهبوا يمثلون نفس الدور مع أحمد عرابى موعزين إليه أن يطلب حمايتهم كما صنع الألفى سابقاً . فيحدثنا شاهد عيان هو « شاربيم بك » فى الجزء الرابع من كتاب « الكافى » :

« . . وتقدم كوكسن نائب القنصل الانجليزى من أحمد عرابى أمام قصر عابدين فى يومه المشهور وقال له : إن كنت تخشى شيئاً فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أراوحكم وعيالكم وأموالكم ، وجميع مالكم من الرتب وألقاب الشرف . ! » !

أرأينا . ؟ أنها نفس اللعبة القذرة التى دخلوا بها ، وعليها الآن يتكئون ويرتكزون . . ولقد أجاب عرابى جواباً جديراً بمصرى أصيل فقال :

« بورك فيك أيها السيد ، كيف تحفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت نفسك غريب تعيش فى حفظنا حمايتنا . ! ؟ » وأراد عرابى أن يبالغ فى إحراجه وإذلاله ، فقال :

« كيف تستطيعون حمايتنا وقد وعدتم بها ومعكم فرنسا ، اسماعيل صديق باشا ، ثم لم تدفعوا عنه مرارة الكأس التى شربها قهراً . ؟ » .

إن عرابى يومذاك كان يمثل كل الوارثات النبيلة الأصيلة التى نبض بها تاريخ هذا البلد الطويل . وماذا عليه لو دخل فى حماية « كوكسن ، وكولفن » كما صنع الآخرون . ؟ إن طينته الأصيلة ترفض هذا الهوان .

الـكلمة الثانية :

وسمع الإنجليز الفتنة وأججوها ، وتقدم ممثلهم فى مصر من عرابى وسأله :

— ماذا تفعل إذا لم تجب مطالبك . .

أجاب : أقول كلمة ثانية .

— وما هى هذه الـكلمة ؟

أجاب : أقولها عند القنوط .

وعمل الإنجليز على أن يقنط أحمد عرابى فرضوا عليه الخديو وعندما قال كلمته الثانية كانت الشوارع تموج بالدم والأشلاء .

ثم كان منشور الخديو والخليفة التركى يتلى ويذاع مبشراً بعصيان عرابى ومن معه . . ثم توالت المشاهد تترى فى تناقض عنيف . .

فالخديوى توفيق يعود إلى عابدين من الأسكندرية . . . وأن موكبه ليتهادى بين صفين طويلين من جيوش بريطانيا الغازية . . . وفى نفس الوقت يدفع أحمد عرابى بأعقاب البنادق إلى غرفة مظلمة فى قشلاق قصر النيل . . ! والخديو توفيق يشرف الوليمة الـكبرى التى دعا إليها القوات البريطانية ويجلس بجوار الدوق « أوف كانوت » تحت العلم البريطانى الذى يخفق خفقات التحدى والازدراء . . حتى إذا فرغوا من الطعام قام بين عزف الموسيقى وقرع الطبول ليقلد نيشان « النجمة المصرية » كل جندى انجليزى شهد موقعتى كفر الدوار والتل الـكبير . . !

وفى نفس الوقت كان أحمد عرابى هناك . . يستمع إلى عريضة الإتهام : « يا أحمد عرابى — لقد أتوا بك أمام هذه المحـكمة بصفة أنك متهم بالعصيان

والخروج على طاعة « الذات الخديوية » وعقابك على هذه الخيانة يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى ، والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى » ؟

ومشهد آخر . . .

فعلى جدران البيوت والشوارع ألصق هذا المنشور الكريم :

« إرادة سنية لكافة أهالى وسكان مصر »

لما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر منافع كبرى مالياً ومادياً ولا سيما بالنظر إلى قنال السويس ، فقد أخذت إلى عهدتها التدخل الفعلى لقمع المفسدين دون أن تمس احقوق السلطة السنية والامتيازات المصرية .

« ولتحققنا أن نيتها ومساعيها فى الظاهر والباطن ليست إلا الإصلاح . قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الإنجليزى بالتحول نحو جموع العصاة ، واستعمال القوة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤوسهم .

« وبما أن العساكر الإنجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين فإنهم جديرون بالمعاونة والمساعدة . . . وعلى كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالإكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم » ! ؟

ثم دار الزمن دورته ، ووقف محمود فهمى النقراشى بمجلس الأمن صارخاً فى وجه بريطانيا : اخرجوا من ديارنا أيها المتطفلون . .

فنهض رجل عملاق فى برود وثبات وسخرية .. وأشار بيده كالسهم . . كأنه يومىء إلى تاريخ قريب وقال : أيها السيد .. إننا لم نتطفل على بلادكم .. ولكننا دعينا فأجبنا الدعاء . . . !

وأغلق النقراشى فمه . . ودارت برأسه الكلمات . . وصرخ فى أعماقه صرخة مكتومة ، فقد ذكر كل شىء وأفاق . . لو سارت الأمور كما يريد عرابى وتوفيق . . أكان سيحدث هذا الذى حدث . . ؟ من يدرى ؟ . . . ولكن الإنجليز أرادوها فتنة صاخبة ليتسللوا فى دخانها المتكاثف داخل بلادنا . وقدكان وهذا درس بليغ فلنذكره حتى نعود إليه بعد حين .

الإنجليز وجيشنا :

قرر الإنجليز أن يكون استعمارهم قفصاً كبيراً يسجن فيه طموحنا وآمالنا . فرسموا من أول الأمر سياسة إضعاف الجيش — حتى نظل هوانا يسام — لاقوة تسيم . ولذلك كان منشأ حقدهم على عرابى وتعجيلهم بتسديد الضربة إلى مصر ، محاولته النهوض بالجيش ، وإرباءه إلى ثمانية عشر ألفاً . ولذلك أيضا رأيناهم يلغونه ويسرحونه غداة انتصارهم على عرابى — واختصروه فى لواء صغير جميع ضباطه من الإنجليز . ومحوا العلوم الحربية والعسكرية كلها من المدرسة الحربية التى كانت تخرج لنا الضباط ، وهم الذين تعهدوا فى معاهدة سنة (١٩٣٦) بتسليح الجيش وقبل أن يجف مداد المعاهدة ، ويتلاشى من الأفق صدى طلقات المدافع الفرحة ، صدروا إلينا « ذخيرة كذابة » لاتصلح لصيد العصافير !. وهم الذين عثروا يوما بسلاح طيراننا على (٥٠٠٠) قنبلة ثقيلة فاقترضوها ، ثم أبوا أن يعيدوها حتى اليوم ، وهم الذين حرموا علينا استيراد أسلحة من دولة كروسيا ثم امتنعوا عن بيعنا أسلحة قبلوا فعلا أثمانها ! وهم الذين فزعتهم محاولاتنا الأخيرة ، فجاءوا بإسرائيل لتحاربنا وتحاربها ، وفى قلب الملحمة تخلوا عن التزاماتهم حيالنا . لا مجاملة لإسرائيل فحسب . بل لغرض آخر ، هو تعريض جيشنا لهزيمة ماحقة تذل كبرياءه وتزلزل ثقة الأمة فيه ، وثقته بنفسه

ونحن على يقين ، أن تلك السرقات والآثام التى اندملت عليها حملة فلسطين ـ كانت بتدبيرهم غير المباشر وإغرائهم غير المرئى ، وتحريك مطامع الجناة وشهواتهم دون أن يعرف أحد حتى الجناة أنفسهم ، المحرك الأول لهذه الشهوات ، وهى خطة هادفة أراد الإنجليز أن يحدثوا بها هزيمة معنوية بعد الهزيمة المادية التى كانوا مؤمنين بها ، وفى الوقت المعلوم ونحن ننادى بقدرتنا على حماية خطوطنا ومنطقتنا وندعوهم للجلاء ، كشفوا الغطاء عن الخبء الكريه وقالوا : ها أنتم هؤلاء . . . !

إن سفارة انجليزية ـ غير رسمية ـ سفارة مجهولة تعمل فى بلادنا عمل الجبارين لتصيبنا بشر مايمزقنا ، وهم فى هدم الجيش يصدرون عن سياسية تقليدية لهم أوصاهم بها (غلادستون) يوم قال : حذار أن تسلحوا الجيش المصرى . . ؟

الانجليز . . ووحدتنا .

والإنجليز الذين أثاروا الفتنة بين العثمانيين والمماليك ليسوغوا بقاءهم ثم حملوا الألفى على الاستنجاد بهم ـ ليكون بقاؤهم مشروعا من الجانبين ـ جانب السلطان وجانب المماليك .

والذين فرقوا بين توفيق وعرابى ليعودوا بجيوشهم ويحتلوا البلاد احتلالا عسكرياً مدبراً .

هؤلاء هم الذين أغروا سعداً بعدلى ، وعدلياً بسعد ، وأقاموا سياستهم على بث الحقد وتعميقه فى نفوس بعض الزعماء على بعض ، وبعض الجماعات على بعض . ليس الخلاف فى الرأى هو هدف الإنجليز ، فالخلاف فى الرأى لايضير

ولـكنه الحقد والخصومة واللدد . . وستظل ضحايا هذه الخصومات السود مادام للانجليز فينا نفوذ ، وهم حين يعجزون عن النفاذ إلى وحدة الأمة بإحدى وسائلهم الـكثيرة ، ينفذون من الزاوية الحادة غير مكترثين . إن زعيمهم « دزرائيلى » يناديهم من مكان غير بعيد :

« لا بأس بالغدر والـكذب والوقيعة ، إذا كانت هى الطريق » !

الانجليز وحريتنا !

ولقد اضطهدونا اضطهاداً موصولا — ولا يزالون — وساموا حرية الشعب سوء العذاب ، واصطنعوا لأنفسهم حثيات من الذين تجرى فى عروقهم مصرية مستعارة وسلطوهم على الجماهير وأحاطونا بحصار قاس ظلوم ، فلا نتصل إلا بالدولة التى يختارونها ، ولا نصادق إلا من يصادقون ولا نعادى إلا من يعادون حق حرية البيع والشراء . حرموهـــا علينا ، ولقد اشتروا قطننا ذات عام بعشرة جنيهات للقنطار الواحد ، وباعوه على بعد خطوات منا بخمسين جنيها ، فى السودان ! بل حق حرية الاحتفاظ بالعرض والشرف ، سلبوها منا ، ففى وزارة محمد محمود « باشا » الأخيرة ، هم بإلغاء البغاء فمنعه الانجليز قائلين :

— وأين يقضى جنونا وطرهم . . . ؟؟ !!

أى أنه لابد للدولة بعد أن استبيحت أرضها وسيادتها ، أن تقدم للغزاة نساءها بنفس السماح الذى تقدم به غذاءها وكساءها . . ! وقد يتكلف الإنجليز اليوم التسامح والحلم ، لأننا صامتون ، ولـكن هذه الأردية الـكاذبة تخلعها عنهم المقاومة حين تـكون ، ففى ثورة « ١٩ » لم يتركوا موبقة إلا اقترفوها ،

قتلوا ، وصلوا الآذان ، وسملوا العيون ، وهتكوا الأعراض فى عربدة معدومة النظير . ! وكل الذى نعانيه اليوم من قهر واختناق . بقية من القوانين التى وضعوها ، والتى أوحو بها ، لتكبيل حرية القول وحرية الرأى، ويجب أن نعلم أن الاستعمار البريطانى يقف وراء كل إجراء شاذ تصادر به حريات الشعب وتسفه به رغباته ، وحين نتحدث عن واجبنا إزاء هذا الاستعمار فى الفصل الأخير ستزداد هذه الحقيقة تألقاً ونصوعاً .

(٣) البرلمان البرجوازى

إن الاستعمار البريطانى ذكى ، وهو ، وقد ورث مخلفات سلفه البغيض ، الاستعمار التركى ، حاول أن يصوغ هذه الأساليب القديمة فى أخرى مستحدثة ، وأن يسكب الفساد القديم والبغى القديم والمكر القديم فى قوارير جديدة ثم يقدمها لرعاياه شراباً سائغاً .

وإذا كانت الشهوات ، كما يقول أندريه موروا ، فى حاجة إلى أجساد تتقمصها كى تعمل فإن الاستعمار البريطانى لم يقنع الأجساد ، بل تقمص النظم والقوانين كذلك ، فقد عاوننا على أن تكون لنا حياة نيابية ، ولكنه وقد شهد ميلادها بل وساهم فى خلقها ، صاغها كما يريد ، لا كما تريد ضروراتنا وطموحنا .

فالحياة النيابية الانتهازية . والبرلمان الاقطاعى يوما ، والبرجوازى يوما آخر ، هو الغل الثالث الذى يقيد حياتنا ويعتاق نموها . ونحن لانعنى برلمانا بعينه ، ولا هيئة نيابية بذاتها . نحن نعنى روح هذا النظام التى تتقاصر دون حاجات الشعب ولا تسعفه بما يريد . فالأثرياء والمحظوظون لايمكن أن يمثلوا كل التمثيل شعبا حالفه الجوع والحرمان . ولكى نخلص من إثبات هذه الحقيقة

أولا : وتثبت أن الذين يتحدثون من زمن بعيد باسم الفقراء . ليسوا . . . بل لم يكونوا ساعة واحدة من أعمارهم فقراء ، نطالع أسماء أعضاء أول مجلس نيابى ، ثم ماتلاه من مجالس وهيئات .

إن أول مجلس كان مجلس شورى النواب الذى تألف عام « ١٨٦٦ » . وكان ندوة للطبقة البرجوازية الرفيعة فى البلاد . كان جميع الأعضاء من العمد ، وكان العمد يومذاك يمثلون الصف الثانى ، أما الصف الأول فالإقطاعيون الكبار . وأما الثالث فالشعب البائس المحروم .

فمديرية الغربية نجد ممثليها فى المجلس من طراز أتربى بك أبو العز .

على كامل — عمدة القصرية :

الحاج شتا يوسف — عمدة أبى مندور .

الحاج محمد حمودة — عمدة برما الخ .

ومن مديرية المنوفية نجد .

الحاج على الجزار — عمدة شبين الكوم .

محمد افندى شعير — عمدة كفر عشما :

على أبو عمارة — عمدة مليج .

وعن الشرقية نجد :

بركات الديب — عمدة القرين .

محمد افندى عفيفى — عمدة الزوامل .

عبد الله عياد — عمدة كفر عياد .

وعن أسيوط نجد :

عثمان غزالى — عمدة بنى رزاح .

يوسف محمد عمر — عمدة الشيخ تمى

عبد العال موسى — عمدة دروة .

وهكذا عن بقية المديريات . . كلهم عمد وأعيان . ؟ (١)

فاذا جئنا البرلمان الذى انتخبه الشعب سنة ١٩٢٤ وكان أول هيئة نيابية دستورية ، وجدنا الباشوات والأعيان أيضاً .

فاذا سرنا على الدرب ألفينا نسخا لطبعة واحدة أو طبعات متعددة لكتاب واحد .

فتارة نلتقى مثلا بأصحاب السعادة :

أحمد ذو الفقار باشا

أحمد زكى أبو السعود باشا

أحمد على باشا

اسماعيل سرى باشا

حسين خيرى باشا

وتارة أخرى نلتقى بـ :

حسن شريف باشا

محمد أفلاطون باشا

محمد العبانى باشا

حسن حسيب باشا

عثمان محرم باشا

محمد البدراوى عاشور باشا

وهكذا تسير منذ بداءة الحياة النيابية حتى اليوم بين صفين طويلين من الباشوات والأعيان . فإذا بلغت الهيئات النيابية الحديثة وجدت نفس الظاهرة .

---

(١) عصر اسماعيل — عبد الرحمن الرفعى بك .

وأمامى الآن أسماء خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ لهيئة برلمانية حديثة خمسة فقط يملكون ، ٦٥٠٠٠ فدان و ١٧ قيراطا .

ونحن طبعاً ، لانفكر حين نعرض هذه الظاهرة فى التنديد بهيئاتنا النيابية، ولا بأعضائها . وإنما نتساءل فى ضوء هذا الواقع .

هل يمكن لهذه المنظمات النيابية أن تمثل شعبا تسعة أعشاره من الحفاة العراة ؟ هل يمكن أن يوافيها الأحساس الصادق بآلام الجماهير الكادحة ؟ هل يمكن أن تعمل لحرية الشعب وحقوقه كاملة ، وهى تعلم أن كل حظ من الحرية يناله ينقص من حرية الأعلين ، وكل حق يأخذه . يصيب ثراءهم العريض بالنحول . ؟

إن البرلمان البرجوازى ليس أكثر من تضامن الأعضاء مع الحزب الحاكم لتبادل المنافع والمآرب ، والحياة النيابية لاتكون حياة قوية نابضة إلا إذا كانت معبرة عن جميع خصائص الشعب .

وإنا لنجد من الواقع والتجربة مايؤكد اعتقادنا بأن هذا التخبط الذى أصابنا فى الحقبة الأخيرة من حياتنا إنما يرجع لسوء تمثيل الحياة النيابية ، وليس للحياة النيابية نفسها .

والآن نسأل :

ماذا كان يحدث لو وجد بمصر فى عهد إسماعيل برلمان قومى يمثل الشعب ولا يمثل حفنة من أصحاب المصالح والأطيان ؟

وخير جواب على هذا هو سؤال آخر :

ماذا حدث ، ومجلس شورى النواب يومذاك يمثل ذوى المصالح والأطيان . ؟

حدث أن اقترض إسماعيل :

(١) عام ١٨٦٤ - ٥٫٧٠٤٫٢٠ من الجنيهات بحجة مقاومة الطاعون البقرى ، ثم ترك الطاعون يعبث فى البلاد والعباد .

(٢) واقترض عام ١٨٦٥ - ٣٫٣٨٧٫٣٠٠ من الجنيهات ليشيد بها قصر « ميركون » على ضفاف البسفور .

واقترض عام ١٨٦٦ - ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ليشترى بها أملاك الأميرين : مصطفى فاضل ، ومحمد عبد الحليم كى يتخلص من منافستهما له .

واقترض عام ١٨٧٠ - ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دفعها رشوة للاستانة كى يظفر بلقب « خديو » وسافر ببقيتها إلى باريس .

واقترض عام ١٨٧٠ - ٧٫١٤٢٫٨٦٠ لينشىء بها مصانع السكر الخاصة به . ويمد سكة حديد زراعية تربط أطيانه المترامية بعضها ببعض

واقترض عام ١٨٧٣ - ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ رهن قبلها بعض مصالح الحكومة وهكذا ظل يقترض حتى بلغت قروضه ١٢٦٫٣٥٤٫٣٦٠ من الجنيهات[1] .

حدثت هذه القروض المفجعة التى أروى بها اسماعيل هواه . وملأ الأرض قصورا - فشيد قصر عابدين ، وسراى الجزيرة ، وقصر القبة ، وقصر حلوان وسراى الروضة ، وسراى الإسماعيلية ، وسراى الرمل ، وسراى الزعفران ، وقصر رأس التين ، وعشرات أخرى سواها ؛

وحدث أن جاع الشعب . . لتشبع حفنة رديئة تعد على أصابع القدمين من

---

(١) عصر اسماعيل - الجزء الثانى عبد الرحمن الرافعى بك .

بطانة اسماعيل وحاشيته التي يحدثنا عبدالرحمن «بك» الرافعي في كتابه — عصر اسماعيل — أنها كانت من الفرنسيين والإيطاليين الإنجليز الذين لفظتهم بلادهم فوجدوا في بلاط الخديو مرتعاً وملاذاً !

وحدث أن أرهق الشعب بالضرائب إرهاقاً منقطع النظير ، حتى جعل على الأغنام ضريبة . وعلى الحمير ضريبة . !

* * *

والآن : نعود فنسأل : ماذا كانت هيئاتنا النيابية ستصنع لو أنها تمثل جميع الشعب . وآلام الشعب . ؟

كانت ستكره الحكومة يوم امتنع الانجليز عن تسليح جيشنا على أن تتجه فوراً إلى دول أخرى نوع تلك الدول التي لجأت إليها انجلترا وأمريكا يوما ما .

كان سيحدث عندما نزل « شاهنشاه إيران » عن جميع أطيانه للشعب أن تسبق الحوادث التي قد تستجيش أحقاد الشعب ، فتطلب إلى آلهة الاقطاع في مصر أن يتشبهوا بالرجال ، ويردوا للأمة أرضها .

كان سيحدث عندما أذاعت محطات العالم وكتبت صحفه أن مكاسب كازينو إيفيان للقمار قد زادت عام « ١٩٥٠ » ٧٠ ٪ عن الأعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الأغنياء الذين يذهبون إلى بحيرة إيفيان باحثين عن الأشياء المثيرة . أن يصرخ البرلمان في الحكومة . .

من هؤلاء الباشوات : : ؟ وكم من ملايين الجنيهات أخذوا معهم ليشتروا بها لهواً عابثاً ؟

أنعجز هنا عن أن نحاسب (باشوات) ، وهناك في بريطانيا يقف بعض

أعضاء مجلس العموم يحذرون الحكومة أن تتحمل نفقات رحلة ملكى انجلترا إلى جنوب أفريقيا : ولم يسكتوا حتى وافاهم وجد من الملك بأن نفقات الرحلة ستكون من جيبه الخاص ؟ !

وكان سيحدث : عندما تقدمت الحكومة طالبة إقرار مشروع قانون يفصل بين الشعب القصر .

قانون يجعل القصر الملكى « منطقة حرام » ويحرم على الأمة أن تتحدث عن مليكها بغير تصريح من وزير ، أن ينتفض ويقول :

كيف يتحكم الوزير فى شئون القصر وأخباره فيجعل بعضها حلالا وبعضها الآخر حراما ؟ كان سيحدث أن يصرخ برلمان الشعب .

نحن مصر . . ومصر ترفض أن تحاصر أخبار مليكها ، مصر ترفض أى سور يقام بينها وبين عرشها . . مصر ترفض أن تتلقط أخبار الملك من أفواه الاذاعات الأجنبية المغرضة ، والصحف المحرفة .

إن الله ذاته لم يجعل الحديث عنه حراما . . وأن أخبار الملك وتصرفاته «السامية» ليس فيها ما يخجل أو يريب . . حتى يضعها تحت رقابة وزير . . (؟!) وعندئذ كان هذا القانون سيلقى نفس المصير الذى لقيه قانون الاشتباه .

وكان سيحدث أن يطلب إلى الحكومة الوقوف الحاسم الصارم فى وجه المهربين الذين هربوا أموال الأمة إلى سويسرا حتى انخفض سعر الجنية المصرى بالسوق الحره بنسبة ٢٥ ٪ فى الصيف الماضى .

كان سيحدث يوم اعتدى الانجليز على شرف الأمة اعتداء مسلحا ، وزجوا بالكثير من أبنائها فى المعتقلات أن يقوم البرلمان نفسه بالثورة ويكره الحكومة

عليها ولكن أنى يكون ذلك ووراء كل هيئة نيابية من هيئاتنا جميعا دنيا عريضة من المصالح تذود عنها ، وتعمل من أجل بقائها وإنمائها ؟

كان سيحدث طوال هذه الأعوام التى قضيناها فى مفاوضات عابثة ، والتى وعدنا الاستعمار البريطانى خلالها بالجلاء مائة مرة ، ثم كذب علينا مائة مرة أن يجتمع أعضاء « البرلمان » أى برلمان — ويعلنوا بطلان معاهدة (٣٦) ويقرروا أن جيوش بريطانيا الرابضة فى القنال ، جيوش معتدية يجب طردها ، و يقرروا أيضا أنه لاقيمة للحياة النيابية تحت خفق الأعلام البريطانية . . . وإذن فليغلق البرلمان ، وليخرج أعضاؤه إلى الشوارع والقرى ليقودوا الشعب كله إلى معركة الحرية والاستقلال .

(٤) الغرائز الناقمة .

والآن . إلى القيد الرابع . وهو الغرائز الحاقدة المتربصة ؛ والحقيقة أن غرائزنا مجنى عليها . . وجانية . .

لقد جنينا عليها بالكظم ، والقهر ، والاضطهاد .. فانقلبت إلى قوات شريرة شرسة حين تفزع . وإلى مخدر مثبط منيم حين تهجع . وقبل الاستطراد فى الحديث عنها نسأل : ماالغريزة . ؟ يعرفها علماء النفس بأنها سلوك فطرى خاص يقوم به صاحبه فى ظروف خاصة . أو هى . . ميل فطرى يحمل صاحبه على عمل أو أعمال خاصة عند ظهور مؤثر خاص . ويضربون لنا مثلا — الغضب — أنه استعداد جسمى عقلى موروث يحمل صاحبه على الانتفاض حين يتحرش به عـــدو معتد ، أو طاغية أثيم ؛ ويعرفها علماء التربية والاجتماع بأنها الإرادة الكامنة وراء كل عمل يأتيه الفرد أو الجماعة ، نعم الغرائز إرادة ، وبقدر ماتكبت غرائز شعب تكبت إرادته ، وتطمر حياته ، ودراسة التاريخ

الإنسانى تزكى اعتقاد المعتقدين بأنها قوة قاهرة ، بالغة أمرها . لا تنال منها الهزيمة منالا وهى حين يختفى نشاطها فى سورة كبت أو ضغط فليس هذا دليل انصراعها بل تكون آنئذ فى دور تهيؤ للانقضاض والانتقام إنها راسخة رسوخ النوع الإنسانى، وفطرية تجرى من البشرية كلها مجرى الدم ومريدة لاراد لمشيئتها وضرورية لبقاء الفرد والنوع معا .

ولسنا نملك تجاهها سوى بذل المحاولات لتعليتها وتقويمها .

أنها قوى الالهام والابداع ، ولكننا دائماً فى مصر والشرق نسىء بها الظنون — شأننا مع كل شىء نجهله أو نهيبة ، ونمضى نطاردها ونخنقها — دون ماندرى أننا نطارد الحياة ونخنق فينا إراده الحياة .

وقد يحسبنا القارىء مسرفين حين نقول « إن تحرير أنفسنا : وتحرير أوطاننا : وتحرير عقولنا . كل هذا منوط بادىء الأمر بتحرير غرائزنا . بيد أنه لن يلبث خلال مزاملته هـذه السطور أن يفىء إلى هذا الرأى : ويسرف مع المسرفين ... !!

والآن . لكى نستبين قيمة الغريزة . وأثرها فى الحضارة الإنسانية نضرب مثلا غريزة الخوف .

فلقد أنشانا المدارس — خوفا من الجهل ،

ووضعنا الدساتير — خوفا من الاستبداد .

وأقمنا الحكومات — خوفا من الفوضى .

وأنشأنا المستشفيات ، ونبغنا فى علوم الطب — خوفا من المرض .

وأقمنا المصانع والمخترعات — خوفا من العوز .

وتحلينا بالفضائل ، وجانبنا الرذائل — خوفا من الله .

وهكذا أفضت بنا غريزة واحدة ـ هي غريزة الخوف إلى هرم باذخ من الثروة المادية والأدبية ـ ولكن شعبنا العاتى ، تعانى غرائزه محنة لا تطاق ، هي نفس المحنة التي يعانيها الشعب من كبت وحرمان ـ وكثيراً ما يتبادر إلى بعض الأذهان أن إطلاق الغرائز معناه العربدة والفجور .

وهذا أثر وهم موروث ، وجهالة مزمنة ، فأطلاق الغرائز يعنى إطلاق القوى الهائلة التي أودعت فينا لتعمل وتثمر .

وهذا الكتاب يضيق حجمه ، وتضيق أغراضه عن حديث مسهب مستفيض في الغرائز ، وهو يحصر حديثه عنها في بعضها الذى تتمثل في كبته مشاكلنا السياسية والقومية .

ونعنى بهذا البعض .

غريزة الغضب .

غريزة النفور .

غريزة الاقتناء .

غريزة « أنا » . . . وتشمل حب الثناء وحب الظهور .

نزعة « المشاركة الوجدانية » .

فهذه الغرائز ، وأخواتها عامل أساسى في طبيعتنا ، وهى تسمو ، أو تنحط تبعاً للغاية التي تجند لها ، والوجه الذى تستخدم فيه .

ولكن انحطاطها يكون مؤكداً ومضمونا إذا وكل إلى القهر أمر تهذيبها فإذا حرم على الشعب أن يغضب ، وحرم عليه أن ينفر مما يكره ، وحرم عليه أن يذكر نفسه ويعتد بها ، وحرم عليه أن يمتلك ويقتنى . . فلماذا يعيش . ؟
ولنبدأ بـ :

(١) غريزة الغضب :

إن وظيفتها المحافظة على النفس .

ومثيرها — وجود العدو .

والعدو المثير لهافى الجماعات هو — الاستعمار ، والاستبداد والقوانين المتعسفة والاستعباد الاقتصادى ، إذا وجد شيء من هـذه ، أو جميعها فى شعب فذروه يغضب ، أن غضبه هذا صمام الأمان — ومحاولة زجره عن الغضب ، كمحاولة إطفاء النار بقاذفات اللهب . ! ولسنا بذلك ندعو إلى شغب أو فتنة — بل إلى سكينة وسلام ، وإنما دعاة الفتنة والثورة بحق هم أولئك الذين يتحدون طبائع الأشياء ، ويحاربونها بقانون ، وما أحوج هؤلاء الغلاظ إلى درس فى التاريخ ، ليعلموا أنه كان وراء كل ثورة كاسحة وانقلاب مدمر ، وإعصار وبيل ، ركام هائل كثيف من القوانين حسبوها زاجرة قاهرة فإذا هى وقود الثورة وحطب الانقلاب : . لقد ساهمت أحزابنا جميعاً ، وحكوماتنا جميعا فى قمع هـذه الغريزة لدى الشعب فماذا حدث ؟

حدث أن ترنحت بادىء الأمر تحت الضربات المتساقطة فوقها كالرجوم فعجزت عن توجيه طاقتها ضد المستعمر الدخيل . . ثم استيقظت — فإذا طاقتها جميعها قـــد استحالت إلى حقد أسود على الذين اضطهدوها . . وهم للأسف مواطنون من ساسة وحكام . . ولو تواصت حكوماتنا بغريزة الغضب خيراً لحدث النقيض . . كانت طاقتها ستتجه صخرية كاسحة إلى المستعمر ، فتلفظه من بلادنا ، ثم إذا لم تجد منا رهقا ولا إعناتا تتسرب فى مجال نافع ، وتعبر عن نفسها بمقاتلة العجز ، ومباراة الطبيعة لاستثمار أرضنا وسمائنــا ، وأنه لمن دواعى الأسف والفجيعة — أن يقدر الانجليز هـذه الغريزة قدرها ، ويتوسلوا بحسن التفاعل

معها إلى بقاء استعمارهم وتنحية أحقادنا عنه . فحين استجاش حفائظنا حادث دنشواى تركونا نغلى كغلى الحميم ، حتى إذا أوشك البخار الحبيس على التفجر والانقذاف رفعوا الغطاء ، فتسرب البخار والهواء .

وكان ذلك الغطاء ــ كرومر ، فنقلوه من مصر .

ولما وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ، وأخذ غيظنا الكظيم من حادث ٤ فبراير ــ يتراكم ويتجمع ويتحفز .. وارتج الاناء بالبخار المهتاج ــ خطوا نحوه خطوة . . . ورفعوا الغطاء .

وكان هذه المرة : كليرن .

ولكن حكامنا ــ كباراً وصغاراً ــ لا يؤمنون بعلم النفس ، ولا يريدون أن يعرفوا اللحظة التى يجب أن يرفع فيها الغطاء ! لقد كبلت هذه الغريزة وكبلنا معها ــ بمجموعة من القوانين ، وبالإرهاب الموصول ــ فما المخرج من هذه القيود؟

عندما نتحدث فى الفصل القادم عن الحرية سنبسط الطريق لتحرير هذه الغرائز العاملة المنشئة ــ أما هنا فنحن فقط نعدد مظاهر اضطهادها ، وما يترتب على ذلك من مخاطر وآثار . . إن حكوماتنا [١] من طراز عجيب .

فهى تبطش بنا مع الباطشين ، وتقول : حذار أن تغضبوا .

وهى تدعنا نهب السارقين والناهبين ، وتقول حذار أن تغضبوا .

وهى تسلبنا حرياتنا وتقول : ويل لكم أن تغضبوا .

وهى تسلبنا الحلم ، وتحرم علينا الغضب . ! حتى أصبحنا تعصف بنا الحوادث

---

(١) المعنى بهذا الحديث طبقا حكومات ماقبل الثورة .

وتذرونا ريح العذاب ، وتصفعنا قوى الشر بأيديها ، وتركلنا بأقدامها ، فنرفع أبصارنا الخاشعة الذليلة تجاه السماء ، فتبصق السماء عليها ثم تردها إلى الأرض دامعة خجلى . أولا يذكر الزعماء والحاكمون يوم كانت تصيبهم بما صنعوا قارعة فيستصرخوا بالشعب ، ويخرجوا له كل يوم نداء وبياناً ، فلا ينظر ، ولا يسمع ولا يجيب ، ولا يغنى عنهم شيئاً ؟ !

أنهم الملومون ، فهم الذين أخرسوا فيه صيحة الغريزة بقوانين القهر التى ساهموا جميعا فى خلقها ، وأحالوا طاقتها إلى حقد عليهم ، وعلى كل المعانى التى يمثلونها ، والقوى التى يساندونها . لقد نصبت حكومة عراقية مشانق الإعدام لشباب باسل حر غضب من أجل بلاده على الإنجليز المستعمرين ـ والانجليز المستعربين ! . ودقت حكومة اليمن أعناق مواطنين غضبوا من ضلال الاستبداد ، وضراوة الفجور ، ووحشية الضمير . . وأقامت حكومة لبنانية من نفسها خصما وحكما ، وأهدرت حياة شباب غضب من الرجعية السياسية التى تريد أن تلف الشعوب فى مثل الضباب . !

ومثل ذلك فى سوريا ، وأمثال ذلك فى الحجاز[1] ، ثم يراد من تلك الشعوب المقهورة الغرائز وقد هاض قلبها جبروت سادتها ، ورهبوت قادتها أن تغاضب المستعمرة وتجالده ؟ .

إن كل سياسى يكبل غريزة الغضب فى أمته بالإرهاب والقوانين لخائن أعظم . وأفاك أثيم .

---

(١) يلاحظ أننا نعيد طبع الكتاب وفقا لنصوص طبعاته الأولى والثانية والثالثة التى صدرت عام ١٩٥١ بدون تغيير وهذا الحوادث التى رصدناها من أعمال حكومات ذلك الحين وما قبله . . .

والحديث عن الغضب كغريزة واجبة الاحترام والرعاية ، حديث يلتبس فيه الحق بالباطل عند فئات من الناس ، وقد يبارك هذا الفريق كبت الغضب وقهره ومقته . وقد يتفضلون فينعتوننا بالإلحاد لأننا ندافع عن الغضب كغريزة ، بينما الدين يستهجنه كإثم وجريمة . وعفا الله عنهم ـ سلفاً ـ وإنهم لمخطئون ! فالدين ينهى عن الغضب ، كما ينهى عن الضحك بمعنى أن الإسراف فى كليهما خطأ وفراغ . ثم هو ينهى عن الغضب الفردى الذى يثيره التحرش بحق شخصى تمكن حمايته بالتودد والرفق ، ثم هو أيضاً يعنى باستهجان الغضب ـ التمادى والتطرف ، وإزجاءه على وجه فيه طيش ونزق وعدوان . ولكنه لا ينهى عن الغضب حين يكون استجابة طبيعية هادفة لصيانة حرمات الشعب وحقوق الجماعات .

فهذه عائشة زوج الرسول تقول :

« ما غضب رسول الله لنفسه قط ، فإذا انتهكت لله حرمة ، فلا أحد أشد منه غضباً ! » إن حرمات الشعب كحرمات الله ـ فحين تنتهك ، وتتسورها الذئاب يصبح الغضب بوسائله المشروعة طبيعة وواجباً . ولقد غضب الله ذاته فى موقف مشابه ؛ فحين جابه أبو لهب رسول الله بقوله : تبت يداك ، ألهذا جمعتنا ؟ تقاذف الوحى فى سرعة البرق ، ورجم الصواعق .

« تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب . . » .

فإذا قام فى الشعب من المستكرهين الجبارين من يتبه ، ويعنته ، كان جزاؤه زجراً وإعناتا .

(ب) غريزة النفور . .

ومن الغرائز التى حرم الشعب من نشاطها المنشىء ، وانكفأت من طول اضطهادها تعمل ضده ، لا معه ـ غريزة النفور .

وإنا لنسأل . هل يمكن أن يساق الإنسان إلى طعام كريه ؟

هل يمكن أن يقبل مختاراً على شراب مرير يتجرعه ولا يسيغه ؟ إننا ندعو الحاكمين أن يجربوا ذلك ، ولو مرة .

خذوا لقمةعفنة ، أو حشرة دممة ، وضعوها فى أفواهكم وامضغوها وتلمظوا بها ، واستحلبوها ، ثم انظروا ماسيحدث . سيحدث طبعا تقزز ونفور وغثيان. وإذا دلف اللعاب إلى الجوف بشىء من هذه الطعمة الكريهة فسترفضها الأمعاء فى عنف فيحدث تجشؤ وقىء .

إن هذا الطعام المقذوف ـ يصور لنا قوة الغريزة بوجه عام ـ وغريزة النفور بوجه خاص . . ويدل فى معناه العميق ـ على أن النفس البشرية ترفض بمثل الطريقة التى ترفض بها المعدة . . كل نظام يرهق كاهلها ، وكل إرادة تكبل حريتها ، وكل مستوى معيشى يزرى بآدميتها . . وأن ضمير الشعب ينفر من كل جور ، وغدر ، وتفاهة .. ولكن شعبنا الأسيف محرم عليه أن ينفر ، ومحرم على غريزة النفور أن تؤدى وظيفتها .

مطلوب من الجماهير أن تبسط يدها إلى اللقمة العفنة ، أو الحشرة الدممة .. ثم تدسها فى فمها ، وتستحلبها كما تفعل بأى شىء حلو لذيذ ..!

أى فارق بين هذا ، وبين إكراهها على نظم لاتريدها ، وأوضاع لاترضاها وأشباح غريبة لاتعرفها ولا تألفها .. ! أى فارق بينه ، وبين تجرعها المظالم المريرة المتمثلة فى حكم الفرد . والاقطاع الفاحش والرجعية الراكضة . وإلام نعزو هذا التعفن والبلى والجمودفى حياتنا السياسية . والاجتماعية ، والاقتصادية.؟ ولكن قبل ذلك ، هل فى حياتنا هذه تعفن ، وبلى ، وجمود . ؟ نعم ، وأكثر من نعم . ! نعم ، رغم تلك القصور الشاهقة ، والبنايات السامقة ، رغم تلك العربات الفاخرة والحفلات الساهرة ، فما هذه وحدها مظاهر البعث والتجديد.؟

إن بعث الأمة ونشورها يتمثلان قبل كل شيء فى تجديد حياتها السياسية ونظمها الاقتصادية، ومسايرتها ركب الحضارة وموكب الأيام ، لقد رأينا فى بداءة هذا الفصل كيف كانت سياستنا ، واقتصادياتنا ومجتمعنا ، وهى صورة حياتنا الماثلة ، مخلوطة ببعض الألوان الزاهية الملتمعة .

ماذا طرأ علينا من تغيير وتطوّر .

كنا بالأمس « عبيد الباب العالى » ونحن اليوم ـ عبيد الحزب الحاكم . !

كنا بالأمس نعيش فى بلادنا « ملتزمين » وكان السلطان هو « المالك الحر لجميع أرض مصر » . ونحن اليوم نعيش أيضاً « ملتزمين » وعشرات الأسر والبيوتات هى « المالك الحر لجميع أرض مصر » . !

كنا بالأمس لانملك نقد الوالى ولامعارضته ولا تقويمه . ونحن اليوم لانملك نقد الحاكم ولا تقويمه .

كنا بالأمس ضحايا النهب . والرشوة ، والاستغـــلال . ونحن اليوم كذلك أيضاً .

كنا بالأمس نجلد بالسياط ، وليس فينا برلمان .. ونحن اليوم نجلد بالسياط . وفينا برلمان . !

كنا بالأمس مسلوبى الحرية ، والإرادة . وليس لنا دستور ، ونحن اليوم مسلوبو الحرية . والإرادة ، والكرامة . ومعنا دستور . !

كنا بالأمس أمة مستعمرة بإكراه . ونحن اليوم أمة مستعمرة بمعاهدة . !

كنا بالأمس أمة تتربص بأعدائها . ونحن اليوم أمة تتربص بنفسها . !

كنا بالأمس شعباً تلهبه السياط فيتقاذف إلى أمام . . ونحن اليوم شعب تلهبه السياط . فيتراكض إلى وراء ! .

كنا بالأمس نقبل أقدام سادتنا ونعتذر لأنفسنا ، بأنهم وضعوا فيها قلوبهم . ونحن اليوم نقبل أقدامهم ، ونعتذر بأنهم وضعوا فيها قلوبنا !

كنا بالأمس أمة معزولة عن العالم . لاتعتمد إلا على نفسها ونحن اليوم أمة فى « هيئة الأمم » تعتمد على غيرها . بل على أعدائها . !

هذه حقائق أمرنا . فى أمسنا ويومنا . أما ما وراء ذلك من زينة وزخرف

فليس أكثر من طلاء أردناه ليستر مقابح الماضى الذى نعيش اليوم فيه ، فازداد نصاعة وبياناً . !

ونعود نسأل : إلى أى شىء نعزو هذا البلى والانحطاط والجمود . !

إنه فى نظرنا ثمرة تعطيل غريزة النفور فى المجتمع ، وتحويل طاقتها الهادفة إلى نكوص واضطراب . فدور هذه الغريزة فى التطور الإنسانى من أهم الأدوار وأخطرها وبها يتأتى التجديد المستمر والإنشاء والإبداع .

فنفور الإنسانية من الدابة ، حفزها إلى اختراع العربة ، فالقطار ، فالطائرة.
ونفورها من حياة البادية والكوخ دفعها إلى إنشاء المدينة وتشييد القصور
ونفورها من الظلم أفضى بها إلى العدل .
ونفورها من الاتوقراطية دفعها إلى الديموقراطية .
ونفورها من الاستعمار قذفها نحو الحرية .
ونفورها من الاستغلال أدى إلى الإشتراكية .
ونفورها من الانقراض حتم عليها المسايرة .
ونفورها من الحرب دفعها لنشدان السلام .

فلو أننا أطلقنا سراح هذه الغريزة ، وتركناها تؤدى الدور الذى وجدت لأدائه ، وعاوناها فى نضالها . لكنا اليوم أمة أخرى .

إن الحكم المطلق يعتمد فى عمله لبقائه على إضعاف هذه الغريزة ليموت فى الشعب كل إحساس بالمساوىء وتتبدد كل محاولة للنفور أوالتغيير . فالشعب الذى تحول فيه طاقة هذه الغريزة عن وجهتها ــ يصير مأساة مفردة وكارثة متفوقة .

لأنه يقع به الظلم ؛ فلا ينفر منه إلى العدل . وتمضه الفاقة ؛ فلا يفر منها إلى الرغد . وتهوى على ظهره السياط فيزداد انحناء لتلقيها . وتسلب اللقمة المعجونة بدمعه من فمه ؛ فلا يقلب كفيه على ما أنفق فيها . .

وهذا غاية سعى المستغلين والمستبدين إنهم لايريدون شيئاً آخرا سواه .

وإذا كنا اليوم نريد لبلادنا تجدداً وانبعاثاً ؛ فلننفض عن غريزة النفور وعن أخواتها ــ قيودها الظالمة ، وأغلالها الآثمة .

(جـ) غريزة أنا :

منذ ثلاث عشرة سنة تقريباً ، كنت أستمع مع جمع غفير ، إلى محاضرة قيمة ، كان يلقيها الأستاذ محمد توفيق دياب . وكان من عباراتها كلمات لاتنسى :

«. انظروا فيما حولكم من الأمم ، تروا مواكب العز والسيادة .. وتسمعوا الانجليزى يقول : أنا انجلترا . . والفرنسى يقول : أنا فرنسا . . والألمانى يقول : أنا ألمانيا . . فمتى نستمع المصرى يقول : أنا مصر . .؟

سمعت هذه الكلمات فى ناشئة العمر وحداثة السن ، وظل العقل الباطن أميناً عليها حفيظاً لها ، حتى وجدتها تبرق الآن فى خاطرى على غير موعد أو انتظار . ونحيت الورق جانباً ، وشرعت أتصور مرة أخرى ذلك المشهد فى قاعة

«الليسيه فرانسيه» . وعلى مسرح القاعة ، وقف الرجل كأنه كرة ملتهبة تتقاذف ذات اليمين وذات الشمال . . وإلى تجاهه جلس حشد من المستمعين تمسه الكلمات مس الكهرباء فيجلجل ويصيح ، ثم عدت إلى الساعة التي أنا فيها وساءلت نفسي ، ترى هل استطاع المصرى بعد هذه الأعوام أن يقول : أنا مصر ؟ أم هى أمنية من الأماني والأحلام .. ؟؟

إن غريزة حب الذات وتوكيدها إحدى الغرائز التي وقعت فى أسر الظلمات — وحيل بين الشعب وبينها كما حيل بينها وبين طاقتها ، ووجهتها .

إنها سليقة من أنبل وأنفع سلائق الإنسانية . والذين تآمروا عليها فى بلادنا ليسوا فقط الاستعمار والاستبداد ، بل ومعهما — أو ربما قبلهما — رجال الدين الذين لايفقهون الدين ، ورجال التربية الذين لايحسنون التربية .

فقد مضى هؤلاء وأولئك يلقنون الناس أن احتقار النفس وبغضها ونسيانها هو الهدى والفلاح وقالوا لهم . فيما قالوه : إن الله لم يطرد إبليس من الجنة إلا من أجل كلمة واحدة قالها هى : أنا .

وهناك أطنان من الكتب تدور جميعها حول هذه الأفكار الرديئة المدبرة وينسى أولئك المربون والمعلمون أن الرسول قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » قالها دون أن تنقص من تواضعه شيئاً .

إننا شعب مستضعف ، لأن فيه ضعفاً ، ومستعبد ، لأنه يحس العبودية ويركن إليها .

وسر ذلك إطفاء إحساسه بنفسه ، وتحطيم اعتداده بذاته ، وقمع «غريزة» الأنانية المستنيرة الرشيدة فيه .

وهذا الموظف البسيط الذى يرتجف أمام رئيسه ، يمثله فى نطاق أوسع ، الأمة كلها عندما ترتجف أمام مذلها ومستعمرها ، وتمثله أيضا عندما تهاوى

تحت مواد القوانين الزاجرة الراعبة دون أن تملك إزاءها حولا . وتمثله حين تماع شخصيتها وتتلاشى فى كل فكرة تطرق بابها ، وكل دعوة تستثير حماسها ، وكل استعمار يزور ديارها دون أن يكون لها عاصم من ريث وأناة .

وتمثله كذلك حين تتهافت على إرضاء حاكميها . وتهتف بحياة قاتليها !

لقد كان أعجب ماصادفنى وأنا أقرأ تاريخ أمتى أن سلطانها ـ الحاكم بأمر الله ـ ادعى الألوهية أيام أصابه مس الغرور والجنون وأمر بإعداد « سجل تشريفات » ليستقبل أسماء المهنئين للحاكم ، والمباركين الوهته البلهاء .

ولم تغرب شمس اليوم الأول حتى كان دفتر التشريفات قد غص ، وازدحمت صفحاته بتوقيعات وبصمات سبعة وعشرين ألفا من الشعب المبرور !

ثم رجعت البصر إلى عصرنا هذا الذى نعيشه ، فوجدت نفس المشهد يتكرر مع كل حكومة تؤلف وعهد يقوم ، بل وجدت مائة ألف أو يزيدون ينتظمون الموظف والعامل والجامعى المثقف يستقبلون (كليرن) بعاصفة من التصفيق تصم الآذان ، وهو يطل عليهم من شرفة مجلس وزارتنا كأنه القمر ليلة البدر !

ثم وجدتهم يحملونه على الرؤس والأعناق . كل ذلك صبيحة الأمسية الظلماء التى اقترف فيها ـ ببسالة نادرة ـ جريمته وحصاره ، لو كان هذا الشعب تعلم من زمان ، أن يقول : أنا ، وجرت من روحه وعصبه وكيانه مجرى الدم ، لنهض فى إهابه كائن من الحرية والكرامة والكبرياء يترفع عن كل صغار ، ويستعصى على كل إغراء وإذلال .

(د) غريزة الاقتناء :

عندما كان الأتراك القدماء يملكون مصر ، استدعى أحد ولاتهم فلاحا امتنع عن دفع المكوس المفروضة . وسأله :

ـــ لماذا لم تدفع المكوس أيها الفلاح ؟

فأجابه : لقد دفعت كثيراً ياسيدى حتى لم يبق لدى ماأدفعه . وإن أرضى لم تغل هذا العام شيئا !

وغص الباشا التركى بياء المتكلم فى كلمة « أرضى » وانتفض من مقعده ولطم الفلاح المصرى على وجهه وقال :

ـــ وأيضا تقول أرضى . إنها أرض السلطان وأنتم عبيده ومواليه !

لقد أجليت هذه الغريزة عن مكانها . وحل بديلها غريزة الحرمان . أو نقول دون أن يكون فى التعبير تجوز :

إن هذه الغريزة جوعت طوال الاستعمار التركى الذى قبعنا فى ظلماته ثلاثمائة عام ثم لاتزال تجوع . فإذا كان السلطان التركى الذى يملك جميع أرض مصر قد ذهب وطواه الموت . فقد حل مكانه عصابة من الاقطاعيين تملك البلاد والعباد

والجماعات حين تحرم من أن تمتلك أرضها . وثمار كدها وكدحها ؛ أو أن تملكها الدولة لحسابها ، يكون ذلك وأداً وقتلا لغريزة من أهم الغرائز اتصالا بوجودها وبقائها وسلامتها .

إن فى الفرد غريزة الاقتناء والتملك ، تظهر فى دور الطفوله ـ فترانا نجمع اللعب ونقتنيها ، ثم تصاحبنا فى أطوار حياتنا جميعا وتختلف حالها الواجدانية لدى الناس ، فإذا كانت مهذبة سوية عبرت عن نفسها باقتناء وسائل الهوايات الخاصة كالصور ، وطوابع البريد وكافة الأشياء التى تتيح لصاحبها حياة رغدة تقوم على التكافؤ لا على الأنانية والشره والعدوان ، وإذا كانت جشعة مفترسة تمظهرت فى اقتطاع الأرض ، واقتناء التفاتيش وابتزاز الحقوق والأموال .

وفى بلادنا هذه ـ يوجد سادة يعيرون الشيوعية بأنها ضـــد الطبائع

الإنسانية ، لأنها تحرم الاحتلاك وتهدم بذلك غريزة إنسانية عاملة . . يقولون هذا ثم يتحدون هـذه الغريزة ويضطهدونها ويحرمون الجماهير من الاقتناء والامتلاك ؟ !

أتراهم إذن شيوعيين ؟ قد يعارضوننا متسائلين ألسنا نتيح للناس أن يقتنوا ثياباً ، ويمتلكوا بيوتا ، وحيوانات ؟

ونجيبهم . نعم . والشيوعية أيضا تتيح لهم ذلك ، وأكثر من ذلك ولكننا نريد حقنا فى هذه الأرض التى سقتها وسوتها سواعد آباء لنا كابدوا فيها الهول والشقاء ، وكان كل عزائهم أنها ستصير لأحفادهم مثابة ورزقا .

لقد سقنا فى كتابنا الأول — من هنا .. نبدأ — الإحصاء الرسمى الناطق بأن أكثر من ستة عشر مليونا فى هذا الشعب لايملكون سوى عرقهم المسفوح ، وعذابهم المقيم !

ولقد كانت خطورة المسألة تتبدى هنـاك فى المخاطر التى يفضى إليها هذا التفاوت الفاحش بين من يملكون كل شىء — ومن يفقدون كل شىء .

بيد أنها هنا تتبدى أمام بصائرنا أشد تجهما وعبوسا وفظاعة . فهى كما نرى الآن تتصل بغرائزنا التى أقامها الله فينا ، وناط بها وجودنا وحياتنا أنها كغريزة الجوع ليس لها علاج سوى الطعام ، وكغريزة الجنس ليس لها علاج سوى اللقاء أنها كذلك ، ليس لها علاج سوى أن أمتلك كل حقوقى قبل الدولة التى سمحت لى بأن أوجد فيها ، وأسعى على أرضها وأشقى فى العمل من أجلها . فإذا لم تجد غريزة الاقتناء حظها — فانها كأى غريزة أخرى ـ لن تفنى . بل ستغير اتجاهها وتنتقم لنفسها ، وبدلا من أن ينساب نشاطها فى الأيناع والتعمير سيتفجر فى التقويض والتدمير .

(هـ) المشاركة الوجدانية

وهذه النزعة مساك الوحدة وقوام التكتل فى الأمم والجماعات ، وإذا أدرنا بصائرنا فى شعبنا فوجدناه مِزقا وأشتاتا والفيناه خالى الشعور خافت الصيحة فلأن حكوماتنا المتعاقبة ، والاستعمار المجهز من ورائها ، قد أفسدوا عليه أسمى نزعاته وأنفعها . تلك هى « المشاركة الواجدانية »..

وحتمية ترعرع هذه النزعة ليست فقط من أجل تعاطف الشعب وتضامنه بعضه مع بعض ؛ بل قبل ذلك من أجل وتضامنه مع الحكومه ، وتضامن حكومته معه فى الالتزامات ، إنها حين تستقيم تصير صمام الأمان الذى يجنب المجتمع عدوان الدولة . ويجنب الدولة انتفاض المجتمع ، ويؤلف بينهما ، ويؤاخى بين ما لكل منهما من مشاعر وخطط وأهداف ليتحركا معا صفا واحداً نحو الغايات التى اختاراها وآثرا العمل لها . ولا يمكن قط أن تقسول أمة : إننى بدأت المسير إلى المجد، قبل أن يتم بين حكومتها وشعبها هذا التضامن والترابط والمشاركة ولأن الاستعمار لا يريد لنا أن نسير ، فقد استغل هذه النزعة وتوسل بأضعافها وإرهاقها وتضليلها إلبلوغ كل ما يريد لبلادنا من ذلة وانكسار وفرقة لطالما مكن الرسول عليه السلام لهذه النزعة وعمل لإنهاضا وعرعتها حين كان يدعو إلى التجمع ويحذر من التخاذل والعزلة ويقول : إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية

وحين جعل مثل الجماعة المتكاتفة كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . وحين أخبر أن أبعد الناس عن قلبه ، وأبغضهم إليه هم المفرقون بين الأحبة ، المشاءون بين الناس بالنميمة ، وحين ألزم نفسه يوم كان المسئول عن أمته وجماعته أن يكون أول جائع إذا جاع الناس ، وآخر من يأكل ، إذا وجد الناس . ا وحين رفض إيمان كل رجل يبيت شبعان ، وجاره طاو بطنه على جوع . او المشاركة الوجدانية فى الأمة هى عصبها وغددها وسبب النماء والقوة فيها .

يقول ماكدوجل : « .. إنها الحالة الانفعالية والوجدانية التي تحدث عند الإنسان عندما يجد إنساناً آخر متأثراً ، فتجعله يشعر بنفس شعوره . كما لو كان قد انتقل هذا الشعور إليه بطريق العدوى » . ومعنى هذه العبارة فى دلالتها الواسعة ، أنها التيار الذى ينتظم مشاعر الملايين ويتجه بها فى خط طول واحد إلى حيث يؤدى غرضه على أكمل صورة وأتمها ، وإذا عجزنا عن الاستنجاد بما فى إنسانيتنا من حوافز ، فلنتعلم من الحيوان . أنه قادر على أن يهدينا سواء السبيل . !

يقول العالم الألمانى كهلر[1] : « .. إن قرود المزرعة كلها كانت تندفع نحو أى شمبانزى صغير وتعانقه الواحد ، تلو الآخر ، بمجرد سماع صرخة واحـــدة تند عنه .. » .

ويقول العالم الأمريكى هولمز : « .. إن جماعة النمل والنحل ، وكثيراً من الحشرات يظهر عليها الغضب ، حين يغضب واحد منها لسبب ما . فتأخذ فى التجمع من غير أن تدرك له سببا . » ويروى لنا بعض تجاربه الشخصية فيقول أنه استثار مرة قرداً فصرخ ، فإذا جماعة القرود تخف إليه وتتجه نحو «هولمز» لتثأر وتنتقم . .

يقول هولمز : « .. حتى أن القردة الوديعة « ديانا » هجمت على بتوحش ، مع انى كنت قبل ذلك بفترة قصيرة ألاعبها وأقدم لها الهدايا» .. !!

إن كارثة ماحقة أصابت أمتنا فلم تعد تجد من الإباء والوطنية والمشاركة مثل ماعنده القردة الصغيرة ديانا . . ؟ !

---

(١) كتاب علم النفس — ج ١ — للأستاذ الأبراشى وزميليه .

لقد استجابت « ديانا » لواجبها نحو جماعتها فذهبت تعض اليد التي كانت تطعمها وتناغيها . . لأنها اعتدت على زميلة لها أو زميل . وفي بلادنا قوم لايطعمهم الاستعمار ، بل يذلهم ويعتهم ومع ذلك لايقفون مع الجماعة ضده . بل العكس ، ويتركون القردة « ديانا » تحقق وحدها المثل العليا . وجلائل الأعمال . . !

إن الاستبداد والاستغلال هما « الجامبيا » التي تمتص من هـــذه النزعة النبيلة طاقتها .

أفلا ترون . . ؟ هذا الاستعمار الذي يمنحنا كل يوم وعدا مكذوبا . ويلطمنا كل يوم لطمة عاتية ، والذي يتصرف في بلادنا دون اعتراف حتى بمجرد وجودنا فيتفق مع أمريكا على القواعد الحربية في بلادنا . والذي يجثم على كاهلنا ، ويثير الفتن بيننا لتظل له الكبرياء والنفوذ في الأرض . !

وألا ترون . . ؟ هذا الفساد السياسي الذي جعل مصر أشبه ماتكون بصحيفة تكتب العناوين الكبيرة بحروف عربية ثم تملأ صفحاتها بحروف تركية . . .

أعني أن سلطاتنا التنفيذية ذات طابع مصري ، ولكن سلوكها كله . وأنظمتها كلها ، وتقاليدها جميعاً لاتزال بقية مما ترك المستعمرون . هذا الاستعمار وهذا الفساد ! . أين الشعب منهما ؟ إنه يهمهم . ويغمغم ثم لايزيد . بل حتى همهمته تخرج متنافرة متخاذلة ليس بينها تناغم وتشارك وانسجام . . ! لماذا . ؟ لأن نزعة المشاركة الوجدانية فيه لاتؤدي وظيفتها ، ولا تستثمر طاقتها طبقاً لخطة موضوعة تواصى بها الاستعمار والاستبداد . فصار عاجزاً عن أن يصنع صنيع الشامبانزي حين يضام منها قرد صغير !

هذه إذن هي المطارق التي تتهاوى فوق محاولاتنا ، وتنهال على إمكانياتنا .

(ا) الاستعمار التركى الذى ذهب حكامه وبقيت أحكامه .

(ب) الاستعمار الإنجليزى بنفوذه السياسى ، واحتلاله العسكرى .

(ح) البرلمان البرجوازى الذى يمثل غفلة الشعب وطاعته ، لاوعيه ومشيئته .

(ء) الغرائز الناقمة التى أضناها طول الاضطهاد ، فمضت تعمل ضد المجتمع لامعه .

والخلاص من هذه الأوزار لايتأتى بوسائل مناقضة للقانون بل الطريق إليه سوية ممهدة تعتمد على النظام والحب والمثابرة ، وكلها خليقة من الحكومة والشعب بالتقدير والاحترام . وسندع الآن الاستعمار البريطانى حتى نلتق به فى الفصل الأخير من الكتاب . وسنشهد فى فصل جديد ، هو الفصل القادم ، أسباب النجاة من الماضى الذى يطاردنا ، ومن البرجوازية النيابية المستغلة التى تعتاق نمونا ، ومن الحصار المضروب حول غرائزنا وقوى الحياة فينا ، فإلى هناك . .

الحرية : . هى الخلاص

« إن الله الذى وهبنا الحياة . . .

« وهبنا معها الحرية فى نفس اللحظة

ولنفس السبب » .

جيفرسون

قصـة الحرية

كان من المقدور للانسانية أن تظل شيئا غير مذكور لو لم يستحوذ على قلبها هذه الحروف الوضاء للكلمة الساحرة الآسرة ـ الحرية . . . فلما وجدت دفئها خاضت من أجلها معركة الدهر ـ ولا تزال تخوضها . بيد أن لنشوء هذه المعركة قصة جديرة بالتدبر والامعان . أنها لم تبدأ كما نحسب يوم الباستيل . . بل يوم بدأ الإنسان القديم يحس ، ويسمع . ويرى . يوم بدا له ، وهو يتسلق الأشجار فراراً من السيول ، ويأرز إلى الكهوف حذراً من الصواعق ، والوحوش . أن الطبيعة تتحدى حريته . وتناوىء طموحه . ومضى يتلفت عن أيمانه وشمائله . فلم يجد له نصيراً سواه . . وانساب فى روعه رجع صوت بعيد مقبل من الأزل .

لقد وهبناك الوجود ، ولن نمنحك بعده شيئا ؛ فناضل لتحيا . . أو استسلم فتموت . ! ولم يطل تلبثه وانتظاره ؛ واستبان له هدفه كفلق الصباح ومضى نحوه فى إصرار وعزم .

ترى أى هدف آثر واختار . ؟ هو هذا ـ

* تأمين وجوده .

* واستثمار هذا الوجود .

أترانا بعدملايين السنين نعرف؛ أوننشد خيراًمن هذا الهدف المزدوج الجليل ؟

ولكن ضد من ـ ذهب الإنسان القديم يؤمن وجوده . ؟

ليس ثمة سفاكون يحذرهم ؛ ولا إقطاعيون يتهيبهم . .

نعم ، ولكنه ألفى نفسه وجهاً لوجه مع الوحوش المقتحمة تعيث فى الأرض

باحثة عن ذلك النزيل الجديد لتمـــلأ بأشلائه أمعاها . . ومن هنا بدأت قصة البغى والمقـاومة .

وهنالك أملت الوحوش الباغية على الانسانية الناشئة شروطها دون أن تترك لها حق الاختيار . فأما أن تختفى فى الجحور والمغارات فتسلم ؛ وأما أن تسير على ظهر الأرض ، وتمشى فى مناكبها فيفترسها كل ظفر وناب .

*تماماً كما يصنع اليوم المستبدون مع رعاياهم . فأما أن يتلفعوا بالصمت والتسليم فيسلموا . . وأما أن يحترموا آدميتهم ؛ وينشدوا لأنفسهم حقوق الآدميين ، فتدوسهم القوة ، ويهصرهم النـكال . .

ماذا صنع الانسان ؛ والوحوش تجوس خلال كهوفه . . هل قبع فى ظلامها . أم خاطر من أجل حريته .؟ لقد خرج بحوله المتواضع ؛ وقوته الناشئة . . وصاح بالوحوش الوقحة صيحة التحدى . وكان ذلك الاقدام ثمرة أدراكه لقيمة الحرية . لقد رآها ضرورية لبقائه ، وآثر أن يموت فى الأفق المتراحب موتة جريئة باسلة . على أن ينفق فى جحوره نفوقاً بطيئاً .

* تماما ـــ كما يحدث اليوم فى الشعوب المقهورة حين تدب فيها شجاعة اليأس فتغامر بحياتها مغامرة تفضى بها إلى الحياة . .

وكانت خطة الجماعة الإنسانية الناشئة أن تتقدمها طليعة فدائية ــ ليس مهمتها أن تنتصر بل أن تموت . . ولـكن بعد أن تـكون قـد فتحت الطريق أمام الموكب الزاحف الواجف . . وقد كان . وفى كل رحلة من رحلاتها المتساوقة كانت لها طليعة تلتحم مع الذئاب والوحوش التحاما مرا ، ثم يسقط أفرادها صرعى لتـكون جثثهم جسرا تعبر عليه الجماعة إلى هدف جديد .

وذات يوم ، والطليعة راكضة دمدمت السماء برعدها ورجومها فازدادت

الطليعة ركضا واقتحاما . . وتحدت الرعد والصواعق والرجوم ، وأبت أن تدع الأرض التى وقفت علينا حتى تسلمها للزاحفين على أعقابها .

* تماما .. كما يصنع اليوم رواد الجماعات المستعبدة .. إذ يمضون أمامها ويرسمون لها الطريق بأفكارهم ، وأقلامهم فيصرعهم البغى — ولكن دماءهم المراقة تبقى وهجا يرسل على طول الطريق ضوءه وسناه ..وذاق الإنسان طعم الحرية ؛ وأحسها إحساسا مثيرا لجر فيه البصيرة والخيال وكان من أعضاء الجماعة الإنسانية الأولى من انطبعت فيهم سلائق الوحوش من طول ماعاشروها وكابدوها . . فما أن استقرت الجماعة فى مدنها وقراها حتى كانت هذه الطبائع تتحفز للظهور والسموق بعد أن أنهت فترة الاختمار .. وكانت الوحوش قد غلبت على أمرها ، ودالت دولتها . . فانطلقت هذه القلة المحاكية تمثل فى جماعتها — دور البأس الوحشى للتفرض ، وتقمصت الحيوانية المفترسة أجسادهم كى تعمل عن طريقها ؛ فشنوا على أخوانهم الأغارات ، واختطفوا الناس واتخذوهم رقيقا . . ثم احتوشوا الضياع ؛ وأقاموا الاقطاع ثم شادوا الامبراطوريات ؛ وجعلوا أنفسهم أباطرة وفراعين . .

* * *

هذا تصور ؛ أوتخيل لنشوء الصرع بين الاستبداد والحرية وتطوره لم يكن لنا عنه غنى . ليعلم أولئك الذين يسومون الشعوب المقهورة اليوم سوء العذاب أنهم ليسوا سوى امتداد سليق لوحوش الغاب وهم غرباء عن الانسانية دخلاء عليها ووظيفتهم فى هذه الدنيا — تعويق التقدم الذى يعتمد على الحرية وانطلاق الكرامة الإنسانية من وطأة المهانة ، وفض قيود التبعية والخضوع عن البشر .

ولقد سارت المعركة مع الوحوش الآدميين كما كانت تسير من قبل مع وحوش الغاب . وكان كل ظفر تحققه الجماعة حافزا إلى جهاد أشد وأعظم ولكأنما كتب عليها أن

تودع الراحة إلى الأبد ، وألا تضع العصا عن عاتقها حتى تقضي لنفسها أمرا . .
ترى ماذا كان حظ آبائنا الأقدمين في هذا النضال ؟ لقد كان عجبا . ولكن ليس من طبيعتنا ولا من صالحنا أن نتباهى بعمل أهل القبور وحسبنا فقط أن نذكر ، أن بعض مؤرخي التطور الإنساني يقررون أن أول حركة قامت في الدنيا ضد الاستبداد السياسي ، والظلم الاجتماعي كانت في مصر أيام الفراعين .
وعن مصر أخذ العالم القديم الدرس لحذقه وأبى أن ينساه . .

وكان لشعب مصر أيام حركته تلك صلاة يتلوها في المعابد .
— أيتها الآلهة

« أن فرعون يذلنا . . ويضربنا .
« والأرض التي يقول أنكم وهبتموها له ترهقنا . .
« أيها الآلهة . . أعطونا راحة . . وأعطونا أرضنا . . !
« إن ظهورنا قد انحنت . . فأقيموها !

ولكأنما سرت هذه الترنيمة في وجدان الإنسانية بصورة لاتزال مستسرة خافية ولكنها متطورة نامية . فلقد وجدنا بعض الشعوب المنتفضة تصلي أبان انتفاضها فتقول .

« قفوا — ياعبيد الأرض . . قفوا — ياعبيد الجوع .. سيروا مع البركان ..
البركان الذي سيأتي على القديم ، ويمحو الماضي جميعه .
سيروا على الشوك . . سيروا على الجليد . . وقوفا وقوفا أيها العبيد ..

أن عدو لنا أراد الدمارا ولأرض نعزها إقفاراً
فسنلقاه بالجواب الأشد القوى الصدى كقاصف رعد
كسنا البرق يخطف الأبصارا

لكن التطور يستحدث وسائله ويجدد أدواته . . فبعد أن كان لا يحقق أغراضه إلا بالقوة والعنف صار من الممكن تحقيقها بالتحول والاقناع والأناة . . وأصبح يعزف عن الدم ـ ويبحث عن الزهور ويتقزز من الموت ويريد السلام

وإذا كانت مصر اليوم وغير مصر من الأمم المغلوبة تريد الحرية وتسعى إليها . فلنتح لها بلوغ ذلك فى سلام .

هل الحرية ضرورة ؟

ولكى ينشأ تعاون وثيق بيننا جميعاً حاكمين ومحكومين ، نحقق عن طريقه أغراضنا المتمثلة فى الحرية والعدل فالخطوة الأولى أن نقتنع بفائدة الحرية وحتميتها .

أتريدون أن تتصوروا قيمة الحرية . . ؟

تصوروا إذن قيمة الإنسان . وليس يكفى أن نتصوره تصورا دينيا بمعنى أنه خليفة الله فى الأرض ، ومنفذ مشيئته فيها . بل علينا أن نتصوره مع ذلك تصورا آخر يبرزه فى الدور الذى أداه ولا يزال يؤديه فى عمارة الكون ؛ وخلق جميع صنوف الحضارة المتبدية فيه . هذا الإنسان الذى تعلم وعلم ، وبنى وشاد ، واخترع وأبدع ، وفكر وتفلسف وانتقل بنفسه وبالدنيا معه . من بدائية جلفة غريرة إلى رقى عارم ومدنية شامخة . هذا الإنسان ما كان ليصنع من كل ذلك شيئا — لولا الحرية . ويوم كان يجد حريته — كانت تجده الحياة . ناصبا قبها حانيا لها . . فإذا فقد الحرية ؟ افتقدته الحياة ليخصب بوارها فلا تجده ولا تراه ولقد أتى على الفكر الإنسانى حين من الدهر وضع فيه تحت وصاية غبية ؛ ورقابة عمياء . فلم يكن ثمة أدب ولا فن ولا اختراع . ومثل واحد من مئات المثلات يؤكد هذه الحقيقة ويزكيها . . فحين اخترع المجهر . « ميكر سكوب »

وقف خصوم الفكر والحرية من رجال اللاهوت المسيحى وقالوا : هذا كفر وهرطقة ، وسلطوا عدسته على جثمان برغوث .. فرأوه ضخم الجثة — ففزعوا ولعنوا الشيطان الرجيم . . ثم حرموا استعمال المجهر لأنه يغير خلق ، ويضاعف أحجام الأشياء . . ! .

لو بقيت هذه الآفات تسيطر على الفكر ، وتضطهد حريته ، أكان ماتراه اليوم من حضارة غامرة سيكون . ؟

ويوم وقف « ابن رشد » يعلن نظرياته ، ويضع الحقيقة الفلسفية إزاء الحقيقة الدينية وقف خصوم الحرية والفكر من رجال الدين الإسلامى وأغروا به الخليفة وحكموا بخروجه على الدين ، ودعوا لمكافحته كما تكافح الجرائم والآثام فلو بقى هذا الضباب جاثما يسد الأفق ؛ ويحول بين الناس والحرية أكان طريق المعرفة سيمتد أمامها لاحبا ممهدا تعمره مواكب المعرفة ؟ !

ماأروع الآية التى قالها جيفرسون :

« إن الله الذى وهبنا الحياة ـ وهبنا الحرية معها فى نفس اللحظة ؛ ولنفس السبب » فى نفس اللحظة ـ لأن الحرية روح الحياة : ولا يتأتى أن يكون لها بدونها وجود . ولنفس السبب ـ لأن غاية الحياة أن تنطلق محققة الغرض من وجودها ، ومنفذة مشيئة الله الكامنة فيها .

والحرية كذلك . . بل هى الأداة المفردة لكل ذلك ـ ومامن تطور مشكور نافع أخذ بيد الأوضاع القديمة للناس فى السياسة والعلم والاجتماع إلا كانت الحرية وحدها رائده وحاديه .

* * *

الطمأنينة . . أم الحرية . . ؟؟

ولـكن الحرية مطلب جليل وهى لاتمنح يدها كل لامس ـ والأيدى الناعمة الرخوة حين تمتد إليها لتنالها ؛ ترتد قابضة على زراية وهوان . . ولا يبلغها سوى الصناديد البواسل ، القادرين على التوقل والتسور والطموح وقديما قال شاعر عربى :

لابد للعاشق من وقفة مابين سلوان وبين غرام

فلنسأل أنفسنا قبل المسير . أنريد الحرية بحق . ؟ أنها لن تأتى وحدها . بل تحف بها حشود من المخاوف والأخطار .

أن مهرها غال لمن يطلبها .. أنه الـكد والتعب والمثابرة وسماحة الأفق والإخلاص.

وهناك فى الوجهة المقابلة للحرية ـ توجد الطمأنينة . . طمأنينة أجســاد وسكينة القبور . وبهذا النوع من الطمأنينة نستطيع أن نعيش هادئين .

لانتألم ؛ لأننا لانحس . ولا نشكو ، لأننا لانشعر . ولا نقلق ، لأننا لانطمح ولا نخاف ، لأننا لانريد .

أفنختار الحرية ، ومعها أثقالها . .

أم نختار الطمأنينة ؛ ومعها أغلالها .. ؟

لعل من الخير أن أن نستهدى بأولئك الذين اجتازوا نفس التجربة من قبلنا . .

فلنصغ لرائد كريم هو « فرنكلين » يقول :

« إن الذى يفرط فى مبادىء الحرية وجوهرها ليشترى بها قدراً تافهاً من

الطمأنينة المؤقتة لايستحق الحرية ، ولا الطمأنينة » . . وهذا حق وهو ليس فقط غيرمستحق للحرية والطمأنينة بل لن ينالهما أبداً ولن ينال إحداهما – لأن الطمأنينة المندملة على ذلك الهوان لا تكون جديرة باحترامها ولا تفيؤها . .

وإذا كان شعبنا اليوم قد فقد الحرية ؛ فلأنه باعها بالطمأنينة ثم اكتشف آخر أمره أنه فقد الاثنين معاً – الحرية والطمأنينة .

ألسنا أحراراً . . ؟

ولكن كيف نزعم أننا فقدنا الحرية . ؟

هل هذا واقع ، أو هو ادعاء وتطير . . ؟

وإذن فعن أى شيء تعبر هذه الحضارة ؟ وهذا الدستور وهذا البرلمان وهذه الصحافة . . ؟

أليست جميعا مظاهر صدق لما فى بلادنا من حرية وسيادة . ؟

وقبل أن أجيب – نعم ؟ أولا – دعونى أقصص عليكم قصة :

يوم كان « وشنطن » يقود موجا كالجبال من جماهير المقاتلين فى حرب الاستقلال ؛ برز له جندى وصاح فى انفعالات صاخبة :

– فى سبيل ماذا نقاتل ؟

فأجابه وشنطن : فى سبيل الحرية .

وعاد الجندى يسأل : وما الحرية التى تستحق كل هذا العناء ؟ فأجابه : هى أن تقف هكذا ، مرفوع الرأس ، بارز الصدر ، وتصيح ملء فمك – أنا الولايات . . والولايات بلادى . .

وعلى حين غفلة من القائد العظيم انتفض الجندى كالمارد ، وضرب الأرض بقدمه ، ورفع رأسه وصاح : ـ أنا الولايات .. والولايات بلادى ..

ثم استدار إلى « وشنطن » وقال له :

— ها أنذا قلتها . . فهم ، مرة أخرى ، هذا العناء وهذه الدماء . . ؟ !

وهناك صوب الجنوب ، كانت المدفعية الانجليزية الباغية تدك حصون المحاربين وتصليهم سعيرا .. ودمدمت أصداء طلقاتها العاوية على سمع الجندى المشدوه فقال له وشنطن :

— أتسمع هذه الدمدمة . . ؟

إن المدافع الانجليزية تناديك : — كذبت . . كذبت . . كذبت

لست الولايات . . وليست الولايات بلادك . !

ويوم تقول كلمتك ، ثم لا تتحداك تلك المدافع ، ولا تكذبك هذه الطلقات ، فأنت يومئذ حر ، وهذه هى الحرية . . !

والآن ـ هل أنت مصر ـ وهل مصر بلادك . . ؟ هل تمثل وطنك فيك كيانا حيا بكل ما فيه من خير ، وبر . وفرص . وإمكانيات . . ؟ وهل لك من الأمر فيه شيء . . ؟ أم أن الأمر كله للناهب الظافر ، والمستعمر الدخيل . . ؟ هل أنت مواطن ـ تمشى على أرضها سيداً عزيزاً . . ؟ أم أنت تابع يأخذ بخطامك استبداد مطلق واستغلال دنىء . . ؟ هل تستطيع أن تقول : لا . . إذا نيطت بها كرامتك . ؟ وأن تقول : نعم . . إذا نيطت بها مروءتك . . ؟ هل تقدر أن تقوم فى بلدك اعوجاجا ، أو تنهنه بغيا أو تمس القديم العفن بتغيير وتحوير . . ؟ إذا كنته فأنت حر ، وإذا لم تكنه فأنت شيء آخر . . أنت رعوية تافهة ، وعبودية مسخرة . . !

* * *

إن بداية خلاصنا أن نعرف ، لا أن نخدع . . وأسباب المعرفة عندنا كثيرة، وعناصرها محشودة ـ تفتح أعيننا على حقيقة صارخة تؤكد أننا رعايا في «عزبة» لا مواطنون في دولة .

وحسبنا لذلك ـــ مأساة الشيوخ . .

وهي مأساة لا تحمل وزرها الوزارة ، بل السياسة ؛ ولا الحكومة ، بل روح الحكم عندنا توجهها الرغبة في السيطرة ، وفي الانتقام والعبث ، روح الحكم ، ونعني بهـا السلائق التي تجعل من السلطة التنفيذية سلطة إرهابية تعز وتذل ، هـذا الروح الماجن بما له من تقاليد وضراوة هو الذي لطم الكرامة القومية لطمة لم يكن منها بد ، ليعلم الذين لا يعلمون أننا سوائم ؛ لا مواطنون !

هذه حقيقة يعرفها الناس ، ولم يك ينقصها لكي تبلغ أوج اليقين سوى أن يصدر بها مرسوم . وتنشر في الوقائع المصرية ! وقد لا يعنينا أن يظل الشيوخ «الشاوحون» أعضاء أو أن يخرجوا . ولكن الشيء الذي أرجف على سكينتنا هو أن يجيء هذا الإجراء عقابا لهم ، وتنكيلا بهم من أجل استجواب تساءلوا فيه : عن أموال الشعب ، كيف انتهبت ؟ وأرواح بريئة كيف أزهقت ، وبيعت حياتها اليانعة للشيطان ! . وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور ما يجعلنا نرتد عاجزين عن الاقتناع بأن لنا في بلادنا حقوقا ترعى ، وحرمات تصان .

ولـكنه لايأس ، فلابد من صنعا ، وإن طال السفر ، وسنلاقي الحرية وتلاقينا في مهرجان يضج بأجراس الفوز ، ويغمهم بزهور الانتصار .

ولـكن علينا بأنفسنا ، إن معركة التحرير تبدأ منها وفيها .

تحرير أنفسنا من أنفسنا !

قلنا إنه لاجزع على حريتنا في مستقبلها ، فهي آتية لاريب فيها ، ولاخوف عليها من أعدائها ، بل الخوف عليها منا أنفسنا .

ماذا يخاصم الحرية ، ويعترض سبيلها ؟

إنه الاستبداد وهذا الاستبداد نفسه أقرب الطرق الموصلة إلى الحرية والاستقلال

فكر قليلا ، تجد الأمر كذلك ، فنحن كلما استبد بنا الجوع ، ألححنا فى طلب الطعام ، وكلما لفحتنا سبرات البرد ألححنا فى طلب الدثار وهكذا كلما لفحنا هجير الظلم والاستبداد ، اندفعنا فى تزاحم إلى ظلال الحرية وروضاتها الموثقات إن الظلم من صنع المظلوم ، قبل أن يكون من صنع الظالم . وعندما تشتد وطأته تبدأ نهايته ، لأن الذين كانوا يسمحون له بالبقاء وتتفاماً أمامه محاولاتهم يضيقون به ذرعا وتواتيهم شجاعة اليأس فيخاطرون من أجل الحرية مخاطرة تحطم عنهم الأغلال .

لقد وقف « أناتوك » يوما خطيبا فقال : ليس على وجه الأرض شيء اسمه الظلم فهذا الذى وقع عليه مانسميه «ظلما» إما أن يرفضه ، أو يتقبله ؟ فإن رفضه فقد منع وجوده . . وإن قبله وخضع له ، صار لما وقع عليه مستحقا وأهلا . . فلا يكون مظلوما . . !

وهذا كلام جليل صادق . وإذا عجزنا عن تقبله ، وتصديقه فلن نعجز عن تصديق « فولتير » وهو يقول : مارأيت كالطغيان شيئا يسوق الناس إلى الحرية

لابأس على حريتنا إذن من جلاديها ولكن الخوف عليها منا وحدنا . وقبل أن نطلب إلى الآخرين احترام حريتنا ، يجب أن نبدأ نحن فنحترمها :

هل يحترم المجتمع حريته : ؟ ما أثقل عبء الإجابة علينا ونحن نقول : لا ..

فالحقيقة أننا نحن الشعب لم نبلغ بعد الدرجة التى نؤمن فيها بالحرية فيها أضعف الإيمان: ولكن لن ندع الحاكمين يتوسلون بهذا إلى منع الحرية عن الشعب، فهو إذا كان لم يقدرها ، فلأجل أن حاكميه وقاهريه لم يتيحوا له فرصه تذوقها ومعرفة قيمتها

ولزومها — ويوم يذوق سيعرف — ويوم يعرف سيفتديها بمثل ما افتداها به السابقون . وكتابنا هذا محاولة لإيجاد تفاهم بين الحرية والشعب : وبينها وبين الذين أسرفوا على الناس وعلى أنفسهم بالبغى والاستبداد : ولن ننسى ونحن نتحدث عن الحرية أن نقول إنها إذا لم تكن كبتا وقهراً ، فهى أيضاً ليست استهتارا وفوضى : ولعل خير ما يصور جغرافيتها هذه القصة الفرنسية :

كان أحد الرجلين يجلس على أريكة بإحدى الحدائق العامة ، وعن يمينه جلس الآخر ، وليس بينهما معرفة ولا إلاف .. وتثاءب الجار وبسط ذراعيه وهو يتمطى ، فصكت أطراف أنامله ذؤابة أنف جاره فغضب ونبه المتمطى إلى اللياقة المطلوبة ، فأجابه الآخر : أنا حر . !

فقال له صاحبه . نعم أنت حر .. ولكن حرية يدك تنتهى حيث تبدأ حرية أنفى !

وذهبت مثلا بليغاً فحواه أن حريتك تنتهى حيث تبدأ حريتى ، وحريتى تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين — والآن — لنذكر هذا جيداً . إن المواءمة فى ممارسة الحرية بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض ، وبين المجتمع والدولة هى خير مايحقق لنا منافعها جميعاً .

فواجب الجماهير إذن حيال الحرية .

— أن تؤمن بقيمتها وضرورتها ، وأن توائم بين الحقوق المشتركة فيها

والطريق إلى الأول — أن تفهم أنه لاخطر من الحرية على الدين ،ولا على الفضيلة ، ولاعلى مصالحها : وأن الخطر على هذه جميعاً إنما يهب من ريح الكبت وضيق الأفق ، ونضوب التسامح .

والطريق إلى الثانى — أن يمارس كل فرد حريته فعلا ، وفورا ، ودائماً — وسوف نخطىء ويبغى بعضنا على بعض ولكننا أخيراً سنتعلم من الخطأ ،

ونفيد التجربة وتصحو فينا فطرة الحرية فتمضى سوية مستقيمة لاتضل، ولاتتجانف عدوان .

وواجب الحكومة تجاه الحرية أن تكون فى خدمتها ، وأن تصوغ قوانينها ، وتمارس سلطتها على وجه ينمى الحرية لا يضائلها .

والآن — لنمض معا — مستعرضين الحرية فى أزيائها المتعددة — مبتدئين بما بدأ الله به .

لقد تكلمنا فى الفصل الأول عن «الغرائز» — هذه التى خلقها الله لتكون طاقة دافعة ، فاستحالت بفضل الظلم والجهل إلى أغلال معقدة ، وعوائق مانعة . والغرائز هى القوى التى نظم الله حولها الحياة الإنسانية بكافة صروب نشاطها ، بل ناط بها وجهة الإنسانية نفسها .

وإطلاق سراح الحرية رهن بأطلاق سراحها فمشكلتنا تتمثل فيها ، وخلاصنا يبدأ منها ، وسنجد الآن وراء كل غريزة مضطهدة حرية مضطهدة كذلك ، والربط بين الحرية والغريزة ليس من صنعنا — بل من صنع الله — وهو قمين أن يوفر علينا كل محاولة سفيهة لقمع الحريات . لأنها على هذا النحو ليست شيئاً يقضى عليه البطش . بل هى وثيقة الصلات بأعرق وأعمق مافى الإنسانية من عزم وإصرار ..

وأذن — دعوها فانها مأمورة . ؟

حين نواجه حقيقتنا المنعكسة على مرآة الحوادث الماثلة — نجد شعبا مخفقا يدور حول وهم وعجز — حتى إذا أدركه التعب خر على الأرض ليطويه سبات عميق . وأعجب مافى أمتنا وجماهيرنا أنها على بينة مما تريد أن تفعل . ومع هذا فقد عميت عليها السبل ، ومضت تضرب فى كفاحها ودنياها على غير هدى . !

ترى — ماذا يضللها ، ويخلد بها إلى الأرض ، والحيرة والاستسلام ؟
أهو فقط ظلم الظالمين . ؟

إذن ، فما بالها لا تتحرك حين تمر بها فرص يرخى فيها المستبدون الزمام ، وتكتفى بأن تتململ تململا غامضاً ، لاينطلق بها إلى هدف واضح وتخرج أنفاسها الكظيمة المضغوطة فيسمع لها خوار ، ثم فجأة تهجع ، وتأرز إلى الوتد صابرة وربما شاكرة . ؟

.. إن آفة الشعب فى دخيلته ، فى نفسه الباطنة، وكل جهد يبذل للاصلاح بعيداً عن نفسه ، فهو جهد باطل مضيع ، إن فى أعماق ضميره شيئاً يدعوه لمقاومة الحياة ، وفى أقصى نفسه مرارة ويأس ، وفى وجدانه شعور الريبة بذاته ، وإمكانياته ، ومستقبله .. وفى عقله الباطن جبن، وهوس، وانقسام .، وشخصيته كلها ليست أكثر من إطار يضم هذه المساوىء جميعا ــ ومرد ذلك لا جرم ، إطفاء نورالحياة فينا وتحطيم إرادتها بمصادرة منابعها وردمها . فلنطلق غرائزنا هذه ، وهى ستهدى نفسها ، وتهدينا معها إلى الحرية والسيادة .

إن الحرية أجمل وأكبر من أن يضمنها قانون أو دستور أو حكومة . وإذا لم تستقر جذورها فى قلوب المواطنين فلن يكون لها أغصان ولا ظلال .
لنبدأ من هنا .. من غرائزنا المصفدة المضطهدة الحاقدة تفض عنها قيودها ، ونحطم سلاسلها ، ولن نتحدث عنها جميعاً . كما رأيت قبلا ــ وإنما نسوق الحديث عن بعضها الذى له بحياتنا ، كشعب مكافح ، أوثق الصلات ، وله بحريتنا كأمة مستعبدة أدق الوشائج .

غريزة الغضب ــ حرية النقد :

بينا فى الفصل الأول أثر اضطهاد هذهالغريزة فى انطوائها على حقد،واندمالها

على تربص . والحكومات حين تحاربها فسلاحها القانون ، فقانون يحرم التظاهر وآخر يحرم الاضطراب ، وثالث يحرم النقد والكلام .

والحقيقة أن وضع القوانين سهل ميسور ، وقد يكون تنفيذها كذلك سهلا وميسوراً ، وليست المشكلة فى وضعها ، وإنما فى جدواها ، إن القانون هنا — يحارب الطبيعة ، يحارب الغريزة ، يحارب قانوناً آخر ، وضعه الخلاق العظيم ووكدته القرون ، وهو لذلك مغلوب على أمره ولو بعد حين .. وغريزة الغضب تتسرب طاقتها تسربا مهذبا مأمونا فى المجتمعات والأمم بتمكينها من حرية النقد — فكبت هذه الحرية فى شعب تحد لقوة أصيلة فيه أصالة الإنسانية نفسها ، وتصفية لطاقة تلعب دوراً هاما فى بناء الشعوب .

وللعالم الجليل « هارى أمرسون فوزدك » فى كتابه [1] «كيف تكون رجلا حقا » كلمات هادئة مضيئة تكشف لنا عن قيمة الغضب الذى تكم حكوماتنا أفواهه ، وتضاعف قيوده ، فلنستمع إليه .

« . . والنزوع إلى الخصام من أعمق الحوافز العاطفية فى الطبيعة الإنسانية — والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الإنسانية وتقدمها ، وتترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق ، وبالشجاعة فى مواجهة المصاعب الشخصية وفى كل مظاهر الهجوم على المساوىء الاجتماعية المستقرة . . .

« . . ولكننا إذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفى الذى لاغنى عنه — كانت النتيجة مدمرة ، فإن البغضاء المزمنة ، وإمساك الحقد فى القلب يمزق صاحبه ، والغيظ الشديد قد يورث مرضاً كما تفعل الجرثومة .

« . . وإذا كان من سوء حظنا أن يكون لنا أعداء فإن شر ما يمكننا أن نصنعه لا للعدو ، بل لأنفسنا — هو أن ندع الغيظ يستقر ، والكراهية تزمن . .

(١) مجموعة مجلة المختار (١٩٤٥) .

« — حين لامت سيدة — إبراهام لنكولن — على عبارة كريمة قالها عن أهل الجنوب قائلة له :

«كان الأولى بك أن تتمنى القضاء على أعدائك .. أجابها وهو موفور الصحة العاطفية والأخلاقية ، ماذا تقولين ياسيدتى ؟ ألا ترين أنى أقضى عليهم حين أجعلهم أصدقاء لى ؟ » أ. هـ

أفلا نستطيع حكومة وشعبا ، أن يكون بعضنا لبعض كأبراهام لنكولن مع أهل الجنوب فتقضى الحكومة على الجماهير المنتفضة باتخاذها صديقا . . ؟ أن السبيل لذلك متمثل فى إطلاق حرية النقد فهى الانفعال السامى لغريزة الغضب.. وأن الجماهير فى بلادنا لتعامل معاملة القاصر .. أو معاملة الأيتام فى مأدبة اللئام — فهى تسرق ، وتضرب، وتباع مصالحها ثم يحرم عليها أن تقول لظالميها، وسارقيها ، هذا حرام . . . !

وهل يمكن أن تحترم أمة أو تقدس ، وهى لا تأتمر بمعروف ، ولا تتناهى عن منكر . ؟ إن الدستور يعطى الأمة هذا الحق — والقائمون على تنفيذ الدستور يسلبون هذا الحق . ؟ والشعب والحكومة شريكان فى اقتراف هذه الجريمة . فكلاهما يرفض أن تنقد شعائره ونظمه وتقاليده — وحين أنقد أنا ، أو أنت ، طغيان الاستبداد الذى يطأنا بقوائمه الغلاظ ، وغباء الحكومات وسفهها وسوء استعمال سلطتها. تلف حول عنقك حبال الاتهام بقلب «نظام الحكم[1]»

أفيكون كل نقد لمساوئنا السياسية والاجتماعية قلبا لنظام الحكم . . ؟ ألا فلنتدبر هذه الحقيقة جيداً .

لقد كانت الديموقراطية يوم بزغت «قلبا لنظام الحكم» بل لنظام الدنيا جميعها . ثم صارت اليوم مهوى أفئدة البشر جميعها .

---

(١) كتبنا هذا وصفا لحالتنا قبل ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ .

وفى مصر بالذات كانت المطالبة بالنظام النيابى خيانة وقلبا لنظام الحكم ثم إذا هو اليوم مناط الأمل والرجاء .

وكانت الحركة التى قادها الشيخ الشرقاوى ، والسيد عمر مكرم لتنصيب « محمد على » مؤسس الأسرة العلوية ، على مصر ، كانت هذه الحركة يومها خيانة للوالى القائم ، وقلبا لنظام الحكم . لذلك نرى خورشيد باشا يخاطبهما عندما طالباه بالتنازل باسم الشعب قائلا :

« . . إنى مولى من قبل السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين . » واتهمهما بالخيانة واتهم الشعب كله — الفلاحين — بمحاولة قلب نظام الحكم . ! ولكن الفلاحين أصروا على أن ينالوا شرف هذه الخيانة العظمى ، ووقعوا العريضة التى رفعت للباب العالى طالبين فيها تولية « محمد على » .

وهكذا نلاحظ أن كل قديم عفن يتهم القوى البازغة التى يثمرها الوعى والتطور بالخيانة العظمى وقلب نظام الحكم . !

أيريد المرجفون بهذا الاتهام أن يفهمونا أنه لايتم قط تحول نافع إلا على أكتاف الخيانة العظمى . ؟ أو فليوضحوا لنا مغزى هذا الأرجاف ؟

لقد كانت ولاية محمد على ، فى أوانها إنقاذا للبلاد من فساد كبير ونهض هذا الاعتقاد فى قلوب زعماء الشعب وعقولهم فعملوا وفقه — ولكن الحكم القائم يومذاك فسر عملهم المجيد هذا بأنه جريمة وانتقاض .

أفئن حاولنا اليوم تهذيب حكمنا ، واستحداث النظم والقواعد التى تلائم تطورنا وطموحنا ، وكان من وسائلنا لذلك النقد الذى يستهدف البناء والإنشاء نجابه بنفس الاتهام التقليدى — الخيانة — وقلب نظام الحكم . ؟

إن الحكومة تسوء نفسها كثيرا وتسوء بلادها حين تزجرنا عن النقد

وتمنع عنا حقنا فيه ، وهى إذ تسكت أقلامنا ، وتخنق همسنا — تغرى بنفسها وبيلادها الناقدين الأجانب الذين يكتبون عنا ما لو مزج بماء المحيط لتركه آسناً عكراً .

وعندنا مثل لذلك — الكاتب الفرنسى « كوكتو » . لقد استضيف فى بلادنا — وكان من حسن حظ مصر أن يهبط « كوكتو » فى ضيافة فتى مترف حديث عهد بميراث ضخم سمين ، فبسط للضيف موائد الكرام الباذخ تنوء بما فوقها من مطاعم ومشارب ، وهيأ له الكثير الطيب من الليالى الحمراء التى يجاهد فيها المترفون جهاداً مبرورا . !

ولم ينس « كوكتو » وقد جاء مصر — أن يرجو مضيفه كى يمكنه من رؤية « الحلقة المفقودة » فى تاريخ الإنسان — تلك التى تتمثل فى ملايين الفلاحين والصعاليك المضرجين . وعلى هذه الشارات الآدمية ركز « كوكتو » عدسته طويلا فوعى كل شىء ، وعرف كل شىء . !

ولما عاد إلى بلاده فرنسا . أخرج كتابه المعروف « فى بلاد معلهش » ! ولم نر هذا الكتاب طبعا ، فقد صادرته حكومتنا الرشيدة صونا لسمعة مصر أمام أهل مصر . أما العالم كله فقد قرأه وتلاه . ومثل « كوكتو » آخرون وآخرون .

والعجيب أن حكوماتنا خارقة القدرة فى محاربة النقد ، فهى لا تخرسه داخل حدودها فحسب ، بل تتعقبه خارج الحدود أيضاً — ولكل بلد وسيلته اللائقة به . فعندنا مثلا يحارب النقد بالسجن والتشريد ، وعند غيرنا من البلاد الأخرى تتعقبه بالإغراء والرشوة ولعلنا لم ننس بعد نبأ ذلك الباشا المصرى الذى ذهب فى الصيف الماضى إلى جريدة إنجليزية كبرى ، وزار المحرر المختص بشئون الشرق الأوسط ، والتمس منه أن تسكت الصحيفة عن نقد الأوضاع الفاسدة فى مصر ، وفى نهاية حديثة قدم للمحرر « شيكا » بمائة ألف جنيه . !

ونادى المحرر حاجبه وقال له : اصحب الباشا إلى الخارج ؟ فإنه يجهل الطريق . . . !

نعم — أنه يجهل الطريق . ولقد علمه الفساد المتفشى فى بلاده أن كل الطرق توصل إلى روما ، وأن الذمم تشترى بالمال فى غير مصر من بلاد الله ، ففعل فعلته وهو من الضالين . !

وليت الحكومات هى التى تحارب وحدها حرية النقد ، بل أن المجتمع لكذلك أيضا . !

فحين تنقد من تقاليده الموروثة وجهالاته المزمنة ماتعتقد أنه ضار به عائق له ترتفع أصوات كثيرة حاملة إليك نفحة هائلة من اللعنات والتمنيات .

يجب أن نروض أنفسنا على تقبل النقد متأسين بالبطل العظيم عمر بن الخطاب الذى كان يقول : رحم الله من أهدى إلى عيوب نفسى . وأن الصخرة التى تلقى فى طريق حرية النقد لترتطم بها — لهى التقاليد .

فتقاليدنا السياسية تصدنا عن نقدها ومحاولة إصلاحها ، وتقاليدنا الاقتصادية تزجرنا عن نفس الغاية ، وتقاليدنا الدينية تطارد كل محاولة نبيلة لإصلاح دينى ، وتقاليدنا الاجتماعية تريد أن تستعصى على التحوير والتطوير . . . !

والحقيقة التى تعزب عن بالنا هى أن الأديان جميعها لم تأت إلا لتدمدم على التقاليد ، وتقتلعها ثم تذروها مع الريح . ولو كان للتقاليد سلطان ما قامت للاسلام قائمة . فإنه لم يحارب بشىء كما حورب بالتقاليد . لذلك ذهب القرآن الكريم يصفع أنصارها ـ أنصار القدم والبلى والتعفن ، ويسخر من الذين قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ! فلحساب من تستبد بحرياتنا اليوم طائفة عفنة من تقاليد الحكم وتقاليد الاجتماع ؟

لحساب الدين . . ؟ — إن الدين كما رأينا يرى فى الركون إليها سفها . بل يراه جريمة يبوء صاحبها بغضب الله وازدرائه .

ففى حديث صحيح يقول الرسول عليه السلام .

« إنى ممسك بحجزكم عن النار ـ هلم عن النار ـ هلم عن النار . ولكنكم تقاحمون فيها تقاحم الفراش أو الجنادب . فأوشك أن أرسل بحجزكم — وأنا فرطكم على الحواض تردون على معا وأشتاتا فأعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل فى إبله ، ويذهب بكم ذات الشمال ، وأناشد فيكم رب العالمين ، فأقول أى رب . أمتى . فيقول : يامحمد .

« إنك لاتدرى ما أحدثوا من بعدك . إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم . . ! »

فهل الركون إلى التقاليد الا تقهقر على الأعقاب . وتخلف معيب مهلك عن موكب التقدم والحياة . . ؟ !

أم هو لحساب الدنيا إذا لم يكن لحساب الدين .. ؟ لكن الدنيا لاتقوم على الجمود بل على التغيير الثابر والتجدد المستمر — ولنضرب لذلك مثلا .

فقد كانت البيوت الارستقراطية المترفة مختصة دون سواها بتوريد الحكام والوزراء والرؤساء . فإذا بأمواج السيادة الشعبية ترفع إلى القمة أناساً لم تكن التقاليد لتعترف بمجرد وجودهم : ولم تكن العين لتقع عليهم فى ازدحام الحياة .

فابن الخباز « فنسيان أوريول » يرأس جمهورية فرنسا . .

وابن الحداد « ستالين » يتربع فوق الكرملين فى روسيا . .

وغاسل أطباق الصيدلية «ترومان» يصير الرجل الأول فى أمريكا

وسائق القطار « يفن » يوجه السياسة الخارجية لبريطانيا العظمى .

وهكذا فى بقية جوانب الحيـاة لا قدم للتقاليد ولا قداسة ، ولـكل ساعة تقاليدها المستحدثة وأوضاعها الملائمة .

غريزة النفور ـ حرية المعـارضة . . وحرية الإرادة

وإذا انتقلنا من حرية النقد إلى حرية المعارضة وحرية الإرادة وجدنا وراء هذين اللونين من الحرية غريزة أخرى قوية ماضية هى — غريزة النفور . وانفعالها المشروع النافع المعارضة . والإرادة .

فأنت حين تنفر من شىء مقيت ينتابك إحساس مزدوج بالإعراض عنه ، ثم بإرادة تغييره أو تحديه .

ولـكن الإعراض موقف سلبى إن صلح فى المواقف الفردية لا يصلح فيما يمس الأمة والمجتمع وهنالك يستعاض عنه بالمعارضة والتقويم . . ماذا كان يعنى الرسول بحديثه الـكريم : —

« أنه سيكون بعدى أمراء ، من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ، ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ـ ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ، وهو وارد على الحوض .

وماذا كان يعنى عمر حين دعا النـاس أن يقوموه إذا اعوج ، ويرشدوه إذا انحرف . . ؟

ليس لهذا كله سوى دلالة واحدة هى التقدير الواعى الـكريم لغريزة النفور إنهـا إذا طمست فى أمة أو ضللت ـ صـار أمر هذه الأمة فرطا ـ لذلك رأينا

الاسلام يزكى حماسها ويثير انتباهها ، فيقول الرسول : « لا تمروا بديار الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون ، خشية أن يصيبكم ما أصابهم » . !

ثم يقول : «إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب» .

إن عبارة « ولم تأخذوا على يديه » هى الانفعال المحتوم لغريزة النفور — هى المعارضة والتقويم . .

وحرية المعارضة فى بلادنا عملة زائفة يحظر تداولها ! وبينما نجد كلمة (المعارضة) فى بلاد كانجلترا عنوانا لهيئة سياسية تحترمها الحكومة وتنتفع بذكائها ، إذا بها فى مصر عنوان على طائفة منبوذة مضطهدة — هكذا دائما — فى كل حكم ، وعهد . !

ولقد قصصنا عليك من قبل ، كيف طردت المعارضة البرلمانية بمجلس الشيوخ كما يطرد بواب عمارة ، أم خادم — لأن ممثليها اجترأوا على رفع الستار عن بعض الذمم التى شربت فى كؤوس النصر والاستهتار دماء الأبرياء ودموع اليتامى وثكل الأيامى . . !

إن المعارضة البرلمانية قوام الحياة النيابية، وأى امتهان لها أو تقويض لسلطانها امتهان للنظام النيابى جميعه وتقويض له .

والأمر كما يقول « ج . بيورى » فى كتابه — حرية الفكر :

« إن الشر الناجم عن تقهقر الحرية إلى وراء ، أعظم من أى شر وقتى مهما بلغ من الاستطارة والإيذاء . . »

إن حرية المعارضة وحرية الارادة تأخذان فى الدول المتحضرة مظهراً يبعث على الدهشة والعجب . فترى الحكومة البلجيكية التى بذلت جهداً مضنيا لتعيد الملك « ليوبولد » إلى عرشه — تقف أمام معارضة المعارضين من الشعب منحنية مستسلمة حتى لقد تركت الجماهير المتدافعة كالموج تصرخ فى وجه الملك العائد من منفاه « مقام غير سعيد ياليوبولد . . ارجع إلى منفاك ياليوبولد» . . ؟

بل أن أروع من ذلك قد كان ، فكتبت جريدة الأهرام يومذاك أن مدينة «ليبج» أعلنت الحداد من أجل عودة الملك ـ ونكست العلم الوطنى فوق مبنى المحافظة !!

وخرج المعارضون فى مظاهرة كبرى يقودها «بول هنرى سباك» معلنة رأيها الصريح فى عودة الملك ـ وبعد يومين اثنين كان الملك يوقع ورقة التنازل عن العرش . وكان « بول هنرى سباك » يتحدث مع مراسل « آخر لحظة » عن المأساة فيقول : « عندما يصبح الملك هدفاً لسخط الشعب يصير على الفور غير صالح لأن يكون ملكا ، ولقد شعر الملك ليوبولد بأنه لا يستطيع الجلوس على العرش إلا وهو فى حماية المدافع الرشاشة . .

« ولا تستطيع أن تتصور ملكا يجلس على عرشه فى حماية الحراب . . »

ـــ ثم يتحدث عن الملك الجديد قائلا ـــ « إن الأمير بودوان فى مركز لا يحسد عليه ، وهو يفتقر إلى المران والخبرة ، ونحن نطلب منه ثلاثة أشياء .

ـــ أن يحترم مبادىء الدستور .

ـــ وأن يعيد السلام والكرامة إلى شعبنا الجريح . .

ـــ وأن يكون ملكا سعيداً ، فإن الملوك السعداء يخلقون شعوباً سعيدة .

إننا نريد أن نظفر فى بلادنا بمثل هذه الجراءة فى معارضة السلطة التنفيذية والحاكمين المسئولين . ونريد أن تتوفر لنا حرية الإرادة فى أن نصنع حياتنا كما نشاء نحن لا كما يشاء الآخرون . والذين لا يمكنوننا من حرية المعارضة يريدون أن تكون مصر بحق « بلاد معلهش » . لأن العجز حين يرين على إرادة المستضعفين ، وترعش ألسنتهم بكلمة الحق يعارضون بها البغى والفساد لا يملكون سوى هذه الكلمة الرثة « معلهش » !

والحاكم الصالح النظيف الشجاع هو الذى تزدهر المعارضة برلمانية وشعبية فى عهده وتترعرع . لأنه لا يخافها ولا يخشاها .

ولقد كان عمر من هذا الطراز حين قيل له ، اتق الله فى الناس يا عمر — فقال : ويل لكم إن لم تقولوها — وويل لنا إذا لم نسمعها . . ؟ وكذلك كان « لنكولن » حين قال : « إذا أدرتم أبصاركم فى الوطن ، فرأيتم لى فيه عملا جليلا ، فاذكروا الذين كانوا يخالفوننى فى الرأى ويعارضوننى . لقد كانوا من ورائى سياطاً تلهبنى . ومن أمامى أضواء تنير لى الطريق » . . !

المشاركة الوجدانية — حرية الفكر : وحرية الرأى . . .

إن نشاط « المشاركة الوجدانية » يترجم فى حياة المجتمع بتضامن الشعب والحكومة فى حمل التبعات وتلاقيهما فى الإحساس والشعور . .

والعواطف كما يقولون معدية ، ولاتقف عدواها أمام حجر أو حصار . فإذا شاعت فى الأمة عواطف الثقة والمحبة استقام أمرها . وإذا حطمتها عواطف الشك والمقت طاش سهمها . وخاب فألها . .

ولقد أدركت قوى الشر العاملة الناصبة ، هذه الحقيقة . فتوسلت إلى تمزيقنا بتشكيك المواطنين بعضهم فى بعض وتشويه سمعة الرواد المخلصين حتى لا تستجيب لهم الجماهير وتستغل جهل الناس بحقائق الدين ، وحقائق الدنيا . ! لماذا صارت الأمة أشتاتاً ومزقاً ؟ تحسبها جميعاً . . بل لا تحسبها . . وقلوبها شتى . . ! لأن نزعة المشاركة قد كظمت فيها وأحالها طول الارغام إلى نزعة تشتيت وتخذيل . . ولماذا كان ذلك كذلك ؟ — لأن المجتمع لم يحاول أن يؤمن بحرية الفكر ، ويقدرها قدرها — ولو قد فعل لغشيته الثقة ، وآخى بينه التسامح وسما به الفكر الطليق إلى سماوات من فوقها سماوات .

لا بد إذن — أن يقر فى أذهاننا وضمائرنا الاحترام الأكيد لحرية التفكير والتعبير . ويومئذ سيقبل بعضنا على بعض ، وتتخذ من الخلاف الفكرى مزية ، ويضحى بعضنا لبعض ظهيرا ! .

فلتفكر أنت كما تشاء — ولتدع غيرك يفكر كما يشاء ، دون أن نجعل من مناطق التفكير حلالا وحراماً — فالفكر وحده هو الذى سيقرر فى حرية كاملة حلها أو حرمتها . . إن للفكر الإنسانى إمكانيات ثرة هائلة ، وهو أداة الإدارة الكبرى للكشف عما فى كون المادة ، وكون المعرفة من ركاز وكنوز . والعالم الحديث زاخر بالمذاهب والأفكار . ونحن فى هذا العالم جزء منه يصيبنا ما أصابه طوعا أو كرها — فإذا لم نحط بعقليته وأفكاره خبراً . ونسارع إلى مسايرته أو مسابقته . فسنظل مكاننا — لنا أعين لا نبصر بها ، ولنا آذان لا نسمع بها ، ولنا قلوب لا نفقه بها حتى يمر بنا الموكب وهو ماض إلى غايته فيستردفنا خلفه كما يستردف اللقطاء . ويضعنا تحت الوصاية حتى يروضنا على تقبل الحياة والتفاعل معها .

أليس هذا — هو منطق الاستعمار حين يعثر على أمة مغفلة لا تحترم ما أودعه الله فيها من عقل وقدرات . ؟

إن بلادنا محرومة من أن تفكر ؛ لأنها محرومة من أن تقرأ — ومحرومة من أن تعبر وتقول . . وهى ممنوعة من ذلك كله حرصاً على سلامة الدولة ؛ وسلامة الهيئة الاجتماعية . ! !

أصحيح هذا — أم خداع وهراء .

إن الفكر الحر لا يكون خطراً على الدولة والمجتمع أبداً . وإنما مصدر الخطورة فكر غير حر ؛ فكر مكره مضطهد موتور .

إن حكوماتنا تهيب طبيعة بعض الأفكار وتأثيرها فتحرمها . وسنفترض إخلاصها فى هذا التحريم . ونظافة بواعثها . ثم ندعوها لتسمع من « ميل » فى كتابه «الحرية» نقاشاً هادئاً بليغا .

« . . هذه الفكرة المراد تحريمها صواب أم خطأ .

«إن تك صوابا ثم حظرناها . فقد حرمنا المجتمع حقه فيها . . وسلبنا منه إحدى حقائقه الكبرى . وإن كانت خطأ فمن أين لنا معرفة ذلك .

«يجب لكى نحكم عليها بالتصويب أو التخطئة أن نمتحنها فى جميع الظروف وتتاح لنا الحرية الكاملة فى مناقشتها ومناقضتها وبغير ذلك لا يستطيع كائن ذو مواهب إنسانية أن يتثبت تثبتا عقليا من صواب فكرة أو خطئها» .

إن هذا القول البليغ ليجهز على أراجيف الذين يحرمون المذاهب والأفكار حرصا على دولة . أو مجتمع ، أو فضيلة ؛ فالفكرة التى تنتصر على النقاش والمعارضة والنقد انتصاراً مستمداً من صدقها وأحقيتها هى التى يجب أن تنظم تقاليد الدولة حولها ويصاغ المجتمع والفضيلة وفقها . لا أن تحظر وتصادر .

لكن . كيف لا تكون حرية الفكر والرأى خطراً على الدولة وهى المسؤولة عن كل ما وقع فى التاريخ من تغير وتطور وانقلاب .

وجوابنا ـ أن هذه ـ مزية الحرية لا خطيئتها ـ فكل ما أحدثته من تغير وتطور تم لصالح الإنسانية وأفضى لإسعادها .

وأما ماحدث من انقلابات صاغت التاريخ وعينت له وجهته ، فلم تتم جميعها على وجه غير مشروع ، والذى وقع منها على وجه محظور — كان القانون فى انتظاره يصادمه ، ويقف دون غايته — وهى مصادمة محترمة حتى من الحريه نفسها ما دامت بعيدة عن الإفراط والتفريط .

يقول «ج بيورى» (١) :

« إن الحالات التى يكون تدخل الحكومة فيها ضد الحرية سليما ، هى حالات يلتبس فيها الحق بالباطل ، فلو حدث مثلا تحريض مباشر على أعمال عنف معينة لكان هناك مجال مشروع لتدخل الحكومة . ولكن الباعث على التحريض ينبغى أن يكون متعمداً ومباشراً .

(١) حرية الفكر — ترجمة الأستاذ محمد عبد العزيز إسحق .

« فاذا ألفت كتابا . وهاجمت فيه الأنظمة الحالية ، ودعوت إلى نظرية فوضوية ، ثم قرأه رجل فقام وأعلن التمرد ، وارتكب جريمة . . فقد يستنتج من هذا أن كتابى هو الذى جعل الرجل فوضويا وجانيا ومع ذلك فلا يكون جائزاً ، ولا مشروعا أن أعاقب على التأليف ، أو يصادر كتابى مادام لا يحوى تحريضاً مباشراً على ارتكاب تلك الجريمة بالذات .

« إن الشر الناجم عن تقهقر الحرية إلى وراء أعظم من أى شر وقى مهما يبلغ من الاستطارة ، وأن مبدأ حرية الفكر إذا تقرر يوما ما باعتباره أقصى مراتب التقدم الاجتماعى . . خرج من مجال الأمر العادى إلى مجال الأمر السامى الجليل الذى نسميه « عدلا » أو بعبارة أخرى ، يصبح حقا يستطيع كل إنسان ان يستند اليه — وأن قيام هذا الحق على مبدأ المنفعة لايبرر أن تقوم حكومة فى أحوال استثنائية ، فتقص من أطرافه بحجة المنفعة نفسها . »

ويعنى « بيورى » بقيام الحرية على مبدأ المنفعة ، أنها لكى تكون مجدية حاسمة بعيدة عن المهاترة والتعارك والخلاف ينبغى أن تناط بالمنفعة القائمة على مصالح الإنسان المطردة المتطورة .

وإذا عجزت هذه الكلمات الهادية أن تهدينا ، وتقف عدواننا المستمر على حرية الفكر ، فلن تعجز الواقع أبداً . وهذا الواقع يتمثل فى أن للأفكار والآراء فى هذا العصر ، من النفاذ ، والغلبة ، وسرعة الانتشار ، وقوة الاقتحام مالايمكن قوة على ظهر الأرض من وقفها . فبدلا من أن تنفذ إلى أفئدة الناس فى خلسة وظلام ؛ دعوها تأخذ طريقها السوى لنبصرها ونراها ، ونتفحصها فى نور ووعى لنأخذ منها الطيب وننفى عن مجتمعنا الخبيث .

وارتباط حرية الرأى بحرية الفكر خالد وثيق . ولا قيمة للثانية بدون

الأولى . ونحن لانطالب بحرية الفكر كما نطالب بحرية الرأى ، فأنت تستطيع أن تفكر تفكيراً ذهنيا فى أخطر الأشياء ؛ وأشدها خصومة ولددا للقانون دون أن يسمع أحد أو يرد ، ودون أن يقدر أحد — حتى أنت — على وقف التفكير ورجعه .

لذلك . فان حرية الفكر تعنى فى الحقيقة حرية الرأى . حرية التعبير والقول . وقمين بنا أن نعلم أن هناك تلازما طبيعيا بين التفكير . والتعبير . . حتى أن بعض علماء النفس ليقولون :

« الإنسان يكلم نفسه وهو يفكر . ولو راقبنا حباله الصوتية . ونظرنا إلى حنجرته أثناء التفكير . لرأيناها تتحرك . وهو دليل على أنه يتكلم ولو لم يشعر بذلك . . »

أرأيتم الآن مابين الحريتين من تلازم وارتباط . ؟

ثم أرأيتم أن مكافحة الحرية مكافحة للطبيعة الغالبة . وتحد لإرادة الله . ولا يتمثل الرأى فى شىء كما يتمثل — بعد الكتاب — فى الصحافة . فهى التى يتشكل فيها إلى حد كبير أسلوب الأمة فى التفكير وفى الحياة . . وهى التى تستطيع أن تعبر فى إفاضة . وإحاطة . وقوة عن آلام الشعب وآماله . . ولما كنا سنتحدث عنها فى الفصل القادم باعتبارها أهم العناصر التى تتألف منها شخصية الأمة فسنرجىء الحديث عن حريتها ليأتى هناك مع الحديث عن تبعاتها وقيمتها .

أطلقوا سراح العقل

والحديث عن حرية الفكر والرأى لا يبلغ مداه حتى يحمل نصيبه من الدفاع عن العقل ذاته .

أن العقل فى بلادنا . وهو مناط التفكير والفهم . مشرد محروم .. تطارده الحكومات . وتطارده أيضاً الجماعات . . . !

فهو مشبوه سياسى تارة . ومشبوه دينى تارة أخرى .. ولا يكاد يبزغ من كوى سجنه بزغة خاطفة . أو يومض ومضة بارقة حتى يفزع منه « المحافظون »

وماذا . بعد أن تظل عقولنا مسامة هذا الاضطهاد ؟

ماذا . بعد أن نظل أمة بلا عقل . ؟

إن المستعمر الذى يستعمرنا . والمستبد الذى يحكمنا . والمستغل الذى يستغلنا — كل هؤلاء إنما يستعينون علينا بعقولهم . فإذا شئنا أن نزلزل الأرض تحت أقدام المستعمرين . ونرد الرجعية على أعقابها لتلتزم مكانها الذى أراده لها التطور والتاريخ . وإذا قررنا الانطلاق مع الموكب الحى . أحراراً كما ولدتنا أمهاتنا — عاملين تتفجر بالأدب والفن والإنتاج مواهبنا .. إذا كنا نريد فلا سبيل لشى حتى يعود الغائب . ويطلق سراح السجين .. العقل !

إن الخوف والتقليد هما اللذان يلفان عقولنا فى الظلمات .

والعجيب أنها تخوف بالله . . ترى أين يلتمس العقل سكينته وأمنه إذا افتقدها لدى الله ؟ — إن الشعوب التى لاتحترم العقل لن يحترمها أحد — وستظل أبدا مباءة تعج بالسفه والحماقات ونهباً يتربص بها كل مستعمر وناهب ويجب أن نعلم أن العقل سيد نفسه . وإذا كان لله خلفاء فى الأرض فخلفاؤه العقل . والذى يبخس عقله . وينتزع منه اختصاصه . لايظل إنسانا . إنه كومة هزيلة من اللحم والعظم والأعضاء والأمعاء يطلق عليها تجوزاً لقب « آدمى » وهؤلاء الذين يثيرون العواصف أمام العقل باسم الله جد مفترين ! .

لقد اختلف الأنبياء والمرسلون . فكان لكل واحد منهم طريقة ومنهاج

واختلف أصحاب محمد عليه السلام وهو ثاو بينهم ومقيم . واختلف أئمة الفقه فى أخص خصائص الدين ، واحترم بعضهم لبعض هذا الخلاف .

وما ذلك كله إلا احترام للعقل ، وحض له على المغامرة والتحليق .

انظروا — تروا عمر بن الخطاب لايخاف من إلغاء نصيب المؤلفة قلوبهم مع أنه مضمون بآية صريحة فى القرآن . !

لماذا . ؟ لأن عمر استعمل عقله ، فاهتدى إلى أن هؤلاء المؤلفة قلوبهم لم يعد ثمة مايدعو للحرص عليهم مالم يأتوا مؤمنين راغبين .

إن استعمال العقل واحترامه بداية ماتريد من بعث ونشور — ولا بأس أن تخطىء عقولنا وتزيغ .. فستهتدى آخر الأمر ، والخطأ الذى يثمره تحرير العقل من الخوف خطأ فاضل نبيل .. وهذا هو الخطأ الذى يجعل الإسلام لصاحبه أجراً ..

ولقد كان الرسول عظيما يوم ضم إلى صدره معاذ بن جبل تقديراً لشجاعته الأدبية والعقلية حين قال : اجتهد رأيى ، لا آلو . جواباً على سؤال النبى له : ماذا تصنع إذا لم تجد الحكم فى كتاب الله ، ولا فى سنتى ؟

وكان « جون ستيوارت مل » بليغا وهو يقول :

« إن الحق ليستفيد من خطأ الذى يعتمد على فكره مع اتخاذ الأهبة وإنعام النظر — أكثر مما يستفيد من صواب الذين لايعتقدون الصواب من باب التسليم دون أن يكلفوا أنفسهم مئونة البحث ، ومشقة التروى . » .

دعوا عقولنا تتحرر من الخوف . فليس شىء سواها بقادر على تحريرنا وإنقاذنا . ولنذكر أن أعداء مصر لا يرهبون شيئاً مثلما يرهبون العقل المستنير . لأنه الرائد الباسل أمام كل حركة شابة ، وتطور زاحف .

ومن أجل ذلك يبغضونه ، ويحاربونه . وعلينا أن نحرره ليحررنا ، ونخلصه ليخلصنا ، أنا لنأسف ملء نفوسنا ، حين نرى بعض رجال الدين أو القلم ، يسهمون مع الغاصبين فى محاربة العقل وتأليب الجماهير عليه . وتشكيكهم فى قيمته وفى نفعه ، وتجرئتهم على بهته ورجمه — حين يحصبونه بالحجارة والتهم ، ممثلا فى آراء بريئة خالصة لأخوة لهم فى الوطن ، والألم ، والكفاح .

إن هؤلاء لن يكونوا سوى فريقين :

أصدقاء جهلاء للشعب .

أو أعداء خبثاء له . .

فليختاروا لأنفسهم مايحلوا .

أما نحن فنختار لهم ، أن يكونوا أصدقاء علماء .!

ونأسف أيضاً لحكوماتنا [1] التى تجبى منا الضرائب التسخو بها عن طريق المصروفات السرية والعلنية ، على أولئك الذين يحاربون العقل والوحى بما يكتبونه ويذيعونه ، وحين تدع كتب الغثاء والتضليل تنشر بلا قيد ، ثم تصادر أو تهدد دائماً بالمصادرة كل كتاب يبشر بالواجب ويخافت بالواقع المثير .

وإذا كان الخوف عدوا خطراً للعقل ، فالتقليد أشد خطورة وكيدا ، وهو ديدبان حارس لما للرجعية والتأخر من تراث .

والأمم المنحدرة النائمة لاتفيق حتى تومض فى حياتها ساعة تؤمن فيها بأن التقليد انتحار ، ترى هل دقت هذه الساعة فينا . أو آن لها الأوان . ؟

إن الجواب — مع الأسف — لا .

---

(١) المعنى بهذا الحديث طبعا حكومات ماقبل ثورة ١٩٥٢ .

فنحن أمة تتلقط دائما من غيرها دون أن يكون لها إبداع وابتكار .
وهذا كلام يضل فيه الفهم إذا لم يكن بصيرا ، فقد يظن البعض أن استهجاننا للتقليد يعنى كل محاكاة نافعة ، وكل قدوة بالذين سبقونا إلى الحياة . . كلا — والفارق بعيد بين التقليد والمسايرة . . ونحن ندحض التقليد ، ونؤمن بالمسايرة. ولكن ماعلاقة التقليد بحديث يساق عن الحرية ؟

إن العلاقة بينهما أكيدة وواضحة .

فالتقليد — عبودية ورق — وإهدار لكافة مقومات الحرية ، والشخصية والفرد حين يقلد فرداً آخر يمحو ذاتيته من الوجود .

والدولة حين تقلد دوله تقليداً أعمى توقع منشور نعيها وخبر وفاتها وفى بلادنا يكمن التقليد وراء كل عمل نأتيه ونهج ننهجه .

وفى غيرنا من البلاد المتحضرة عليت نزعة التقليد وهذبت وصارت تطوراً ومسايرة .

ياللمشاهد المضحكة .

جماعات تقف أقصى اليمين ، وعلى أبصارها غشاوة . وجماعات أخرى فى أقصى اليسار ، وعلى أعينها غطاء .

أما نحن ، فنقلد تقليد العبيد الذين لاثمن لهم ولا جزاء .

والحكومات (١) عندنا — ألفت هى الأخرى عقلها — ومضت تقلد فى جنون وشغف — فهى تارة تقلد « عنترة » فتخطب وتصخب ، وتبطش بالضعفاء لتزجر بهم لأقوياء . وتمزق الهواء بالسيف وتهتف من « الشرفة » بسقوط الشيوعية . . وتارة أخرى تقلد « جحا » يوم مضى يؤذن وهو يجرى فى الطريق فلما سئل : لماذا يصنع هذا . . ؟

(١) المعنى بهذا طبعا حكومات ماقبل ثورة ١٩٥٢

أجاب بأنه يريد أن يعرف إلى أى مدى يبلغ صوته الجهير . !

فحكوماتنا تحمل نفسها أوزار العروبة ، وسفهها وفوضاها — لأنها تريد أن تعلم . إلى أى مدى يمكن أن يصل صيتها ، وإلى أى مدى تستطيع أن تسوس امبراطورية مترامية عندما يمن الله بها عليها . !

لقد كان جحا قادراً على معرفة منتهى صوته ومداه لو أنه وقف مكانه ونادى بالأذان ولكنه أراد ذلك ليتيح للفارغين أن يقلدوه وينتفعوا بذكائه ..! إننا فى كارثة ونحن لاندرى .

فالتقليد لدينا محور حياتنا . وهو يذهب صاعداً — فتقلد الجماهير روادها من كتاب وصحفيين وبرلمانيين . .

وهؤلاء جميعاً يقلدون الروح المتخلفة والوصولية الزاحفة .

ثم يأخذ التقليد ترتيباً آخر تنازليا ، فنرى الشعب مثلا يصيح : هيا إلى فلسطين — فيردد الكتاب والرواد صداه : هيا إلى فلسطين — وإذا الحكومة القائمة وقتئذ تصيح هى الأخرى — هيا إلى فلسطين . . دون أن تتهيأ وتستعد وتقف على صخر مكين .

والجماهير — تنفس عن غيظها العاجز المكبوت ، فتهتف — تسقط الرأسمالية وتقلدها الحكومة . فتصرخ : تسقط الشيوعية . . !

إن عقليتنا السياسية تقلد وعقليتنا العلمانية تقلد ، وعقليتنا الأصلاحية تقلد .. فقدت نفسها لأنها فقدت عقلها — فإذا أردنا أن نجد أنفسنا ونفرض على الآخرين وجودنا واحترامنا ، فلنقدر العقل قدره . ولنمكنه من أن يفكر فى حرية وانطلاق — لايخاف وهما ، ولا قانونا — ويساير النابهين مسايرة مبصرة . ولا يقلدهم تقليد المكفوفين .

غريزة « أنا » — الحرية السياسية . .

عندما نتحدث عن الحرية هذا الحديث المتنوع ، فنقول حرية الفكر وحرية الرأى ، وحرية النقد ـ إلى آخر هذه التقسيمات ، فليس معنى هذا أن الحرية تتجزأ . .

إن الحرية وحدة متضامنة متداخلة لاتقبل التجزئة . ولا التفتيت ولكننا نكسوها هذه الأزياء المتنوعة . تبعاً لتنوع الظروف والمقتضيات . والحرية هى الحياة . والحياة لاتتجزأ فأما حياة كاملة وأما موت كامل . من أجل ذلك صاح محرر قديم — أعطنى الحرية ، أو الموت .. !!

ونريد الآن أن نتحدث عن الحرية السياسية للشعب — وهى الانفعال السامى لأعرق غرائزه ، وأنفعها ، وأغناها .

غريزة «أنا» حب الذات ، وإثباتها ، وتوكيدها — إن الشعوب المستعبدة تعجز دائما عن أن تقول : أنا . . واسمعوا هذه الحقيقة جيداً .

إن الشعب المسترق لايستطيع أن يقول : أنا . مشيراً إلى نفسه ولكنه يقول : هو .. مشيراً إلى سيده !

وعلاج شعبنا اليوم[1] فى لسانه — أن يقول دائما : أنا . . أنا . . أنا .

إن توكيد الشخصية يتطلب مددا زاخراً من قوى الفرد ، وقوى الجماعة . . وإذا كانت التعاليم المغلوطة ، والأهانات المتكررة ، والاستعمار المتغطرس ـ إذا كانت هذه جميعاً قد نزعت عنا كبرياءنا ، فلنحاول من جديد أن نكون أهل ثقة واعتداد وكبرياء .

---

(١) المقصود هو الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى من الكتاب .

لقد قرأ نابليون فى صغره — أن من أراد أن يكون شيئا ما فليهتف كل يوم ثلاث مرات عن وعي وانتباه — يجب أن أكون ذلك الشيء . . وذهب ، فكتب « لافتة » واضحة الكلمات ، وناطها بجدار غرفته ، وفى كل صباح يرتدى ثيابه ، ثم يستقبلها فى وقفة عسكرية ، ويقرأ كلماتها المكتوبة فى قوة : يجب أن أكون جنرالا . . !

وإنكم لتعلمون أى شيء قد صار نابليون .

نريد أن نكون مجانين مثل الطفل نابليون . .

فيهتف كل مصرى صباح كل يوم — أنا مصر . .

نريد أن تصف كل سيدة صغارها وأشبالها قبل منصرفهم من المنزل فى الصباح — وتطلب إليهم أن يصيحوا جميعاً — نحن مصر .

نريد أن تقف « طوبير » التلاميذ والطلاب فى أبهاء معاهدهم ومدارسهم لتهتف صباح كل يوم — نحن مصر .

نريد أن يفتتح النواب والشيوخ جلسات البرلمان بهذه الصيحة الواثقة — نحن مصر . .

ولكن بعد أن تمثل مصر فى برلمانها تمثيلا صحيحا . . ينتظم فقراءها قبل أغنيائها .

لن نعرف حقنا حتى نعرف أولا أنفسنا . ولن يعترف أحد بوجودنا حتى نثبت أولا هذا الوجود . . والسبيل لهذا : أن نقف — لنرى

وأن نتحدث — لنسمع .

وأن نقتحم — لنخشى . وقبل أن نقول : نريد — يجب أن نقول : نحن

وإذا ماسئلت : أتدعو الناس إلى الأنانية ، وحب الذات . وحب الظهور ؟!

أجيب : نعم .. يجب أن نتحلى بفضيلة الأنانية . . الأنانية المستنيرة الفاضلة . التي تحفزنا إلى إدراك قيمتنا . والعكوف على مطالبنا والنهوض بواجباتنا . والتشبث بحقوقنا .

لقد قتلنا التواضع . وبددنا طول الانطواء والانزواء .. فلنبرز إلى الأفق ولنبصر أنفسنا من جديد .

إن الأنانية البغيضة هي تلك الفردية التي تطويك على نفسك ، وتلفك في أطماعك وشهواتك .. أما الأخرى التي نريدها — فهي تعرفك بنفسك — لاتطويك عليها — وتنشرك ضخما فخما عظيما . لتملأ أفقك وفراغك .. ولكي يبلغ الشعب هـــذه المكانة ، ويحقق في مجموعه هذه الفضيلة ، يجب أن يبدأ أفراده بذلك .

غادر نفسك — إذا كانت نفسك قبواً مشحونا بالأطماع .

وأنشيء لك نفسا جديدة لهامثل ، ونهج ، وكفاح بحيث تتلاقى مثلك ونهجك وكفاحك مع حاجات وطنك ، ومصلحة مواطنيك . وبعكف على نفسك هذه فلن تكون أنانيا بغيضا ، بل أنانيا مستنيراً . وإذا كان هناك مايعين على هذه الطريق بعد أنفسنا ، فهو إتاحة الحرية السياسية لنا إتاحة كاملة لاتكتنفها عوائق ولا قيود ؛ فعن طريقها تتحقق كرامتنا السياسية ، ووجودنا القومي والإنساني.

إن الحياة السياسية للأمة تنتظم كثيراً من العناصر والأدوات .

ولكنها تتركز أخيراً في الحكومة والبرلمان .

فالبرلمان يشرع للأمة سياستها والحكومة تقوم بتنفيذ هذه السياسة وبين الاثنين تفاعل يذهب طردا وعكسا ، فالحكومة تؤثر في البرلمان وتخضع له .. وهو يؤثر فيها ويخضع لها .

والطريق المفضي لتحقيق حريتنا السياسية هو . ديمقراطية الحكومة الديمقراطية النيابية _ فلنتحدث عنهما .

ديمقراطية الحكومة :

لكي يكون الشعب حراً — يجب أن يسود . ولكي يسود — يجب أن يحكم . وهذه هي الديموقراطية . حكم الشعب .

ومادامت الحكومة ثمرة انتخابات يختار الشعب عن طريقها ممثلين ليحددوا بدورهم نوع الحكومة التي ستحكم ؛ فإن الشعب إذن هو المسئول وحده عن نوع حكومته وسنوضح هذه المسألة عند الحديث عن الإصلاح البرلماني . بيد أننا نريد أن نقرر هنا أن الحكم الديمقوقراطي إذا غربت شمسه عن أمة ، فقد غرب معه استقلالها ، ومال مستقبلها للمغيب .. وبعبارة أخرى . أن الحكم الاستبدادي يقوض سيادة الدولة ، ويهيء الأمة للعبودية والاستسلام . لذلك يجب أن يسلك كل حاكم طاغية في عداد « الخائنين العظام » — لأنه باستبداده ينزل الشعب منزلة رديئة من الاستياء والقنوط يفقد فيها زمام التصبر والاحتمال ؛ فيرحب بكل طارق يقرع أبواب بلاده ، ويرى المقاومة ضربا من العبث والجنون .. ماذا وراءه حتى يحرص عليه ويذود عنه .. ؟

لقد قال الشاعر العربي :

وحبب أوطان الرجال إليهموا — مآرب قضاها الشباب هنالكا

فإذا تلفت الشعب وراءه ، فلم يجد له ذكريات سعيدة تستجيشه وتناديه — ففي سبيل ماذا يقاتل ؟ .

وقال شاعر آخر :

لا أذود الطير عن شجر — قد بلوت المر من ثمره

فإذا أبصرت الجماهير بالأشجار التي أبت أن تظللها من الهجير ، وتطعمها

من الجوع تجتاحها الأعاصير ، أو تعدو على ثمارها الذئاب . فلماذا تدافع عنها ؟ لذلك لا نجد غازيا سار عبر التاريخ إلى مدائن فتحها ؟ أو عروش فدكها ؛ أو امبراطوريات فأذاقها لباس الخوف والذل — إلا كان استبداد الحكم فى هذه البلاد المفتوحة الصريعة ، الطريق الممهد الذى دخل منه موكب الغازين . .

أنصتوا لغوستاف لوبون يقول[١] :

« استقبل كثيرمن البلاد المحتلة غزاة فرنسا كمحررين لها ـ فقد هرع سكان سافوا إلى رؤية الجنود الفرنسيين ، واستقبل الناس فى مايانس هؤلاء الجنود بحماس . وغرسوا أشجار الحرية ، وأسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس ..

« .. وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمم أذلها الملوك المستبدون ولم يكن لها خيال تذب عنه ـ كان النصر يحالفها ، ولكنه كان يتعذر عليها عند اصطدامها بأناس أولى خيال وثيق بخيالها .. »

إذن فالحكام المستبدون فى أمة هم طابورها الخامس الذى يعمل بشعور أولا شعور لحساب الغزاة والمستعمرين ... وهم الذين يحيلون الشعب الصلب المتماسك إلى زبد طرى تجرى فيه السكين ..

وإذن فالأمة يتقرر مصيرها ، يوم ينهض فيها حكم استبدادى ولو تلفع بأردية زائفة من الديموقراطية . وما أروع محمدا رسول الله حين يقول : « إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة .. »

أى إذا صارت أمور الأمة بيد من ليس للحكم أهلا ، فانتظر الساعة .. الساعة التى تدق معلنة وفاة هذه الأمة .. ناعية سيادتها واستقلالها .. ! وهل يكون المستبد أهلا للحكم أبداً .. ؟

---

(١) كتاب روح الثورات — تعريب الأستاذ محمد عادل زعيتر .

أنه لايكفى شكل الديموقراطية بل لابد من حقيقتها .

وليس يكفى أن يكتب فى الدستور . الأمة مصدر السلطات ثم يكون الواقع — أن الأمة ضحية السلطات . . !

وليس يكفى أن يحمل حكامنا « جنسية مصرية » بل لا بد أن يجرى فيهم دم مصر وآلام مصر و آمالها . .

إن الحاكم الديموقراطى يحترم الشعب . ويجعله فى عينه أجل من أن يخدعه وأعظم من أن يضلله ويحترم حقوقه جميعاً أدناها كأخطرها. ولطالما تستبد بنا الدهشة والعجب حين تضطرب أمورنا فنفقد توازن الحكم وديموقرطيته ونتساءل ما نحن؟ عرب — أم فراعنة . . ؟ ثم تتكاثف الدهشة حين نجد أنه لادين العرب الذين هم آباؤنا ولا دين الفراعنة الذين هم جدودنا — يبيح الاستبداد ، ويمنح الحاكم المستبد حق الطاعة والاحترام . . !

فهذا هو الرسول يقول : — « مامن إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجاته . . »

ويقول « إذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب من عنده » . ويقول : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا ، فشق عليهم فاشقق عليه ويقول : « أن شر الرعاء الحطمة » .

ويقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، ويصلون عليكم وتصلون عليهم . وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » .

ويقول : « إذا أراد الله بالأمير خيرا — جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه . وإذا أرد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ؛ إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعنه . »

وهذا عمر يعدو وراء بعير شارد من أبل بيت المال . . حتى إذا سئل :

ــ ألا نتعقبه نحن ، وتستريح أنت ياأمير المؤمنين ؟

يجيب وهو يهدر . ــ ولماذا إذن أكون للناس واليا وأميرا . . . والله لوضاع عقال بعير بالعراق لخشيت أن يسألنى الله عنه ، ويقول لى : أتستودعك حقوق الناس ، وتنام عنها ياعمر . . ؟!

أى أن عمر رضى الله عنه يقدر مسئوليته إزاء حق الشعب فى عقال بعير ــ فى حبل من مسد لا يساوى شيئا ــ فكيف كان تقديره إذن لحق الشعب فى الحرية . . . ؟

هذا هو الإسلام ــ إذا كنا مسلمين . .

وماذا فى دين المصريين الأقدمين . . ؟

إنها نفس التعاليم التى تلزم الحاكم باحترام الشعب ، ونشر الحرية والعدل والمساواة بين أبنائه جميعا .

لنضع أبصارنا الآن على الصفحة الثالثة والتسعين من الجزء الثانى لكتاب « قصة الحضارة » . . حيث نطالع الخطاب التقليدى الذى كان يلقيه الملك على الوزير حين يتقلد منصبه ! . .

« اجعل عينيك على مكتب الوزير : وراقب كل مايحدث فيه واعلم أنه الدعامة التى تستند إليها جمع البلاد . . ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة . . واعلم أنها ليست إظهار الاحترام الشخصى للأمراء والمستشارين وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيداً . .

« انظر . إذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ، وأن يعطى كل إنسان حقه . . واعلم أن المحاباة

بغيضة إلى الأله ، فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لاتعرفه . . وإلى المقربين إلى الملك — نظرتك إلى البعيدين عن بيته . .

« انظر . أن الأمير الذى يفعل هذا — سيبقى هنا فى هذا المكان . وليكن مايخافه الناس منك أنك تعدل فى حكمك . .

« ارع القواعد المفروضة عليك . »

هذه آيات يفسدها التعليق ، فلندعها متألقة ولنتساءل مرة أخرى : من أين لنا إذن مايصبغ حكوماتنا جميعا[1] بصبغة العتو والاستبداد . ؟

من الاسلام . . ؟ لا . . من المصرية القديمة . . ؟ لا .
إذن . فمن أين . . . ؟ من أين تهب هذه الريح السموم . . ؟
لا بد أنها من الماضى . . حيث الاستعمار التركى المتوحش .
ومن الحاضر . . حيث الاستعمار الانجليزى الخبيث . ؟

لقد أتى على جماهيرنا المستعبدة حين طويل من الدهر زيف فيه دينها تزييفاً هادفا ليسلس قيادها ، وتتلاشى أمام الطغاة إرادتها . فقيل للمسلمين منا : إن نبيكم يقول :

« استمع لأميرك وأطعه ، وأن جلد ظهرك وأخذ مالك »
« كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب »
« الزموا طاعة أمرائكم ، وإن ظلموا . . فأن الله مبتليكم بهم »
وحاشا محمدا . ثم حاشاه أن يقول من هذا شيئا .
وقيل للمسيحين منا : إن دينكم يقول :

---

(١) المقصود الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى من الكتاب . . ؟ !

« أيها العبيد ــ فلتخضعوا لأسيادكم ، والخوف يملأ نفوسكم . ولا يكون هذا الخضوع للخيرين منهم ، ولا للرفيقين فحسب ــ بل وللشريرين أيضاً » ــ ــ رسائل بطرس ــ .

« أيها العبيد ــ أطيعوا سادتكم فى خوف ، ورعد . . » الرسالة الموجهة إلى الفيزيين .

«على جميع من يخضعون لنيرالرق أن يعتبروا أسيادهم جديرين بكل تبجيل » ــ الرسالة الموجهة إلى تيموتيوس ــ .

وحاشا روح الله ــ وحاشا حوارييه الصادقين أن يقولوا من ذلك شيئا . إنها إذن مؤامرة .. فتل الاستبداد حبالها من زمن وسلك فيها ضحاياه من الشعوب.. فلنحذر .. ولنعش أحراراً كما ولدتنا الأمهات . وتشققت عنا الأرحام .

الديموقراطية النيابية :

وإذا كانت ديموقراطية الحكم لازمة لتحقيق الحرية السياسية فى الأمة فألزم منها وأخطر الديموقراطية النيابية . . فالبرلمان هو الذى يثمر الحكومة ويمين لونها . وعملية الانتخاب هى التعبير الصحيح عن إرادة الشعب وحريته السياسية إذا لم تخالطها رغبة ولا رهبة .

والديموقراطية النيابية تتحقق بعناصر أهمها :

(ا) حرية الترشيح . (ب) حرية الاقتراع .

ولنبدأ الحديث عن أولها .

حرية الترشيح :

إن المواطن الذى يتقدم إلى الناخبين طالباً ثقتهم ، يجب أن يكون حراً

ويجب أن يشعر بالحرية المطلقة شعوراً غامراً حتى يواتيه الإحساس الصادق بكرامة مهمته وقدسيتها .

ولـكن الترشيح فى بلادنا مصفد بهذه القيود .

١ — الدوائر المغلقة . .

٢ — العصبية والحزبية .

٣ — القيود البرجوازية . .

أما الدوائر المغلقة فبدعة فى حياتنا السياسية ، وهى نوع مهذب لأسواق الرقيق ، لأن فحوى هـذا النظام أن تتفق الأحزاب على توزيع مناطق النفوذ ؛ فيأخذ كل حزب نصيبه من الدوائر ، ثم يفرض عليها من مرشحيه من لاتـكون لهم موهبة سوى التبطل والفراغ . ! ويحرم على ذئاب الحزب حرف (ا) أن تعتدى على ذئاب الحزب (ج) .

بل لماذا نظلم الذئاب . . ؟

إن نظام الدوائر المغلقة يقضى على المنافسة الحرة فى الترشيح ويجعل أحزابنا قريبة الشبه (بالفتوات) الذين يتقاسمون الشوارع والأحياء ؟ ! ولا بد لكى ننال حريتنا النيابية من إلغاء هذه البدعة وتحريمها .

وليس بخاف عنا ، أثر العصبيات ، وقوائم الترشيح التى تصدر عن الأحزاب فى تسيير المعركة الانتخابية فى طريق بعيدة جداً عن الحرية والديموقراطية. ولقد أهدرت من وقتى كثيرا لـكى أتمكن من مراجعة بعض قوائم الترشيح الحزبى التى صدرت فى بلادنا ، وأمامى الآن منها خليط متنافر . لأحزاب عدة لن أذكر لك أسماء . . وحسبك أن تعلم أن تسعين فى المائة من الذين تحمل القوائم أسماءهم ليسوا أكثر من حزم كبيرة من البنكنوت والجهل والنفاق . !

لقد آمنت بأن الأحزاب اليوم لاتحترم الشعب أبداً ما دامت تختار له هذا الاختيار . . . ؟

إن الحزب — فيما يبدو — لا يريد نائبا يشرفه بعقله أو مواهبه ولكنه يريد — بوليصة تأمين — تؤمن خزينته من الأعواز وتعوذه من الخذلان .. وهكذا تبيع الأحزاب — الناخبين إلى مرشحيها ، ثم يعود المرشحون ليبيعوا الناخبين ومصالحهم إلى الأحزاب ولسنا ننظر إلى خطر قوائم الأحزاب من هذه الزاوية وحدها — بل من الزاوية الأخرى حيث تستعمل الأحزاب نفوذها — غالبا — فتعمل على إنجاح عملائها الذين فرضتهم على الشعب . .

ومن زاوية ثالثة — حيث يتسم النظام النيابى بما قد يصلح وصفه بالخسة والدناءة . . إذ لا يسجل اسم مرشح فى قائمة الحزب إلا إذا نقد الحزب ثمن هذا الترشيح — هذه جريمة بشعة . . فنحن نعلم أن المرشح لا يدفع ألفا من الجنيهات مثلا إلا ليضمن بها الفوز والانتصار . والحزب يعده ذلك ويمنيه ويعمل جاهداً لأجله ويقبض على هذا الاعتبار ..

بماذا تسمى هذه العملية المتبجحة الرخيصة ؟

أهى سمسرة ، أهى غش وتدليس ، أهى تجارة رقيق ، يباع فيها الناخبون للمرشحين .. ؟

نعم — هى كل ذلك .. والغرم دائما على الشعب الأسيف فالمرشح الذى رشحه حزبه بألف جنيه ، وينفق فى المعركة مثلها : ويعود فيتقاضى مادفعه أضعافا مضاعفة ، ومن أين .. ؟ من الشعب وعلى حساب مصالحه . فهو إذا نجح فى الانتخاب يصير رجلا ذا نفوذ .. وهذا النفوذ لا يتحرك لقضاء حاجة إلا بثمن لا يسمونه طبعاً رشوة ، ولا سمسرة . إنه فقط — مصاريف الانتقال — وثمن القهوة أو ، ثمن البنزين .. !

وللذين يوضعون فى قوائم الترشيح أنماط متفاوته ، تختلف باختلاف الدائرة

والحزب ، هل الدائرة مقفلة أم مفتوحة ؟ لكل من الاثنتين ثمن ! وهل الحزب ضالع مع الحكومة التي ستجرى الانتخابات أم غير ضالع ؟ لكل من التقديرين ثمن ... !!

وفى أحزابنا تقرع أجراس المزايدة والأوكازيون . ، فنى هذا الحزب تساوى الرأس ألف جنيه مثلا .. !!

وإذا كنت رجلا رفيق الحال فلا تحزن .. ستجد أحزاباً أخرى رقيقة الحال مثلك تثمن رأسك بثمن بخس — مائة جنيه مثلا .. وخمسين أيضا إذا هان عليك رأسك كل هذا الهوان .. !

* * *

فإذا غادرنا القوائم إلى العصبيات ، ألفينا فسادا كبيراً ــ فهناك ترى مثلا رجلا مفرط الجسامة ، منتفخ الأوداج . حذار أن تطيل إليه النظر ، وتحملق بعينيك الفضوليتين فى وجهه الكريم .. إنه السيد المالك .. الذى يملك القرية كلها .. وربما يملك معها القرى التى حولها .

حسب هذا السيد حين تخلو الدائرة ــ أن يعلن فى كلمات متأففة متكلفة أنه سيدخل المعركة ، فلا تكون قط معركة .. لن يجرؤ أحدهما تكن ثقافته على مواجهته فضلا عن مزاحمته .

ولقد حدث مره أن اجترأ رجل فاضل جداً ، ومثقف جداً ــ على ترشيح نفسه فى إحدى دوائر الصعيد أمام سيد كبير . ؟ فضرب السيد الأرض بقدمه فانشقت ، وخرج منها أحد خدمه وعبدانه . ، فانسحب السيد من الترشيح ، وأقسم بعزة آبائه أنه لن يرشح سوى هذا ، ولن ينجح سواه .. هذا الخادم الأمى الذى أراده سيده نائبا ، فكان . . !!

وقد كان . ، وأحرج الرجل المثقف الفاضل . .

كان يمر بالدائرة فى بضعة أنفار من عصبيته المتواضعة . . وكان خادم السيد يمشى فى موكب يزرى بالمواكب ، وكرنفال تهتف الدنيا له . . ! !

لابأس أن يرشح الخدم وينتخبوا — فهذه دعوتنا ورسالتنا — أن يحرر العبيد . وترتفع قيمة الانسان . . ! ولكن الموقف هنا مختلف اختلافا بعيدا . وهو من الوضوح بحيث يعتبر تفسيره اتهاما لفطنة القارىء وذكائه . .

إن العصبيات وقوائم الترشيح تطأ حرية الاقتراع بأظلافها ، وتبددها تبديدا . والدوائر المغلقة كذلك — ورابعة الأثافى ، إن كان للأثافى رابعة . . هى :

القيـود البرجوازية :

إنها تسجن إمكانيات الشعب فى قانون . قانون لايسمح لك بالترشيح إلا إذا دفعت مائة وخمسين جنيها . . وإلا إذا كانت ضريبة الدخل التى تدفعها عن أملاكك وأطيانك مائة وخمسين جنيها كذلك ، إذا كنت ستدخل مجلس الشيوخ !

إن مقاييس الجدارة فى بلادنا لاتزال أبعد ما تكون عن المواهب الجديرة بالاحترام . إنها تناط بمالك . . ووسامتك .. ونوع الدوحة المكريمة التى تنتسب إليها . . ! وقد يحسب المثرون أن مائة وخمسين جنيها للتأمين شىء غير معجز . ، وهم معذورون لأن أكوام الذهب والورق التى أمامهم تخفى عنهم ملايين المواطنين الشرفاء . . الذين يعيشون من اليد للفم ، والذين قد يتقاضى أحدهم ثلاثين ، أو أربعين جنيها ولكنه يوم يموت لايجد أهله ثمن الكفن

الذى يلف حطامه ، وعظامه .. ! ثم إن هذه القيود ، حتى مع القدرة قبيحة ، برجوازية ، مثبطة .. قد يقال : أن هذا التأمين الذى تؤهلك للترشيح ،، أو ذلك الشرط المادى الذى يشترط ملكية خاصة تؤهلك لمجلس الشيوخ..إنما توخى بها القانون تنظيم الترشيح ، وحصره فى نطاق معتدل معقول حتى لايتقدم كل « من هب ودب » ..

وسنفرض أن هذا هو الباعث ، وأنه باعث سليم . وعندئذ نسأل : — لماذا يناط الترشيح إذن بالمال . . ؟ .

هنا تبرز الأغراض الرأسمالية الواقفة وراء كل تشريع؛ والتفكير الأقطاعى الذى يمسك زمام المجتمع وزمام الحياه ..

فليكن المناط فى هذا المجال — العلم . المؤهل العلمى . وحتى هذا نحن لانرضاه .. ونرفض أن تقيد إرادة الترشيح بأى قيد سوى قيد المواطنية . والصلاحية . .

ومن القيود البرجوزاية أيضا السن ..

فأنت ؛ مهما تكن مواهبك ونضجك ،لاتكون نائبا حتى تبلغ الثلاثين .، وقد تسقط فى أول محاولة لك ، وفى الثانية أيضاً . ، فلا تتمكن من خدمة بلادك داخل البرلمان إلا عند الأربعين مثلا . !

ألسنا نمنح الشاب ابن العشرين ، أو ابن الثالثة ، أو الخامسة والعشرين شهادات عليا ، تتيح له أن يكون محاميا ، أو طبيبا . أو أستاذا ، أو قاضيا .. !؟

فهل هذه الوظائف فى قيمتها والتزاماتها لاتهم الدولة ، فتعهد بها إلى الصبيان .. ؟ !

أى فارق بين وكيل النيابة فى سن الخامسة والعشرين يجلس إلى يمين القضاة .، وبين وكيل للأمة ، فى مثل هذه السن ، يجلس تحت قبة البرلمان .. ؟

فلتنفض هذه القيود ..

فلا يشترط التأمين ، ولا دفع قدر من الضرائب محدود ، ولا سن الثلاثين ، ولا الاربعين : إن سن الرشد الذى اعتبرته الدولة ، وحددته بأحدى وعشرين هى السن اللائقة للبرلمان بمجلسيه — النواب والشيوخ ؟ نبدأ منها ، ونمضى مادام معنا ثقافة وقدرة ، وحياة ..

وبعد ؟ فإن مجالسنا النيابية حتى اليوم[1] لم تمثل الأمة ، بقدر ما مثلت الحزب . وكان هذا سببا مباشرا لـكل مانعانيه من ويلات .

والبرلمان الذى يأتى ثمرة هذه الأوضاع الفاسدة ـ لايحكم الحكومة بل تحكمه ولا يعزف عن تأييدها أبداً عدا محاولات ناشئة بدأنا نحسها فى البرلمان القائم . قد تتضاعف وتنمو ـ وقدتوجه إليها صيحة زاجرة ، فترتدعلى أدبارها ، وتنكص على أعقابها ..

فى شهر نوفبر عام ١٩٥٠ ـ وافق مجلس العموم البريطانى بأكثرية (٢٣٥) صوتا ـ ضد (٢٢٩) صوتا على تعديل تقدم به حزب المحافظين بشأن بعض المسائل البرلمانية أى أن حزب المعارضة انتصر على الحكومة فى برلمان لها فيه أغلبية الأعضاء والآراء . ! فما دلالة هذه الظاهرة التى تتكرر كلما تكررت مقتضياتها . ؟ إنها تدل على أن النائب هناك ، يعرف نفسه جيداً ويدرك أنه يمثل الأمة فى البرلمان ويمثل الحزب فى الأمة .

أما عندنا ، فالنائب يمثل الأمة فى الحزب ، ويمثل الحزب فى البرلمان ؟ فارق كبيراً جداً ـ فمتى نبلغ مبلغ الرجال . ؟

---

(١) المقصود هو الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى ... (!!)

(ب) حرية الاقتراع :

الاقتراع ــ هو الأدلاء برأى حر فى اختيار ممثل لمجموعة من الناس ــ يثمر تلك المنظمة النيابية التى نسميها « البرلمان » .

والبرلمــان ــ هو الهيئة المختارة الممثلة للأمة ، والتى تثمر الحكومة الديموقراطية ، وتراقب سلوكها .

والحــكومة ــ هى الهيئة التى تقوم بحماية الدولة ، وتنفيذ قوانينها . ورعاية مواطنيها . .

وإذن ، فنحن حين نختار نوابنا ، أو شيوخنا ــ نختار فى نفس اللحظة الحكومة التى ستحكمنا ، بل والقوانين التى ستسيطر على مجتمعنا . والسياسة الداخلية والخارجية لبلادنا .

فإذا كان الشعب اليوم بمعزل عن المؤثرات الحقيقية فى سياسة وطنه لايسهم فى تقرير مصيره .

وإذا تـكون كريهة يدعى لها ــ وإذا يحاس الحيس يدعى جندب .

فمعنى هذا ــ كان الله معه ــ أنه لا ينتخب ولا يختار . . وإنما يساق سوقا عنيفاً ، أحيانا ورفيقا أحيانا أخرى ، إلى التصديق على الذين تضعهم الظروف السعيدة أمامه من مرشحى الأحزاب ، ومرشحى السلطات ، ومرشحى العصبيات . !

هذه هى الحقيقة . إن الحرية السياسية فى بلادنا كالاشتراكية تماما . كلتاهما أكذوبة على شفاه الـكبار . . ووهم فى أحلام الصغار . !

أصحيح أن الناخبين حين يساقون إلى الصناديق بالوسائل المعروفة يتمكنون من صوغ رأيهم وإملاء إرادتهم . . ؟

أصحيح أن هذا المواطن المحطم المتهالك الذى يحمل هموم الثقلين . . ويزلزل سكينته صراخ عشرة بطون جائعة . . هذا المسكين الذى برقت أمام حاجته وحرمانه ورقة بنكنوت تتيح له امتلاك خمسين قرشاً يرشوه بها أحد المرشحين .

أتظنونه سيأبى .. ويذهب ليختار مرشحاً آخر لايرشو ولا يعطى .

ومواطن آخر .. ذلك الذى يقع فى منطقة نفوذ مالك كبير . فيؤمر أمراً باختيار مالكه . أو من يهبه المالك رضاه ، فيمضى صبيحة الانتخاب أسيفاً مكتئباً يحسد الآخرين الذين هم فى منح أصواتهم أحرار يبيعونها بالثمن الذى يشاءون . أتسمون هذا انتخابا ... ؟

أعرف فى مصر « تفتيشاً » غليظا أنا أحد رعاياه . . وقريتى كلها تقع بين فكيه ، وفى دائرة نفوذه ـ ومعها بلاد وبلاد . .

فإذا جاءت انتخابات . لم تجد المرشحين هناك يتزاحمون على أبواب الناخبين ولا يسعون إليهم . بل يتسابقون إلى سراى التفتيش . وهناك يجلس « البك » « المفتش » ينقر مكتبه الانيق بأنملة سبابته ، فيهب سكان أربعة بلاد وقوفا ، وصفوفا .. ثم يومىء إليهم بطرفه ، فيخروا ساجدين .

فعندما تزور « البك » المفتش وتصلان معاً إلى إتفاق معلوم . ويعدك بأن الصفقة لك ، فقد ضمنت قطعا أصوات هذه البلاد جميعاً وفى يوم الانتخاب ؟

من تنتخبون .. ؟ التفتيش . ! من نائبكم . ؟ التفتيش !

انظر ، إنهم لن يختاروك فحسب ، بل سيجعلونك تفتيشاً .. ! حدث هذا ، وفى يوم من تلك الأيام التى أستاذ فاضل بأحدى المدارس الثانوية بمعاون التفتيش ، وهو واقف بين الناخبين ، يذكرهم ويحذرهم فأخذته عزة العلم ،

وكرامة الإنسان ، وثار فى عنف . وثار معاون التفتيش فى عنف أكثر ..

كان المدرس الفاضل يتحدث بقوة كرامته وحدها ..

وكان الثانى يتحدث بقوة تفتيش باذخ عظيم ..

كان الأول يترافع عن حقوق الإنسان ..

وكان الثانى يترافع عن حقوق الأطيان . !

ما الكرامة .. أمام تفتيش ، فى بلد كمصر . ؟ !

وما حقوق الإنسان ، أمام الأطيان ، وآلهة الأطيان فى بلد كمصر . ؟

انتخاب هذا .. أم انتهاب ؟ اختيار هذا .. أم إقهار ؟

كل شىء فى بلادنا مظلوم ، حتى اللغة ، حتى الكلمات .

إن الانتخابات ــ هنا ملحمة عظمى ، تصرع فيها إرادة الشعب وحريته . وهذه الجماهير التراكضة تسخر فقط لحمل الأعضاء على الأكتاف حتى تبلغ بهم باب البرلمان . وهناك يسمح لها بالعودة ، فتعود إلى نجوعها ، وجوعها تقرع سن الخيبة ، وتزدرد آمالها اللاغبة وأمانيها المتعبة . !

إن حرية الاقتراع تعيش فى هذه الاصفاد :

(ا) الاقطاعيات والتفاتيش : وقد ضربنا من واقعها مثلا .. نعتقد أنه يتكرر فى كل ضيعة وتفتيش .

(ب) الرغبة العامة فى التزييف ..

وهى تبدأ من رجل البوليس ، وتنتهى عند رئيس الحكومة .

أما رجل البوليس الذى يقترف هذا الوزر ، فيكون حافزه غالباً المجاملة ، أو المعاملة ... !!

ولسنا هنا نعيب هيئة البوليس . أو نتهمها . فليسوا سواء .. إننا نشخص مرضاً من أخطر أمراض مجتمعنا ، ولبعض رجال البوليس دور ملحوظ فى نشوئه ، ومضاعفاته والبعض الآخر عف كريم . هذا الرجل البوليسى الذى يخون واجبه ، ويسىء استعمال سلطته ، يستغل ضعف الجماهير وخوفها ، فيمسك أزمتها بواسطة شيوخ الخفراء فى القرى وشيوخ الحارات فى المدن ، ثم يوجهها حيث يريد . إنه يهدر أمانة الواجب من أجل مجاملة أو معاملة ...

أما الحكومة[1] التى تجرى الانتخاب ـ فأما أن تكون حزبية ، أو لاتكون .. فإن كانت ، فإن الحزبية تدفعها إلى توكيد ذاتها ، ونشر لوائها فتزيف ـ وإن كانت محايدة تنتابها الفلسفة المكيافيلية .. فالغاية تبرر الوسيلة والغاية عندها ، إيجاد برلمان صالح حسب فهمها الخاص لكلمة صالح . والوسيلة هى إكراه الناخبين على اختيار الصالحين ، الصالحين فى نظرها أيضاً وهى تقنع نفسها بأن الشعب جاهل ، ولا يحسن الاختيار . وهذا حق . ولكن ما السبيل لأن يتعلم ، ويحسن الاختيار ؟

الطريق هو الحرية ، والتجربة ..

دعوه يتخير ، ويخطىء ، ثم يتخير ، ويخطىء ، حتى يبزغ اليوم الذى تنمو فيه تجاربه ، وينضج وعيه ، فيختار فى توفيق وسداد .

ماذا يصنع أحدنا حتى يصبح واعياً رشيداً .. ؟

إنه يمر بأدوار الطفولة والمراهقة والشباب متعثراً بالخطايا والأخطاء حتى إذا بلغ أشده ، ورشده ، واستوى ـ اتخذ من عثرات ماضيه وتجارب أمسه درساً هادياً ، وعصمة واقية . فليعلم رجل البوليس ـ أن الواجب ـ أحمى

---

(١) المراد طبعا العهود السابقة ... (؟)

من المجاملة ، وأبقى من المعاملة .. وليتق الله فى أمته التى قطعت فى ممارسة الحياة النيابية سبعة وعشرين عاما ثم كأنها تبدأ اليوم .. بل كأنها لم تبدأ بعد .. !

وليعلم الحاكمون[1] أن الخطأ وسيلة الصواب . ولابد أن نخطىء اليوم لنصيب غداً . وأن الحاكم الذى يزيف إرادة الأمة إنما يقف نموها ويلاشى شخصيتها .

(ج) رشو الناخبين ..

وهذه الرشا التى تقدم للناخبين جهاراً علناً تضرب حرية الاقتراع فى الصميم وقد تسأل : أليس الناخب الذى يبيع ثقته بدراهم معدودة يصنع ذلك مختاراً ، ويصوت فى حرية .. ؟

والجواب طبعاً ـ لا ـ لأن الإكراه ليس فقط للقوة ، بل هو أيضاً للضرورة وهذا الذى استكرهته ضروراته على بيع صوته . مكره لامختار . ففضوا عن عنقه أغلال ضروراته ، وحاجاته .. وإلى أن تفعلوا ، فيجب أن تحرم الرشا فى الانتخابات تحريماً زاجراً ، وتشرع عقوبة مؤدبة لا للآخذ ـ بل للمعطى ـ فالمرشح الذى يثبت عليه أنه رشا ناخبيه يحرم من حق الترشيح ثلاث دورات متتاليات من تاريخ الجريمة لعله يتذكر أو يخشى ، فإذا عاد ، حرم هذا الحق إلى الأبد .

من كان منكم لم ير .. فقد رأى آخرون ، مرشحاً غير محترم .. كان سيصير نائباً محترما .. ! يقف أمام لجنة الاقتراع بأحد أقسام البوليس ، ويشطر الجنيه شطرين ، ثم يعطى المقترع نصيبه ، ويرسل معه رسولا ، يتأكد من انتخابه ، فإذا عاد تسلم نصف الجنيه الثانى ...

---

(١) المراد أيضا العهود السابقة .. !!!

يحدث هذا ـ علنا ، وأمام قسم البوليس وبعض رجاله . .

إن نصف الجنيه كان فى المعارك الانتخابية الأخيرة ، خطيبها الساحر ، وفارسها المغوار ، وسيظل كذلك حتى نقضى عليه ، أو يقضى علينا . . !

وبعد ؛ فإن كثيرين يحلو لهم أن يعزوا فشلنا القومى إلى ضعف الرقابة البرلمانية على الحكومة . . ولكن أية رقابة هذه التى تتهمها بالضعف ، إذا كان البرلمان نفسه لم يوجد . . ؟

إن الحياة البرلمانية الحرة الطليقة المنتجة ـ لاتزال مقرونة بالسلاسل التى ذكرناها ، والتى نعيدها لك كى لاتنسى . .

(ا) القيود البرجوازية . .

(ب) نفوذ التفاتيش . وآلهة الاقطاع . .

(ج) إغراء الناخبين بالرشوة .

(د) الرغبة التامة فى التزييف .

(هـ) ضعف الأيمان بصلاحية الشعب للاختيار .

(و) الدوائر المغلقة . .

(ز) قوائم الترشيح ، وسيطرة العصبيات . .

وحدث نتيجة لهذا ، أن نظام « حكم الأسر » الذى كان قائما فى العصر البدائى وفى الامبراطورية الرومانية القديمة . صار هو الحكم القائم فى مصر . . !

فالذين يسيرون الانتخابات بأموالهم ونفوذهم هم حملة « السندات » وأبناء الذوات . . والبرلمانات عندنا لاتمثل الشعب كما تمثل الأسر الكبيرة ، والبيوتات الشريفة . . وإذا كان البرلمان هو الذى يثمر الحكومة استطعنا أن نعرف نوع الحكومات التى تتعاقب علينا . لقد طال بنا الجدل ، والخلاف حول لون الحكم فى بلادنا ـ أهو ديمقراطى . . ؟ أم هو أتقراطى ؟ ـ ولكن بعد استعراض الوضع النيابى عندنا على هذه الصورة لانشك فى أنه لاديمقراطى ـ ولا أوتقراطى

إنه شيء آخر استعرناه من القدم ـ هو بالأتقراطية أشبه ـ وأسمه يا أبناء وطنى ـ حكم الأُسر ..

ولقد كان الركود ، والإهمال أثراً محتوما لكل انتخابات تجرى على النمط الكريه الذى شاهدناه حيث تثمر ندوات أعيان .

خطر لى أن أقف على مدى اهتمام الأعضاء بحضور جلسات البرلمان ، ومددت يدى نحو الضابط أسألها وأستفتيها . فوجدت حشداً كبيراً من النظائر والأشباه لهذا الإحصاء الذى ستقرأه الآن ، وأنا أنقله إليك من مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الواحد والعشرين فانظر :

رقم الجلسة	نسبة الغياب
الرابعة	٥٤ شيخا
الخامسة	٣٠ شيخا
السادسة	٥٠ شيخا
السابعة	٤٠ شيخا

جلسات تعرض فيها سياسة الأمة ، ومشروعاتها .. ثم يغيب عنها خمسون عضواً ، أو أربعون .

كيف يحدث هذا ؟ وهل كانت مشاغل حضراتهم على ميعاد حتى يتغيبوا جميعاً ..

لعل حضرات الأعضاء حريصون على وقتهم ، فهم لا يضيعونها فى حضور جلسات لاجدوى لها ..

وتعقبت المضابط ، وواصلت البحث خلالها فوجدت أن الجلسات التى تنظر فيها المشروعات الجليلة الخطيرة المحرجة تظفر بنسبة كبرى من الغياب فى أحايين كثيرة .. وهنا يكون التغيب طبقا لخطة مرسومة لوقف المشروع وتعويقه حين يصير العدد غير قانونى ، أو فراراً من التورط فى مخالفة الحكومة ومعارضتها ..!

واللجان البرلمانية هناك غليظة الإحساس وبطيئته بحاجة الشعب وآلامه ولانكاد نلتمس دليلا لذلك حتى نفر من كثرة الأدلة وازدحامها . وحسبنا مثلا مشروع قانون تقدم به الشيخ المحترم — محمد خطاب — بشأن استمار الأراضى المستصلحة ..

أن قصة هذا المشروع قصة كثير من المشروعات الصريعة التى اتخذت من سراى البرلمان ضريحاً ..

وفى هذه الخطوات تثوى قصته . وقصتها ..

(١) قدم المشروع فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٥ .

(٢) عرض على خمس لجان — الاقتراحات ، المالية ، الشئون ، المالية مره أخرى . العدل رقم ٢ .

(٣) اختصر من ٤٨ مادة إلى عشرين مادة.

(٤) لا نزال المشروع تائها حيران ، منذ عام ١٩٤٥ إلى عام سنة ١٩٥١ ونحن نخط هذه السطور ، وقد حددت له جلسة يقترع عليه فيها من مجلس الشيوخ ولكن إحساسنا يرفض التفاؤل .. ونتوقع أن يرتطم المشروع فى صخرة .. أو يسقط فى حفرة .. لماذا . ؟

لنفس الأسباب التى جعلته يهمل ، ويدس فى الأضابير كل هذه الأعوام

وتتلخص فى أن المشروع شعبي يهدف إلى تحريم بيع الأراضى الحكومية التى تستصلح ، للمالكين . وبيعها فقط ، بوسائل ممكنة للمعدمين الذين لايملكون شيئا . !

لقد حدث أن كانت الحكومة تستصلح الأرض وتعدها للزراعة فيغتنمها بعض الكبراء والباشوات ويشتريها بأبخس الأثمان .. !

فيصادق مثلا — أن يشترى قارون كبير ضيعة واسعة من هذا الأرض بسعر الفدان الواحد عشرة جنيهات ليقتنيها ، أو ليبيعها بعد حين يسير بسعر الفدان الواحد سبعمائة جنيه .. !

فلو أن الناخب وجد الفرصة الواعية الحرة التى يختار فيها نائبة أو شيخه فاختارهم من الذين ينوءون بحمل أعبائه ، وبلوائه . لما مكث مثل هذا المشروع أكثر من أسبوع .

وإذا كنا نبغض الظروف التى تجعل الناخب مطية تسخر وتذلل ، فلايفوتنا أن نقول للناخب نفسه : أنت أيضا مسئول .

لماذا لايستعمل المثقفون حقهم فينتخبوا .

إن الاحصاء الرسمى ينبىء بأن الذين ينتخبون من عام — ١٩٢٤ — إلى اليوم هم الأميون من عمال وفلاحين ، وإذا ظللنا نحن الذين أخذنا من الثقافة بحظ . متخلين عن التزاماتنا قبل الحياة النيابية ، فهذه أحسن وسيلة ننتحر بها وتنتحر بها البلاد .

وأخيراً ـ الحرية .. لا التسامح :

نكتفى بها القدر من الحديث عن حريتنا السياسية ، وعن الحريات جميعاً ـ حرية النقد ، والفكر ، والمعارضة .

وبقى شىء يجب أن يختم به هذا الفصل ..

ولقد لاحظ القارىء أننا لانخص بحديثنا فى هذا الكتاب الشعب وحده ولا الحكومة وحدها . بل هما معاً . وهذا ثمرة اعتقادنا بأنه فى الامكان أن يقوم بين الحكومة والشعب تكافل صادق يحقق للجماهير كل أهدافها . ولكن

الحاكمين عندنا هم الذين لايريدون .. وحين يتفضلون بمنح الشعب شيئا من حريته ، فباسم التسامح والعطف ، لاالواجب والحق .

ونريد الآن تحديد مطلبنا بالحرية ، لابالتسامح، فالتسامح شيء يعتمد على الرغبة ، والتفضيل .. أما الحرية فحق محتوم .

والتسامح يثمر هبة يمكن استردادها .

والحرية تثمر حقوقا مكسوبة خالدة .

والحاكم الذى يمكننى من حــــق باسم التسامح يستطيع أن يسلبنى نفس الحق باسم التعصب ، ويوضح الفارق بين الحرية والتسامح ، رجلان كافحا من أجل الحرية كفاحا باسلا ــ هما توماس بين ، وميرابو .. يقول « بين » .

« ليس التسامح عكس التعصب ، بل هو تلفيق له . وكلاهما تحكم واستبداد فالتسامح يزعم لنفسه حق الحرية ، والتعصب يزعم لنفسه حق منع الحرية » [١].

ويقول ميرابو :

« إن الحرية تبلغ من القداسة حدا تبدو فيه كلمة التسامح كأنها نوع من الاستبداد ؛ لأن السلطة التى يتراءى لها أن تتسامح ، قد يتراءى لها أن تتعصب » .

هذا كلام جليل ، ويجب أن نؤمن أعمق الإيمان أننا ــ نحن الشعب ــ لن ننال الحرية . بل ولن نكون لها أهلا ، حتى تكون الحرية ــ لاالتسامح ــ المحور الذى تدور حوله حياتنا ، وتناط به وجهتنا . إن الحاكم الذى يتسامح مع أمته متأله دعى . وهو لايوجد إلا فى الأمم التى تسودها فلسفة البر والإحسان

(١) كتاب حرية الفكر ــ ج ــ بيورى .

والخيرات .. هنالك يتكىء على أريكته ، وينفخ أوداجه ، ويعلن أنه يمنح رعاياه وعبدانه مايجود به من حرية وحق . ! أما الحاكم الرشيد ، فانه يجل الحرية عن أن يبذلها كما تبذل المنح والصدقات .

إن « توماس بين » يصعد بالحرية إلى قمة الأجلال حين يضرب للتسامح هذا المثل ..

« لو أن أحداً قدم إلى البرلمان اقتراحا بمشروع قانون يسمح لله أن يتقبل عبادة اليهود والأتراك أو مشروع قانون يمنع الله من قبول عبادة اليهود والأتراك لكان ذلك تجديفا فى الله وكفرا به .. »

فهؤلاء الذين اتخذوا الحرية لهوا ولعبا — والذين يتجشأون كل يوم قانونا يسمح للشعب بنصيب ضئيل من حريته وقانونا يحرم عليه منها كثير لايقدرون الحرية قــدرها وهم يجدفون فى حقها ، وفى حق الشعب تجديفا وقحا عنيفا .

ومن أسف أننـا نحرضهم ـ أحيانا ـ على ذلك . فنحن فى تعاملنا المادى والأدبى نقيم هذا التعامل على أساس من التسامح لا الواجب ويبدو ذلك واضحاً فى مسائل العقائد والتقاليد والفكر . فأقصى مانسمح به لأنفسنا فيما يمس هذه — هو التسامح ، والتسامح كثيرا . ! ومنشأ هذا التزمت أننــا ضعفاء ، فاقدو الثقة بأنفسنا . وإذا كان فاقد الشىء لايعطيه فقد عجزنا عن الثقة بما فى الحقائق من قوة ذاتية تكفل لها الرغبة والبقاء ، ومن ثم جعلنا وسيلة حمايتها الاملاء ، لا الاقناع . . والتسليم لا الاقتناع ، وحرمنا الفكر حقه فى الحرية ، ومنحناه قليلا من التسامح . وبسبب هذا الغباء نضبت الحياة من تقاليدنا وأفكارنا .

ياليتنا نصغى لهذا النبأ ونعيه .

فقد ذهب إلى الرسول عليه السلام نفر من أصحابه ، وقد ذهبت ألبابهم روعا ومخافة وقالوا له :

ـــ يارسول الله ، إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة ، أيسر عليه من أن يتلفظ به .. مشيرين بهذا إلى ما كانوا يجدونه فى أنفسهم من شك عاصف فى الله ، كما وضحت ذلك رواية أخرى للحديث .

فأجابهم الرسول : الحمد لله .. ؟ هل وجدتموه ؟ هذا صريح الإيمان !
هنا رسول كريم يدرب الناس على الحرية ، لا التسامح .

لقد كان قادرا على أن يقول لهم : لا بأس ، عفا الله عنكم .. أو سيغفر الله لكم . وهذا هو التسامح ، ولكنه كان أكثر إجلالا للحرية . حتى حرية الشك ، والاسترابة فاعترف بها ، وجعلها محض المعرفة ، وصريح الإيمان . وكان بها حفيا . ! ذلك أنه يعلم أن الحرية حق للناس ، وأن تمتعهم بهذ الحق كاملا غير منقوص ، هو أفضل الوسائل لترقية إنسانيتهم ، وتعلية نزعاتهم وهدايتهم إلى الحق ، وتثبيتهم على الهدى ـ ويعلم أن احترام حرية البشر ينعش فيهم كل قوى الفضيلة والخير والجمال ، فلم يتسامح معها ـ بل سلم بها ، وزكاها

إن اليوم الذى يرفض فيه الشعب أن يساوم على حريته أو يتناولها من أكف التسامح ، والإحسان ـ لهو اليوم الذى يبلغ فيه رشده ويقف على قدم المساواة الفاضلة مع الشعوب الحرة ، والعالم المتحضر الكريم . وقبل أن ننهى هذا الدفاع عن الحرية نقول : إنه إذا كان فى تصويرنا الكبت الذى نعانيه مبالغة ـ فهى مبالغة طفيفة . وإذا كان فيه قصور ، فهو قصور كبير . !

ونحن على الحالين لاننسى أبداً تلك الجهود النبيلة التى بذلت منذ ثورة

«١٩١٩» فى سبيل الحرية ، وإذا كان الاستعمار الرجيم قد ثبط عزم هذه الجهود وضللها ، فلا بأس ، ولنبدأ من جديد .

ولقد تركنا الحديث عن نوع الحرية المرتبطة بغريزة الاقتناء إلى الفصل الثانى من كتابنا ـ من هنا نبدأ ـ فهناك يستبين لنا إعمارها وارتباطها الوثيق بحرية العمل وحرية الضمير .

إن غريزة الاقتناء يناط بها تحرير البشر من أغلال الضرورات .

وليس نشاطها كما ذكرنا فى حديث الفصل الأول خاصا بطبقة من الناس دون الآخرين . كما أنه لايعنى احتواش التفاتيش والضياع ، وأن اقتناء وسائل الحياة الكريمة لهو الضرورة الكبرى التى تهتف بها اليوم حضارة الإنسان .

وبعد ، هل نحن جادون فى نشدان الحرية ؟

إذن ، فلنوجد الشعب الذى يستطيع أن يتقبل أمانتها .

الشعب الذى تثق به الحرية ، ويثق بها .

الشخصية .. كي تعمل

« أن كل شيء مُعدّ ..
إذا كانت شخصيتنا كذلك »
« شكسبير »

القيصر الأخشيدى ..

هل ذهبت يوما لعيادة صديق لك فى مصحة الأمراض العقلية ؟
أم أن أصدقاءك كلهم من العقلاء .. ؟

لقد زرتها يوما لزيارة صديق . وإذ كنت سائراً فى وصيد المستشفى ، سمعت صيحة صاخبة تتعقبنى من وراء قائلة .

— هو .. خلفا دور . !

فلما التفت وجدت عملاقا ضخما طوله شهر ، وعرضه عشر . فسألنى :

— هل تعرفنى ؟ فأجبته : معذرة ، فإنى لم أشرف بمعرفتك من قبل .

قال : أنا القيصر الإخشيدى !

— مرحباً ، سيدى القيصر .

ثم سألنى : هل تحب أن أوليك إمارة . !

قلت : هذا شرف عظيم ياسيدى القيصر .

فضحك . وقال : (خلاص) سأعزل أحد ولاتى ، وأضعك مكانه ثم مد إلى ذراعين مجدولتين . وقال : تعال تقدم . !

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى هناك — إلى الولاية.. إنها فى المريخ وسأحملك بين يدى وتغمض عينيك ، وأقذف بك فى الهواء ، فيحملك إليها . !

قلت له : إذن ، فأعطنى فرصة للتفكير .. !!

وطفق يحرك سبابته فى الفراغ ـ كأنه يدير قرص « تليفون » — ثم وضع قبضته على أذنه ، وفمه . وشرع يهمهم ، ويصدر تعلياته باللاسلكى إلى المريخ . تاليا مرسوم العزل ، ومرسوم التعيين . . . !

ما أسعد هذا القيصر الذى استراح مما يشعب العقلاء . !

وما أشبه الجماهير به حين تركب ثبج الغفلة والغرور والانخداع ، فتخال نفسها كهذا القيصر الإخشيدى . تولى ، وتعزل ، وتضع وترفع ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء . . !

وما أظن المستعمرين ، والمستبدين يفرحون بشىء فرحهم للشعوب حين تصاب بهذه الآفة المسكنة والإخشيدية الواهمة . وهم حين يحسون بوا كيرها فى شعب - يعملون دائبين على شيوعها وإنمائها - لأنها تشفى قلوب الجماهير مما تجد وتسرب غيظها فى مسارب الأحلام ، وتحول طاقتها الهادفة إلى ضجة فارغة . وتحتبس طموحها المتسلق الوثاب فى قمقم هذه الأخشيدية السعيدة بجنونها ، وغرورها . .

ألا أن شعبنا الضرير يعيش فى الوهم ، ويقيم داخل أهابه - قيصر إخشيدى - من طراز قيصر المستشفى . .

ذلك الذى لم يعلم أنه قيصر زائف حتى أشرت إلى السلاسل التى يجررها فى قدميه ، والتى صفدوه بها لتثبطه عن الهرب ، وتصده عن الافتراس : وقلت له — لو كنت قيصراً حقا ، ماسلكوك فى هذه الأصفاد . ! والتى على أصفاده نظرة واجمة حائلة . ثم ضرب صدره بيده وقال :

— آه . . لا بد أنهم عزلونى . . أنا إذن قيصر مخلوع . !

قلت له ، وأنا أودعه : — نعم . . أنت قيصر مخلوع . !!

هنا مشابه كثيرة بين قيصرنا هذا ، وبين الجماهير ، ولكن الشبه الوحيد الذى يهمنا وجوده - هو ذلك الوعى الذى يرفع عن أبصارنا الغشاوة . لنعلم أننا شعب مخلوع ومعزول .

والآن فلنحرك أقدامنا ، فإن أحسسنا بهاثقلا ، وسمعنا قعقعة الحديد ، وقهقهة القيود ..، فلنعلم أنها الأغلال .

إن بداية البدايات فى نهضة الأمة أن تعرف نفسها ، وتتبين فى دقة ، وضعها ومكانها ، ولن تستطيع حتى تتخلى عن أوهامها وتواجه حقيقتها فى مرآة مجلوة لاتخفى من ملامحها شيئا . ثم تبدأ من جديد فى تكوين شخصية لها ، عاقلة ، عاملة ، نامية . وتبعة ذلك كله علينا وحدنا .. لن يصنعها أحد سوانا ، فلنصنع لأنفسنا ـ نحن الشعب ـ شخصية قوامها القوى الاجتماعية بعد تصحيحها وتنقيتها .

هذا هو الطريق :

وهناك حقيقة جديرة بالتذكر وهى أن الطريق الوحيد لأن ننهض .. هو أن نوجد ..

ووجود الشعب ـ معناه وجود قواه ، أو بتعبير آخر ـ وجود قوته الاجتماعية على حالة تمكنها من إمداده بالطاقة والحياة .

لقد تحدثنا عن الحرية ، ولما كانت الحرية تضن نفسها على الذين لايستحقونها فقد صار لزاما علينا أن نبحث عن المقومات التى تجعلنا لها أهلا ، والتى تجعل لنا قبل ذلك شخصية سوية ناضجة تقاوم المطامع ، وتملأ فراغها فى الحياة ـ وهذه المقومات والعناصر هى ـ القوى الاجتماعية التى لها من الحتمية والفائدة مايجعلها جديرة بالعناية والعمل من أجل حيازتها .

ينقل الأستاذ العقاد فى كتابه « فلاسفة الحكم » عن الفيلسوف « جايتا نومسكا » هذه العبارة الجليلة :

«إن الخير لا يتحقق فى الطبقة الحاكمة إلا بفضل القوى الاجتماعية ، والحصانة الشرعية .. والحصانة الشرعية هى الوازع المستمد من قدرة القوى الاجتماعية على مقاومة مطامع الحاكم الشخصية . »

***

إذاً فالقوات الاجتماعية هى السيف المعنوى الذى يلاقى الفساد ويتحداه .

وإذا كانت قوانا هذه التى سنتحدث عنها . تبدو اليوم سيفاً متقاصراً فلنعمل بوصية الأسبرطى الذى قلد ابنه سيفاً ، فهزه الغلام فى قبضته ، وقال :

— يا أبى . هذا السيف قصير .

فأجابه أبوه : تقدم به خطوة واحدة فسيصير طويلا . . ! فلنتقدم بقوانا خطوة ، مؤمنين بأن الظروف كائنة ما كانت لاتستطيع أن تعمل ضدنا على صورة شاملة ، ودائمة ـ إلا إذا أردنا نحن ذلك . . وأن مابنا من ضعف ليس علاجه مضاعفة أسبابه ، وإرباء مقوماته ، والضمور الماثل فى قوانا الاجتماعية يتطلب منا أن ننقل إليها من دمائنا لتنتعش ، لا أن نمتص مابقى فيها من دماء .

لقد سئل رسام شهير : كيف تخرج ألوان لوحاتك زاهية إلى هذا الحد . ؟
فأجاب : إنى أخلطها بدمى . !

فلنخلط قوانا بدمائنا ـ أى لنؤازرها بكل مانستطيعه من إخلاص وإنصاف وإنماء . ولنذكر مرة أخرى ـ أن حقوقنا ، كشعب ـ وأن الأمم فى نضالها الموصول ، ومسراها الكادح نحو الحرية تكتسب بالخبرة والتجربة مزية الاقتناع بنفسها ، واحترام العناصر المكونة لشخصيتها . . فإذا فقدنا هذه المزية اليوم ، وسخرنا قوانا الاجتماعية لغير صالحنا ، فقد تودع منا .. وليرحمنا الله .

والقوى الاجتماعية كثيرة — ولكننا نركز الحديث عن أهمها ،

وأكثرها اتصالا بقضيتنا ، وفاعلية فى حاضرنا ومستقبلنا — وهى :

(ا) القانون . .
(ب) الصحافة . .
(ج) الأحزاب ..
(د) القيم والمعايير . .

ولنتحدث عنها واحدة واحدة .

ا — القانون . .

القصد .. والشمول

أول القوى الاجتماعية التى تتكون منها شخصية الشعب قانونه .

والقانون حين تكون النزاهة والقصد لحمته وسداه ـ فإنه يصير مثابة الأمة وأمنها ، وعامل رقى وتقدم فيها . أما إذا تجانف لهوى وعدوان ، فإنه يكون آفة الأمة وكارثتها الماحقة ، ويحق عليه ذلك المثل الأسبانى الطريف :

— أذاهب أنت إلى القانون لتشكو إليه سرقة شاتك .. ؟
ـ حسن .. ستعود . وقد سرقت بقرتك أيضاً ؟

القانون لكى تتم نعمته على الناس يجب فى نظرنا أن يلتزم أمرين : القصد ، والشمول

أما القصد ؛ فيقتضينا ألا نسرف فى وضع القوانين ؛ لأنها غالباً ماتكون على حساب الحرية ، بل وعلى حساب النظام الذى توضع لحمايته

وإنا لنرجو أن يجد حكامنا جميعاً الشجاعة التى تحفزهم إلى الاعتراف بأنهم أسرفوا على أنفسهم ، وعلينا فى إصدار القوانين ، ولعلهم قد فاتهم أن قليلا

من القوانين نطبقه ـ خير من كثير نبرم به ، ونعقد عليه .. وفاتهم أيضاً أن القانون ليس الوسيلة الوحيدة لتربية الشعوب ـ بل لعله آخر الوسائل جميعا .

ولنضرب لذلك مثلا .

منذ شهرين[1] تقريباً قامت بمصر حركة اضرابات واسعة ، حتى لقد أضرب الأزهر اضرابا جماعيا اشترك فيه شيخ الأزهر وجماعة كبار العلماء .. فرأت الحكومة أن تعالج هذه الحركات بقانون يزجرها ، ويفتح أبواب السجون للمضربين ، والمحرضين .

وفى فبراير الماضى سنة ١٩٥١ ـ أضرب سبعون ألف عامل فى جنوب بلجيكا ـ كما نشرت الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ / ٢ / ١٩٥١ وطالبوا برفع أجورهم ٥ ٪ ، فلم تستصدر الحكومة قانونا مماثلا للقانون الذى أصدرناه ـ بل أجابت مطالب العمال . . ! وفى نفس ذلك الحين ، أو قبله بقليل . أضرب عمال السكك الحديدية بأمريكا .. أضربوا وجيشهم المحارب فى كوريا يتدحرج فى مجاهلها ، ويقاتل ، ويتلقى الضربات الشداد مما يجعل الاضراب حائنذ جريمة وخيانة ـ فماذا فعل ترومان . ؟

تجيبنا جريدتا الأهرام والمصرى بتاريخ ١٩٥١/٢/٩ « إن المضربين حنثوا فى كلمتهم مع الحكومة ، ونقضوا اتفاقية عدم الأضراب . كما لو كانوا حفنة من الروس » . . !

هذه هى النكتة المرحة التى استقبل بها « ترومان » الاضراب والمضربين ونقلتها عنه صحافتنا .

---

(١) عام ١٩٥١

وماذا فعل أيضاً .. ؟

عندما ازداد الاضراب اتساعا وخطراً ، أمر بفصل الذين لايعودون إلى أعمالهم ـ ولـكنه قبل ذلك أمر برفع أجورهم فوراً .. بل وجعل الزيادة الجديدة تبدأ من عام ١٩٤٨ !

أفلم يكن « ترومان » قادراً على تحريم الاضراب بقانون ؟

نعم : وكذلـكم كانت بلجيكا قادرة .. ولـكن مثل هذا القانون يعتبر تحديا لـكرامة الشعب ، وإهدارا لحريته ، وهو أمر لايقدر عليه «ترومان» ولو أوتى بسطة فى الحـكم .. وبسطة فى النفوذ .. ! نحن لانشجع الاضرابات وليس هناك فى عالم العقلاء من يشجعها ـ فهى تشل حركة الأمة ، وتهدر من عمرها وقتاً نفيساً بلا إنتاج ولا عمل .. ولـكننا نرفض أيضاً ، أن نعامل معاملة العبيـــد الذين تشهر دائماً فى وجوههم السياط .. ! وثقوا أن هذا السرف فى التقنين يفقد القوانين قيمتها ووقارها ، ويؤلب عليها الناس الذين ينظرون إليها آنئذ نظرة فيها مقت وعداوة ونحن حريصون على كرامة القانون وسيادته حين ندعو إلى القصد والاعتدال فيه حتى نتيح للمجتمع فرصة حبه واحترامه ـ فالأسراف فيها فوق أنه يصورنا أمام العالم أمة تعيث فيها الفوضى والهمجية ، يبذر فى النفوس بغض القوانين برمتها ، ويحفز المجتمع إلى التحايل عليها ـ وإذا تـكونت فينا عادة التحايل فقد فقدنا كل أمل فى امتثال القانون ولو كان عادلا وفاضلا ..

أو يظن الحاكمون أن القوانين على كل شىء قادرة .. ؟

فلنأخذ العبرة من قانون الاضراب الأخير .. لقد توعد بالعقوبة المحرضين فهل اختفى التحريض . ؟

كلا ـ فقد نشرت جريدة الأهرام بعد صدوره بيومين أو ثلاثة وبخط بارز

مثير «سبعون ألف عامل يضربون» وساقت أخبار الاضراب البلجيكى بأسلوب فيه إغراء كثير . .

وكتبت كذلك « أخبار اليوم » على أثر صدور القانون بعنوان « الأزهر يواجه مشكلة جديدة» ! . وصاغت الخبرصياغة محرضة مشعلة دون أن يستطيع القانون معها حسابا ـ فقالت :

« . . وسيترتب على ذلك حرمان ١٢٠٠ متخصص من الأمل فى الترقى إلى الكليات . . وقد علمنا أن هذا الموضوع سيثير أزمة جديدة فى الأزهر » !

إن هذه الكلمات مثيرة للأزهريين لاشك ومع هذا فقد قيلت على سمع القانون وبصره ثم لم يملك إزاءها شيئاً . ولقد كانت صحافة الوفد تلعب نفس اللعبة وهو فى المعارضة . فعندما وقف صدقى باشا بمجلس الشيوخ فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ يدافع عن تصرفه فى إلغاء جريدة « الوفد المصرى » قال : إنها تدعو إلى الثورة ، بطرق ملتوية وتلا منها هذه الفقرة :

«إن البلاد فى ثورة ، والثورة لن تخمد مادام فى الشعب المصرى دم يجرى ، أو عرق ينبض . . ـ تنتهى اليوم المهلة التى طلبها صدقى باشا من وفد الطلبة حين قابلوه وطلبوا منه مطالبهم القومية . . ترى ما الذى أعده صدقى باشا وقد أجابه الطلبة إلى رغبته . . لقد انتهت المدة . . فماذا فعل . ! ؟ »

إن القانون فى بلاد الأحرار خادم عاقل . وفى بلاد العبيد سيد مستبد . وليس يكفى أن نزعم أننا أحرار ، فللحرية سماتها وعلاماتها ولقد قال حكيم : « أرونى قوانين أمة من الأمم ، وأنا أدلكم على نصيبها من العظمة ، أو الانحطاط . . »

وهذا حق ، حق جداً . . لأن الدولة التى تصاب بإسهال تشريعى تكون

دولة غير طبيعية ، ودولة عاجزة ، وهى لاتلبث حتى تستمرىء هذه العادة الرديئة ، فتصنع كما صنع الحاكم بأمر الله حين وضع القانون فى خدمة «الملوخية» يبيحها أول النهار ، ويحرمها آخره .. !

وكثيراً ما تجىء هذه القوانين مخالفة للدستور ، فى نصه وروحه . وكثيراً ما تكون مرنة لاترديد لامس ، فتفسرها السلطة التنفيذية تفسيرات مردية . . قال مثل هذا القول نواب محترمون فى جلسة ١٩٤٨/٤/٢١ ــ وكانت الحكومة تعرض مشروعا جديداً تعدل به نصوص القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٤٧ ، الخاصة بمعاقبة من يحبذ أو يروج المذاهب التى ترمى إلى تغيير مبادىء الدستور الأساسية ، أو النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالعنف ، أو الأرهاب أو بأية وسيلة أخرى غير مشروعة ــ وأرادت الحكومة يومئذ أن تفسح دائرة هذه المادة بإضافة المواد ــ ٤٨ ا ، ب ، ج ، د ، هـ ، التى أضيفت فعلا . .

فوقف بعض النواب صارخين . محذرين من عواقب هــذا الأفراط ــ ولا من يسمع أو يعتبر . ! ومع هذه الأضافات الزاجرة وجدنا النشاط الذى وضعت تلك المواد لمطاردته ينمو وينتشر .. فماذا صنع القانون المسرف على نفسه وعلى الناس !

والآن لنستمع إلى كلمات هؤلاء النواب المحترمين[1]

حضرة النائب المحترم الأستاذ حنفى الشريف قال :

« إنه يعارض مبدأ هذا التشريع لأنه لو كان فى مصر حزب شيوعى يعمل علنا . لكان فى وسع الحكومة أن تحكم الرقابة على أعضائه ، وأعماله ، وصحفه .. ثم قال :

(١) مضابط مجلس النواب جلسة ١٩٤٨/٤/٢١ .

إن قيام هذه القوانين قد أدى إلى قيام الخلايا السرية التى تعمل الحكومة جاهدة للقضاء عليها ـ وقال :

« إنه يطالب الحكومة بأن تدع حزبا شيوعيا ينشأ فى مصر ، فإن ذلك أبيح فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا .. وإن هذه المذاهب تدرس فى الجامعة ، ويمتحن فيها الطلبة ، وقد يكون من بينهم من اقتنع بها واعتنقها ، وأن محاربة هذه المذاهب تجعل الجمهور يظن أنها صالحة لكن الحرية لو تركت تنظم نفسها .. »

وقال النائب المحترم على راتب :

« أنه يوافق الحكومة كل الموافقة فى أن تفرض ما تشاء من عقوبات على من يحاولون بالقوة أو الأرهاب تغيير أصول الحكم .. لكنه لا يوافقها مطلقا على الحد من حرية الذى يفكر ، أو يكتب .. »

وقال النائب المحترم فكرى أباظة :

« إن التشريع المعروض يخالف الدستور ، والمواثيق الدولية التى ارتبطت مصر بها ـ وأنه يتعارض مع أحكام المواد السابعة والرابعة عشرة والعشرين ، والسادسة والخمسين بعد المائة من الدستور . »

ومضى يتساءل : ماذا يعنى المشروع المعروض بمحاولة سيطرة طبقة على أخرى ، وما هذه الطبقة . ؟

أهى الارستقراطية . ؟ أم الوسطى ، أم الشعبية ؟ ! »

ولكى أدلل على مرونة القانون وتميعه ، وهى مرونة ضد المتهم غالباً خاصة فيما يتعلق بالحرية ، أذكر تجربة شخصية لى .

فقد اتهمت فى كتاب ـ من هنا نبدأ ـ بتهم عدة .

وكان منها الدعوة للانقضاض على الدستور ، وتغيير المبادىء الأساسية للهيئة الاجتماعية ، وكان تكييف الاتهام فى التحقيق على هذا النحو ..

إنى ، وإن لم أكن قد دعوت إلى استعمال القوة .. إلا أننى روجت لمذهب قام فى بلاد أخرى بالقوة ..

يا سبحان الله . ! إذن ، فالترويج للاســـلام جريمة لأنه قام فى بلاد كثيرة بالقوة ..

والترويج للاستقلال جريمة لأنه لاينال إلا بالقوة .

والترويج للحرية جريمة لأنها انتصرت فى بلاد أخرى بالقوة .؟

وهكذا تطلق الحكومات ، القوانين فى أعقاب المواطنين لتنال منهم شر منال . وكل جائع يقول اليوم : يا كبدى . ! شيوعى،وكل كاتب مخلص شيوعى وكل ذى شكايه ، ومظلوم .. شيوعى وحكام اليوم ، كانوا شيوعيين فى نظر حكام الأمس . وحكام الأمس : شيوعيون فى نظر حكام اليوم ، وكلا الفريقين ، شيوعى فى نظر حكام الغد :

والجانب المضحك فى هذه المأساة يجعلنا أقرب الناس شبها بجحا ... لقد أراد أن يتخلص من مضايقة بعض الغلمان له ، فدلهم على عرس موهوم ثم عاد المسكين ، فصدق نفسه ، وانطلق يعدو وراء الغلمان نحو أكذوبته التى صدقها !

وإننا أيضاً ، نضع القوانين أحيانا لنلتمس بها للأبرياء التهم والعيوب ، ثم نعود فنصدق أنهم حقا متهمون ، ! !

والجانب المزعج فيها ـ أن كل حكومة تلى الحكم تشرع القوانين التى تحميها ، وتبقيها ، كأنها من الخالدين : ! وتتعمد أن تجعل لكل قانون باباً كبيراً يتسع لمدخل كل من تستضيفه حيث يفضى إلى دهاليز من ورائها السجون والظلمات . !

ومثل ذلك ، وما أكثر الأمثال ـ ماتجده فى مؤخرة المادة ١٩٨ ، ب، ج ، د ، ه ـ وهو ـ !

« .. متى كان استعمال القوة أو الإرهاب أو أية وسيلة أخرى غير مشرعة ملحوظاً فى ذلك .. »

أما القوةوالأرهاب ، فحسن هذا ، ولكن ما مدلول عبارة «أو أية وسيلة . أخرى غير مشروعة » . ؟

وإن كل وسيلة مشروعة تستطيع الحكومة . والبوليس معها أن يلبساها لباس اللامشروعية والجريمة . ثم يقدماها للقضاء بهذا الوصف الزنيم وكيما تزداد المسألة وضوحا نستشهد أيضا بالمادة (١٧٦) عقوبات .

وهى : « يعاقب بالحبس مدة لاتتجاوز سنة ، وبغرامة لاتقل عن عشرين جنيها ، ولا تزيد عن مائة جنيه ـ أو بإحدى هاتين العقوبتين ، كل من حرض على بغض طائفة أو طوائف من الناس ، أو على الازدراء بها .. إلخ » .

إن الغموض الشائع فى عبارة « بغض طائفة ، أو طوائف من الناس » غموض مقصود ، وهذه العبارة على ضآلتها بئر لاقاع له يستطيع أن يبتلع فى لانهائيته الشعب كله ثم ينادى فى سعار وجشع : هل من مزيد . ؟

بغض طائفة من الناس .. ؟ أى طائفة تمنحونها هذه الحماية . ؟

هبوا اللصوص ألفوا لأنفسهم نقابة ، ودعونا مثلما دعا الله إلى بغضهم أنكون آثمين . ؟

سيقولون : لا .. ومن يدرى ـ ربما تكون نعم . !

وهبونا ازدرينا روح الجشع السائب المتبدى فى تصرفات آلهة الإقطاع الذين لا يسهمون مع الحكومة ولا مع الشعب فى تحقيق آماله ـ أنكون آثمين . ؟

ـ سيقولون : نعم . !

لقدحدث هذا فعلا ، وأنى لأعرف كاتباً ـ لعله أنا ـ أرادت النيابة أن تفتل له من هذه المادة قيداً غليظاً ، ووجهت إليه تهمة التحريض على بعض طائفة من الناس ثم تبين أن هذه الطائفة هم الإقطاعيون . !

أى فارق بين رجل يسرق حذاء ، وآخر يسرق تفتيشاً . ؟

أى فارق بين رجل يقتل فرداً ، ورجل يقتل شعباً . ؟

بل أستغفر الله .. فإن الفارق عظيم جد عظيم .

إننا نريد أن نحب قوانيننا ، ونحترمها . لأنها تمثل العقدة الحيوية فى شخصية الشعب ، والطريق لهذا أن تكون مقتصدة واضحة تشرف الحكومة التى تضعها ، والشعب الذى يلتزمها .

واسمعوا مايقوله « توماس بين » .

« عندما تستطيع دولة أن تقول إن فقرائى سعداء لايشكون عسراً . .

« وسجونى تصطفق أبوابها لاتجد من تؤويه . .

« وقوانينى رفيقة لا تكلف المواطنين حرجا . .

« عندئذ فقط تستطيع أن تفاخر بدستورها وحكومتها . . »

الشمول بعد القصد :

وإذا انتهينا من الحديث عن وجوب الاعتدال والقصد فى قوانينا ـ نمضى متحدثين عن وجوب شمولها وبسط نفوذها . لقد وفد على عمر بن عبد العزيز وفد بعض البلاد ، فسألهم : ـ كيف تركتم الناس .. ؟ قالوا تركنا فقيرهم موفورا ، وعاتيهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً .. فقال : الحمد لله لو لم تتم واحدة من هذه إلا بعضو من أعضائى لكان عندى مرضيا . . ؟

بهذا الروح الكبير حمى ابن عبد العزيز سلطة القانون من أصحاب النفوذ والمؤهلات الخاصة .. ورعى الذئب فى عهده مع الغنم دون أن يمسها منه حيف أو عدوان . . !

وحمل عمر بن الخطاب عصاه فى يده ورفعها إلى أعلى . ثم حمى الله بعالى وهوى بها على ظهر ابنه وولده وقال : أفى كل يوم تأكل اللحم ، والناس جياع ..؟ كل كما يأكل أبوك . يوما خبزا وزيتا .. ويوما .. خبز وملحا .. ويوما خبزاً وماء . . !

ووقف أبو بكر يوم ولى أمر الناس ، ووقف التاريخ تجاهه يتلقى من بين شفتيه القسطاس المستقيم :

« القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ــ والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له »

فيا أيها الذين تلوذون بالإسلام . .

ويا أيها الذين تحتمون به عندما تتململ الشعوب الخاضعة . .

ويا أيها الذين تتظاهرون بالخوف عليه من أولى الناس به .

هذا هو الإسلام ، وهذا هو احترام رجاله للقانون ، ولقد استمعنا من قبل إلى الملك وهو يلقى على وزيره خطابه التقليدى . أيام المصريين القدماء فيقول له:

« إذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء .. واعلم أن المحاباة بغيضة إلى الاله : وانظر إلى المقربين للملك ، نظرتك إلى البعيدين عن بيته .. » ــ إن سيادة القانون ضرورية لسيادة الأمة ــ والويل لمجتمع ينكمش قانونه أمام سادته وكباره . عندئذ تشيع فى شخصيته الفوضى والاضمحلال والاستهتار : وإنا لنمر فيما نقرأ عن الدول الأخرى بمشاهد تبهر الأبصار .

حدث يوما — وهذه قصة ترويها أخبار اليوم بتاريخ ٥ / ٧ / ١٩٤٧ — أن تزوجت بنت ستالين ، ورجت أباها أن يهيء لها سكنا تستأجره فرفض حتى يحين دورها — كبنت أى كناس يكنس الشارع ويحمل القمام .. !

وعلم بعض الوزراء فجمعوا المجلس سرا ، وقرروا تسليم بنت المارشال ستالين شقة ذات غرف ثلاث . !

وحدث أيضا — أن عاد ابنه الأصغر من ميدان القتال مزهواً بالنصر فانطلق بين حانات موسكو ومراقصها مفتونا بشبابه وحسبه : فأصدر « بريا » وزير الداخلية أمره بأقصائه فوراً إلى قرية نائية لمدة عام كامل ..

وسمع « بريا » أن الفتى ساخط على هذا القرار ، فاستدعاه وقال له : — لقد أصدرت أمرى هذا رحمة بك قبل أن يتدخل أبوك فى أمرك .. وأنت تعلم جيداً أنى لو أحلت الأمر إلى أبيك ما كان جزاؤك أقل من النفى خمس سنوات كاملة ..

ويوم أحب ملك الإنجليز .. « مسز سمبسون »

أى ذنب جناه حين أحب .. ؟؟

لكن لبلاده تقاليد أقدس فى قلوبهم من القانون ..

ألم يكن الملك بقادر على أن يحطمها .. ؟

لا — إنه لا يستطيع .. لأنه يحترمها .. ولقد تخلى لها .. وترك عرشا يطل من فوقه على دنيا سعيدة مديدة .. وحمل عصاه على عاتقه ، ومضى يشخص فى أرض مجهولة ، رضى النفس مقتنع الضمير .

لقد احترم فى اللحظة المغرية الحازمة أمته واحترم تبعات الملك وشعائر البلاد

وماذا أقول .. ؟

إن التاريخ مفعم بالامثال يضربها للناس ، ولكن أكثرهم لا يعقلون .

دعوا القانون يسد ويسيطر .. فإذا سرق الفقير رغيفاً وأدخل السجن وسرق الكبير دولة ، فليدخل السجن أيضاً .

أما أن ننحنى أمام إثمه وسرقاته ثم ننشد :

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب
الله يعطى من يشا ءُ فقف على حد الأدب

فهذا هو — سوء الأدب .

لقد علم عمر بن الخطاب أن عمرو بن العاص داهية العرب ومن وجهاء قريش وكبرائها قد فشت له فاشية من الأبل والمـال: فأرسل وراءه من يحاسبه الحساب العسير ويقاسمه جميع ثروته ـ حتى إذا انتهى منها جميعاً قال :

— أين نعلك ياعمرو .. ؟

فاجاب عمرو مبهوتا — لم . ؟ فقال محمد بن مسلمة رسول عمر : — لنا واحدة ، ولك واحدة . !

لم يقف جاه عمرو ، ولا دهاؤه ولا قوته دون القانون وهو فى طريقه إليه بل بلغ منه المبلغ الذي يريد .

إن من الخير أن نعترف فى شجاعة بمحنة القانون فى بلادنا ولـكن الحق أن الحـكومات ليست وحدها سبب هذه المحنة ـ بل نحن معها . . ونحن قبلها .

ففى سلم السلطة التنفيذية من أدنى ، يوجد كثيرون من الموظفين الذين لا يحترمون أقل احترام ، التزاماتهم إزاء الدولة والقانون والشعب ، وهم يعرفون أنفسهم كما يعرفون خطاياهم .

أولئك الذين يعطلون تنفيذ الأحكام من أجل رشوة حرام ، وأولئك الذين يضللون القانون عن جناية وجانيها من أجل دراهم معدودت .

وأولئك الذين يحرفون القانون عن مواضعه تحقيقا لغرض . . أو استجابة لشهوة . !

فلنؤد واجباتنا نحو القانون فى ذمة وشرف وليبذل الحاكمون من ذوات أنفسهم مزيد احترام للقوانين ، فيعمموا تطبيقها ، ويعلنوا سيادتها : . ومزيداً من الفهم لحكمة مشروعيتها ، فلا يسرفوا فيها .

وليمكنوها من سكان القصور ، وأبناء الأكرمين .

ب ـ الصحافة ..

« .. وعندما أغلقت بابى وراء رئيس الوزراء ، دق جرس الورد « بيفر بروك » صاحب جريدة الديلى اكسبريس ، وقبل أن أروى له مادار بينى وبين المستر بلدوين قال لى :

ـ لقد ضاع الأمل الأخير فى المحافظة على هدوء صحف لندن لقد قرر رؤساء تحرير الصحف أن ينشرو تفصيلات الأزمة التى بينك وبين الحكومة ووضعت الساعة ، وشعرت بأن الدنيا بدأت تظلم فى وجهى . ولما نظرت إلى ناحية مطابع « فليت ستريت » شعرت كأن سحبا سوداء تخرج من هذه المطابع ، وتتجه إلى قصرى . لقد كان يوما سيئا . . !

« وقد كنت أتوقع أن تتحدث الصحف عن الأزمة فى صراحة مؤلمة ولكنى لما قرأتها فى صباح اليوم التالى شعرت بذهول ثم باشمئزاز .

« هل يمكن أن يكون هـذا الذى يتحدثون عنه هو الملك . . أو أنه ـ هلفوت ـ عادى .. ؟

« حقاً إن الصحافة تستطيع أن تخلق ، وتستطيع أن تهدم . . » !

ليس هناك أروع من هذه الكلمات لنبدأ بها حديثنا عن الصحافة ـ والصحافة هي أعصاب الوعي في أمتها، وهي من أهم إن لم تكن أهم عناصر الشخصية الشعبية وأن لها حقوقا ، وعليها واجبات .

فأول حقوقها ـــ الحرية الكاملة .

١ ـــ حرية الأنباء . وتشمل حرية التلقي ، وحرية الأداء .

(ب) حرية الرأي والنقد والمعارضة . .

وحين نفاضل بين عهد وعهد نجد أقومها طريقة هو الذي يهبط فيه منسوب الاضطهاد . وليس الذي يبرأ برءا كاملا من هذه الآفة الخبيثة .

وفي يوم ١٧/٩/١٩٥٠ ـــ نشرت جريدة المصري حديثا (لمعالي) وزير الداخلية وازن فيه بين ماذا . . ؟

بين عدد مرات المصادرة في عهده، وعددها في غير عهده من العهود ـ فقال:

« بلغ عدد القضايا الصحفية في سنة ١٩٤٦ ـــ ٢١٣ قضية »

وبلغت عدد الكفالات المدفوعة من الصحفيين المتهمين ـــ ٢٧٦٥ جنيها .

« وحدث أن جريدة واحدة هي البلاغ، تعرضت خلال أربعة أشهر لأربعة عشر تحقيقاً . وحبس عشرة من الصحفيين دفعة واحدة فيما نشره المصري بشأن الاقتراح الكولي . . »

« وفى عام ١٩٤٥ ، أثناء الأحكام العرفية — بلغ عدد القضايا الصحفية فى ثلاثة أشهر فقط هى أكتوبر ، ونوفمبر ، وديسمبر ـ ٣٧ قضية صحفية وجملة الكفالات ٤٠٠ جنيهاً ، على الرغم من وجود الرقباء الذين كانوا يحذفون كثيراً كما يشاءون » ثم ذكر معاليه — عدد القضايا الصحفية فى سبعة أشهر من عهده وهى المدة الواقعة بين أول يناير سنة ١٩٥٠ ، وآخر يوليو سنة ١٩٥٠ وكانت (٣٢) قضية . . . !

لا جرم أن الأرقام التى ساقها (معاليه) خاصة بالسنوات الماضية أرقام بشعة مزلزلة . ولكن مادلالة هذه الموازنة فى معناها العميق . . ؟

دلالتها أن مضايقة الصحافة ، وإيسالها ، ومصادرة حريتها قائمة فى هذا العهد وفى غيره من عهود . وأن الفارق بين عهد وآخر ـ ماثل فقط فى الكم والعدد . .

ونحن نعلم أن العدد فى هذا الأمر ، مسألة زمن . .

فإذا كان محصول الحكومة القائمة فى سبعة أشهر (٣٢) قضية ، فكم يكون المحصول فى خمسة أعوام . ؟

لقد ذكر معاليه أن مجموع الكفالات التى دفعتها الصحف المضطهدة عام ١٩٤٧ ، هو (٢٢٠٠) جنيها .

فما قوله ـ دام فضله — فى أن داراً واحدة من دور الصحف هى « دار أخبار اليوم » قد بلغ مادفعته وحدها من كفالات — ١٢٥٠ جنيهاً فى أسابيع معدودة . . ؟ !

إننا بهذا النقاش لا نهدف إلى إحراج وزير ، أو التشهير بحكومة معينة ، فنحن من بداءة رحلتنا فى هذا الكتاب نلقى اللوم دائماً على روح الحكم

وسلائقه وطرائقه . ، أما الأشخاص فلا . . لأنهم زائلون . أين تقدير حكوماتنا للصحافة من تقدير ذلك الملك العظيم السابق الذى شعر كأن سحباً سوداء تخرج من مطابع الصحافة وتتجه نحو قصره . . ؟

ثم أين احترام صحافتنا لواجبها ، ولقارئها . . ؟

إن للصحافة فى توجيه الرأى العام أثرها البليغ . فهى قادرة على هدايته وعلى إضلاله . . وبقدر ما تقدم له من عون ، تقدم لنفسها أيضا — فكلاهما للآخر قوة ومساك . .

ولعل صحافتنا تجد من الشجاعة ماتصغى به لهذه الحقيقة وهى — أن الأخلاق التجارية تسيطر عليها أكثر مما يسيطر الواجب الأدبى . . ! وقد يكون عذرها حاجتها المطردة إلى الربح والمال. بيد أن ذلك مستطاع ميسور مع الاحتفاظ بالمعنويات الفاضلة التى تجعل منها فى بلادها قوة هادية . .

إن الروح التجارى هو الذى يدفع الصحافة أحيانا إلى الإسراف الشديد فى الولاء ، لتظفر بقلب الحكومة وجيبها .

وهو الذى يدفعها حينا آخر إلى التطرف فى الشنآن، لتظفر بعواطف الجماهير التى تسارع بحكم طبيعتها إلى البغض أكثر مما تسارع إلى الحب . .

وأمامى الآن ركام هائل من الصحف المملوءة بالمتناقضات وسأمد يدى ، وأتناول عفو الصدفة صحيفة منها . . ثم نقرأ فيها معاً . . ونبحث بعد ذلك عن عدد آخر من نفس الصحيفة يكون قد صدر فى عهد آخر — ولننظر . .

« . . وإذا كان المنادون بالحريات — يريدون أن تنصرف الحكومة عن واجبها فى صيانة النظام ، ليعيثوا به ، ويسخروا بعض « الصعاليك والمفتونين »

لتنفيذ أغراضهم الخبيثة ، وجعل مصر مدينة مفتوحة للشيوعية والفوضى .. فليبحثوا لهم عن « لعبة » أخرى قبل أن ينفض السرك وينصرف عنهم المتفرجون » .

أقرأتم هذه السطور ..

اقرأوا مرة أخرى كلاما آخر قالته بعد ذلك بعام واحد من عمرها المديد .

« .. افتحوا أبواب السجون التى ملئت بشبابنا المثقف متهما بالشيوعية

والله يعلم أنه ليس فى مصر شيوعيون سوى أولئك الذين يقضون حياتهم بين سهرات الشتاء الحمراء بمصر وسهرات الصيف الحمراء بباريس . »

إن الحرية هى .. هى — لم تتغير .

وحركة اضطهادها تسير على الدرب المرسوم . . فما سر التناقض فيما كتبته الصحيفة . وفيما تكتبه زميلاتها الكريمات ؟

إن الاتجاه النفسى تغير فتغير معه كل شىء . ، والجماهير القارئة هى التى تدفع ثمن هذا العبث من أعصابها وسكينتها ، ونهاها . .

إننا بالأشواق إلى ذلك اليوم الذى نسمع فيه عن صحفى مصرى — طرق أحد الكبراء بابه . . وقدم له « شيكا » بمائة ألف جنيه مساوما به على مصالح الشعب . . فيصنع كما صنع الصحفى الانجليزى . . ويدعو حاجبه لاصطحاب الكبير المحترم إلى الباب — لأنه يجهل الطريق . !

إن الصحافة هى الرئة التى تتنفس بها الشعوب ، وتصوروا لو أن رجلا ذا جاه ونفوذ ومال — استأجر رئتى أنا — لتتنفس لحسابه ، لا لحسابى ، كم لحظة من العمر أستطيع بعدها أن أعيش . .

لقد كان « أمرسون » صادقا حين قال : الصحافة الحرة رسول من قبل الله الشعب . نعم — إنها لكذلك . .

فهى التى تكشف عن بصره الغشاوة ، فيرى ، وتزيح عن آذانه الوقر ، فيسمع ، وتمزق عن وعيه الحجب . فيدرك كل شىء ويعيه .. إنها القوة التى تحيا بها الأمة .. وتموت أيضاً ..

ونحن ندعوها إلى العمل وفق تبعات هذه المكانة السامية التى بوأتها الحضارة إياه .

ج — الأحزاب ..

التعدد . . لا الوحدانية . .

عندما يغم الطريق أمام أمة من الأمم ، وتغشاها غواشى المسكنة والذل — وتكون قد عاشت أمدا طويلا فى قبضة الجبارين ، فأنها تحن دائما ، وتنزع إلى شىء غير قليل من التخضع والتخشع . . والارتماء فى أحضان سيد . . ليس له صنو ولا شريك .

وهذه هى العقبة الكأداء التى تعانيها الديمقراطية وهى فى طريقها إلى ضمائر هذا الطراز من الجماعات . إن هذا الضمير لايزال يبحث عن جبار جديد بعدأن اصطنع له اسما آخر يهواه ويطيقه — كأن يسميه مثلا — الحزب الواحد .. المستبد العادل . . الشورى غير الملزمة .. ولعل الشرق كله لايزال يردد فى إيمان ونشوة الكلمة المعزوّة إلى السيد جمال الدين الأفغانى : « لن يصلح الشرق إلا مستبد عادل » .. !!

وقد يكون « جمال الدين » قائل هذه العبارة — وقد تكون من صنع أحد المعجبين به ، وبالمستبد العادل .

أصحيح هذا . أيمكن أن يكون الحاكم مستبداً وعادلا معا . ؟

كنا نقرأ فى الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ، وهى غير صحيحة .

— «أن لله ملكا نصفه من ثلج ، ونصفه من نار ، فلا الثلج يطفىء النار ، ولا النار تذيب الثلج . ! »

إذا كان فى الإمكان وجود مستبد عادل ، فهو هذا . !

نريد أن نقول لجماهيرنا التائهة — هذا هراء . !

والرجل الواحد . والحزب الواحد — استبداد وإفك ودمار .

لقد آمنت قبلا بالرجل الواحد وبالحزب الواحد . أيام كنت أؤدى للآخرين تحية العوام . كما يقول «أسكار وايلد» — «التقليد تحية العوام لأصحاب العبقرية» . أديت هذه التحية يوما لأناس طيبين ليسوا على أى حال متهمين بالعبقرية ؛ فلما بدأت أفكر لنفسي وعيت شيئاً جديداً .

وأستطيع الآن أن أتصور — وتستطيع أنت أن تتخيل معى ساعة جلسنا إثر صلاة الفجر نستمع لموعظة — وكنت يومئذ أومن بالرجل الواحد فى جماعة دينية . جلس الشيخ يعظ — فقال :

من قال لشيخه لم . ؟ فقد حرم بركته .

قلت للشيخ يوما . إن أصحاب الرسول كانوا يقولون : لم — ولماذا . ؟

فأجاب : عندما تكون كأصحاب الرسول . قل مثلهم — لم . ؟

أجبته أيضا ـ وإلى أن تبلغوا أنتم منزله الرسول ، سنظل نقول لكم : لم . ؟

وأشهد ، وأنا الآن أشرف على الحوادث من مكان بعيد لاأتأثر فيه بشهوة ولا غرض أن هذه صورة صادقة لكل رئيس جماعة ، أوحزب فى مصر . !

كلهم يؤمنون بأنفسهم ولا يزيدون.

ولو كان الصواب والسداد يقفان بجانب الرجل الواحد ! لكانا إذن من التفاهة والضآلة بحيث يكفى لتحصيلها عقل واحد ، قد يكون مريضا أو موتورا .

إن الدين يرفض حكم الرجل الواحد : والدنيا له أكثر رفضا .

والحزب الواحد ، كالحاكم الواحد كلاهما شر ، واستبداد .

وفى مصر خلق كثيرون يصرخون كلما تكاءدتهم الأمور . ألغوا هذه الأحزاب.

وهذا وهم عريض. !فالحقيقة أن ضعف الأحزاب ، لاتعددها هو مأتى البلاء،

فاذا قيل . إن تعددها علة ضعفها وفسادها لما يحدثه من فرقة وخلاف ، نجيب بأن التعدد فى أحزاب دول كثيرة هو سبب قوتها وتفوقها ، وإذن فهو ليس مضعفا بذاته وطبيعته . وعوامل الضعف والانحطاط آتية من أشياء أخرى سواه . بيد أننا نبطها به التفسير السيكلوجى الذى أسلفناه ، وهو حنين الأمة التى طال انحناؤها للسيد الواحد ، والحزب الواحد . !

لقد عصف الحزب الواحد بألمانيا ، وقصم ظهر إيطاليا ، وترك اليابان عبرة وأحاديث ولوت طبائع الأشياء زمام الاستبداد فى تركيا فتعددت فيها الأحزاب ، ومضى الحزب الواحد الذى كان حاكما بوزر سيئاته ، بل وحسناته !

ولاتضربوا لنا الأمثال . بروسيا ، فالعبرة بنهاية المطاف .

لطالما لهجنا ببركات الحزب الواحد المستبد فى ألمانيا النازية ، وإيطاليا الفاشية . فأين ذهبا . ؟

وروسيا بين أمرين .

فأما أن تكون الحريات فيها سائدة مترعرعة . ومجالس الاتحاد فيها من القوة والنضج بحيث تؤدى دور الأحزاب المعارضة تمام الأداء . وعندئذ لايحتج بها علينا مع احتفاظنا بحقنا فى استبعاد بلوغ « السوفييت » هذا المنسوب الذى يرشحها للنهوض برسالات الأحزاب .

وأما أن يكون حزبها الواحد مصمتا صخريا . لاشىء معه ، ولا معقب لحكمه . وعندئذ ، فالمصير المدخر للحزب الواحد ، وللشعب ـ إذا لم يتدارك أمره ـ فى الانتظار .

يجب أن نعلم أن مصر لايؤودها اختلاف أحزابها . ، بل تناحر هذه الأحزاب ، أما الخلافات فلا مفر منها ، وهى باقية فى الناس مابقى لكل منهم عقله الخاص ، ومشاعره الخاصة . والخلاف الذى لايجاوز الحدود ، ولايتعداها ينفع ولايضر ، لأنه الوسيلة الناجعة لتقليب وجوه الرأى ، وكشف اللثام عن حقائق الأشياء ، والذى يرهقنا بطغاوته ـــ الخصومة لاالخلاف .

منذ أربعة أعوام نشرت صحفنا أنباء إحدى جلسات مجلس العموم البريطانى حيث وقف تشرشل يتهم بيفن بالعجز وبالعمل لتصفية الامبراطورية البريطانية ، فما كان جواب « بيفن » ـــ ولعلها أقسى كلمات يستطيع أن يستعملها : إلا أن قال : ـــ « ليس فى بريطانيا من ينكر أن تشرشل عبقري الحرب الذى كسب لبلادنا النصر ، ولكنه ـ وهذا عيبه ـ يستجيب أحيانا لنداء أغراضه الخاصة » .

وصحيح أن هناك من الساسة والزعماء من يتهاترون ، والعراك التاريخى الذى استعر بين دزرائيلى وجلادستون لا يزال كأنه مشبوب الأوار . . ولكن الأرض المشتركة بين الأحزاب جميعا مهما تختلف وهى ـــ مصالح البلاد ـــ

لا يمكن أن يفرط فيها حزب ، أو يساوم عليها من أجل الكيد والأغاظة لخصومه السياسيين .

وليس معنى هذه المقارنة أننا نتهم زعماءنا بالخيانة لا ـ وإنما نتهمهم بالضعف حين يتحابون .. والضعف حين يتخاصمون ..

ألم تسمع يوما أن حكومة العمال انتدبت تشرشل لبعض المهمات السياسية الخطيرة خارج البلاد . ؟ إن هذا لا يمكن أن يحدث في بلادنا أبداً ؛ فالحزب الذي يستأثر بالحكم يستأثر معه بكل شيء . ويرفض الأفادة بما في الأحزاب الأخرى من مواهب ، بل هو لا يعترف بموهبة ولا ذكاء في غير حزبه . . إن حزبه وحده هو المتخم بعشرات من أمثال بونابرت . . وعشرات من طراز عمرو بن العاص

إن الحزبية الرشيدة المتعددة من أهم المقومات لشخصية الشعوب الحرة ، فلنغتبط بتعدد الأحزاب عندنا ، ولا نجزع . ، ولنطالبها بأصلاح ذات نفسها . وتنفث روح النظام ، والديموقراطية ، والشرف في كيانها .

وهذه مقترحاتنا : —

١ — الرئاسة للأصلح : إن رئيس حزب ماهو رئيس الحكومة يوم يظفر حزبه بالأغلبية ـ لذلك نجد رئاسة الحزب ليست من مسائله الخاصة التي يحق له الاستئثار بها . . بل هي قبل ذلك من حق الشعب الذي قد يحكمه هذا الرئيس يوما ما ، ولهذا يجب أن يختار الرئيس عن وعي وبصر . وأن يكون الرجل الذي تتمثل فيه قوة الحزب وقمة نضوجه ، وأن يجدد اختياره . . أما الرئاسة مدى الحياة فهي ترادف الفساد مدى الحياة ..

٢ — إفساح الطريق للأكفاء : والأحزاب في الأمم الراقية . مدارس تربي

الشباب ، وتمده لأدوار البطولة ، وقيادة السفين ، ولكنها عندنا «بورصات» للمضاربة والاقتناص .

وإنه لشيء محزن ومخجل أن يكون النفاق جواز المرور والوصول في جميع أحزابنا - فأنت كلما كنت بعيداً من الفطنة تكون قريبا من الزعيم . . وسبب ذلك فيما نعتقد ضعف الزعماء وهزالهم .. فرئيس الحزب إذاكان قزما أبعد عن نفسه العمالقة حتى لا تنكشف عورته .. وتنفضح قماءته ..

وهؤلاء الصغار الذين يشبعون غرور رئيسهم بالزلف والملق ، هم الذين توسد إليهم فيما بعد مناصبنا الكبرى والوسطى ، فإذا أرادت الأحزاب أن تكون عامل بناء في بلادها ، فلتفسح الطريق للأكفاء والصالحين فيها - وإلا انقلبت بؤرة تورد للأمة الميكروب والآفات .

٣ - المنهج .. المنهج هو الحزب - وأحزابنا هذه ما مناهجها ؟ أنها تهتف بالجلاء ، وبالسودان ، وبالعدل الاجتماعي : فاذا أتيح لأحدها الحكم - توسل لكل هذه الأهداف بسياسة مرتجلة ، وسلوك مضطرب مما يدل على أنه كان فقط يهتف مع الهاتفين ويصرخ مع الصارخين دون أن تكون له فلسفته الخاصة ونهجه المستقل حيال مشاكل البلاد جميعا . .

إن فائدة المنهج للحزب لا تتمثل فقط في أنه سيكون دستوره يوم يحكم - بل أهم من هذا أنه يربط الحزب بالشعب رباطا وثيقا . لأن المنهج نفسه يكون ثمرة اتصال الحزب بالجماهير وتحسسه آلامها ، وبحثه أخص شؤونها .

إن الارتجال أفسد علينا حياتنا .. الارتجال في الحكم ، والارتجال في المعارضة .. والمضحك أن أحزابنا يقلد بعضها بعضا حتى في الفشل .. ؟ وهذا هو سر ما نجده من تشابه بين سلوكها جميعاً .

إن أرقى مظهر لسياسة الحزب هو خطاب العرش الذى يعبر به الحزب الحاكم عن نفسه ونهجه ونواياه ..

ولقــد سرت عبر خطب عرش كثيرة فى مضابط البرلمان ، تكاد الفروق الدقيقة تنعدم بينها .. وقطع على سيرى ، صوت شيخ جليل ، وجدته قائماً فى إحدى جلسات مجلس الشيوخ يوم ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ، يفسر نفس الظاهرة ويتندر بها .. فلنصغ له من واقع المضبطة .

« — حضرة الشيخ المحترم محمد بك خطاب :

« خضرات الشيوخ المحترمين ــ خطاب العرش أساس من الأسس الهامة فى الحياة الدستورية ، ولو اتبعت الحكمة المقصودة منه . لكان بناؤنا الدستورى الديمقراطى أقوى مما هو الآن بكثير :

« وأمامى الآن جميع خطابات العرش منذ سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٤٥ أظن أن عدد هذه الخطابات يبلغ حوالى الثلاثة والعشرين خطابا .. وإذا قرأتم هذه الخطابات تجدونها جميعاً كأنها نسخة واحدة من خطاب واحد مع بعض التعديل فى الألفاظ لا فى الموضوع ، بعكس الحال فى بريطانيا إذ يمكن لأى عضو من حضراتكم أن يقرأ الخطاب فيقول : هذا خطاب حكومة العمال ، أو حكومة المحافظين ، أو حكومة الأحرار .

« إذا كانت هذه الخطابات لاتتغير فى عهد من العهود . ولا فى حكومة من الحكومات ، فما الداعى إذن لهذه الفرقة بيننا ، وهذا الخصام المتواصل ؟ ! .

« الواقع ياحضرات الشيوخ المحترمين أن خطاب العرش بدأ أولا فى صفحتين ونصف صفحة وقد جاء فى هــذا الخطاب القصير كل ما جاء فى خطابات العرش الأخيرة ..

« أما خطاب العرش الأخير ، فقد زاد الله في حجمه ، وأصبح في خمس وثلاثين صفحة ـ وكنت أعتقد أن زيادة خطاب العرش من صفحتين ونصف صفحة إلى خمس وثلاثين صفحة ـ أي بما يعادل ١٤٠٠٪ قد يعود على البلاد بخير ، لا بنسبة ١٤٠٠٪ ــ ولكن على الأقل بنسبة ٧٠٠٪ ، أو ٦٠٠٪ أو حتى ١٠٦ ٪ »[١]

إننا نفسر هذه الظاهرة بالإفلاس إفلاس الحكومة ، وإفلاس الأحزاب التي تنشئها وتكونها ، من المناهج المرسومة والدراسات الواعية . . .

٤ ــ ديموقراطية الحزب : ولكي نصحح شخصية الشعب . يجب أن نصحح شخصية الحزب مادمنا نرى الحياة الحزبية من أهم مقومات الشخصية ، شخصية الأمة والدولة . وشخصية الحزب لا تكون صحيحة سوية حتى تصطبغ بالديمقراطية الحقة ، فهل أحزابنا كذلك .. ؟

إنها ــ وهذه الحقيقة ــ أندية سياسية تضم المترفين إلى العاطلين ــ مع محترفي السياسة والكلام .. ؟ إنها منصرفة بل عازفة عن الشعب ومشاكله مما أدى إلى خلق جيل جديد . لايؤمن بأحزابه ، ولا بزعمائه مع أننا في أمس الحاجة إلى الإيمان بأحزابنا ، وبقادتنا حتى لانتقسم على أنفسنا ، وحتى نتطور ــ دون أن نتنكر ــ لمحاسن ماضينا .

يا أيها الزعماء[٢] ــ تعرفوا إلى الشعب .. وامشوا معه في الأسواق إن كنتم تريدون لكم ، وله البقاء . . !

لقد سبقتموه في المعيشة سبقا بعيداً . . فعجزتم عن أن تحسوا إحساسه ،

---

(١) مجموعة مضابط الانعقاد العادي والعشرين ص ٢١٥ .

(٢) هذا النداء إلى زعماء العهد الماضي حين صدور الطبعة الأولى من الكتاب

وتشعروا بشعوره ومهما تحاولوا اليوم أن تتمثلوا ، أو تتخيلوا آلامه وعناءه ، فلن تستطيعوا حتى تعودوا إليه .. كيف يحس رجل مترف ، تستقبله كل يوم مائدة متخمة بمناعم الطعام والشراب . إحساس رجل أضنى أمعاءه القديد اليابس المتبل بالذباب والتراب .. ؟

لقد سكن غاندى فى حى « الكناسين » ليستطيع أولا أن يحس نفس الأحاسيس التى يعانيها سكان هذا الحى من المنبوذين .. ثم ليستطيع ثانياً أن يرفع عنهم آصار هذا التحقير من بنى وطنه الهنود . .

ونحن لا نكلف زعماءنا وسادتنا بمثل ما كلف غاندى نفسه . . لأنهم لم يتمثلوا بعد فى وجداناتهم صورة صحيحة للزعامة الرشيدة ، إنهم لايزالون يرونها علواً فى الأرض ، وإشرافا على « المنبوذين » من مكان بعيد . نعم ، لن ندعوهم إلى مساكنة الفقراء .. فتعالوا عن ذلك علواً كبيراً . وإنما ندعوهم — وحسبنا هذا منهم — أن يعيشوا فى إحساس الجماهير ، ولو على ضوء ما يقرأون من أخبارها وشكواها ، وأن يجوسوا ، ولو مرة خلال النجوع والكهوف ، خلال الظلام والبلى .. ليعلم الشعب أن زعماءه يذكرونه ، ويشاركونه . . فتقوم بينه وبينهم علاقات إنسانية متآخية ، وأن يكلف زعيم الحزب جميع نوابه وشيوخه بزيارة دوائرهم زيارات دورية فاحصة ، ويرفع كل عضو من هؤلاء تقريراً دورياً عن زياراته ومقترحاته .

هذه هى بعض المقترحات التى تتيح لنا الانتفاع بأحزابنا ولابد لنا من أن نقرر مرة أخرى — أنه إذا كان لأحزابنا خطايا وأخطاء ، فهى ليست أصيلة ولا دائمة .. ووصفها بذلك تشاؤم لا مبرر له ولا دليل ، ووجود هذه الأخطاء لايبرر التهوين من قيمة الأحزاب ، وحتمية قيامها .

ولا يبرر أبداً المطالبة بإلغائها ، أو توحيدها .

إن غاية ماتثيره وتدعونا إليه — هو الإصلاح الحاسم السريع .

دور الشعب فى تقويم الأحزاب :

وللشعب فى إصلاح الحياة الحزبية دور هام ، فعلى أحدنا إذا شارك حزبا من الأحزاب طريقه ، أن يجعل صلته به صلة تعاون — لا تعصب .

إننا نفسد رسالتنا وزعماءنا ، حين نؤمن بهم إيمان الدراويش بشيوخهم ، ونخون أنفسنا خيانة كبرى حين نلاشى وجودنا وشخصياتنا فى خضم الولاء الأبله ، والثقة العمياء .

فى عام «١٩٤٦» كان أحد الزعماء يحرض الشباب جهرة على العمل لإسقاط الوزارة القائمة بحجة ممالأتها للانجليز برغبتها فى مفاوضتهم ، وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة أخرى . وقررت مفاوضة الانجليز . وهنا نلتقى بنفس الزعيم يحث الطلبة على الهدوء وينهاهم عن كل عمل قد يعرقل سير المفاوضة . فلما ذكروه بنفسه ، وبكلماته فى الأمس الرطيب ، أجابهم فى حيلة ودهاء !

« — إن الشعب الانجليزى ثائر على حكومته ، وهو يطالبها برد أبنائه المجندين بمصر وغير مصر من البلاد المحتلة . والحكومة البريطانية تعتذر عن تسريحهم أمام الشعب بأن هذه البلاد ومنها مصر ثائرة ضد بريطانيا . فلا بد من إبقاء جيش الاحتلال . فأذا أحدثتم أى شغب انتفعت به الحكومة البريطانية فى إسكات شعبها اللحوح »...

لم يكن الزعيم — كما ترى — يؤمن بحرف واحد مما يقول ، ولكن الأتباع المستسلمين حركوا شفاههم إعجابا ، وانطلقوا يبشرون من وراءهم بهذا المنطق العجيب !

وأعجب الزعيم أيضا بذكائه فاستعرض وجوه جلسائه وقال :

— أظن أننا أحسنا اختيار الشكيمة . . ؟

وخرجت ليلتها أفكر : ماالذي أمسك بألسنة الطلبة عن مناقشة هذا المنطق المتهافت . . ؟

وأجبت نفسى : إنه الإيمان الأعمى بالزعماء ، وانمياع شخصية هذه الدمى الآدمية وانطفاء نور الاعتداد فيها .

فإذا شئنا تقويم أحزابنا ، لنفيد منها وننمو بها ، فلنحتفظ بشخصيتنا إزاءها . وشىء آخر لايقل أهمية — وقد يزيد . هوأن نجل ثقتنا عن أن تلقى بها تحت أقدام الذين لايستحقون سوى الصفع والازدراء . وأن نمنحها للذين هم بها جديرون فى أناة وقصد . وشىء ثالث — هو أن نكون دائماً ممثلين للأمة فى الحزب . ، لا ممثلين للحزب فى الأمة — بمعنى أن نتوسل بالحزب لخدمة الشعب . ، لا أن نتوسل بالشعب لخدمة الحزب .

ج — القيم والمعايير

هذا ختام العناصر التى آثرناها بالعرض . ودعونا للتواصى بها حتى تتألف منها للجماهير شخصية آمرة مسيطرة .

ومعايير الأمة هى مناط تقدمها أو انحطاطها . ونعنى بالقيم والمعايير — تلك القواعد والمسلمات التى تسيطر على وجدانها ، وتوجه نشاطها . أرأيت أمة يسود فيها مثلا — الإيمان بالقناعة . إنها تمسى قنوعا فى كل شىء ليس فقط فى لقمة الخبز . . بل وفى طلب المجد كذلك . . . .

ولن نفيض هنا فى الحديث عن تلك القيم . فمجال الإسهاب فيها كتب

الأخلاق . إنما نعرضها من زاوية حاجاتنا كشعب طامح إلى الحرية والخلاص . لابد لنا من قيم عليا نابضة ، ننيط بها حياتنا . . وننظم حولها نضالنا مع الأيام . فلنبحث معاً عن محور تدور حوله معايير الشرف والمجد جميعها ، ولنرفعه تجاه أبصارنا ، ثم نصبه صبا فى كياننا . أما أن نختلف حتى فى اختيار القيم التى ينبغى أن نصل بها أنفسنا ، فضلال بعيد ، إننا لانحاول فهم الأشياء ولا تحديدها . . والذى ينقصنا هو « النظرة المحددة لأنفسنا . وللحياة » .

ما نحن . . ؟

بشرية نامية تدور حول الشمس ، وتتفاعل مع التطور السيار . .

أم بشرية محنطة جعلتها الأقدار آية زاجرة للذين لايؤمنون بالمسايرة والتجديد ؟

وماذا نريد . . ؟

أن نظل سوائم ذللا ننشد الراحة ، ونخلد إلى الأرض ؟

أم نحترم آدميتنا ، فننشد الحرية بلا وجل . . ونكرس حياتنا لتحقيقها والظفر بها ؟

وما الحياة . . ؟

أهى ألغاز ، ومعميات . غاية سعينا أن نفلسفها ونفهمها . ؟

أم هى سعادة متاحة تنادينا لننالها ونحياها ؟

نعم . نريد من الحياة أن نحياها . فكيف السبيل . . ؟

السبيل — أن نجيب أولا على هذا السؤال . .

هل نحن سكان غاب . . أم سكان وطن . . ؟

إذا كانت الأولى ، فلندع أمورنا تسير إذن على النحو الذى تسير عليه حياة

الغاب . وإذا كانت الثانية فلا بد — وهذه حقيقة يجب أن نتقبلها بشجاعة — لا بد من أن نستأنس ونحقق لأنفسنا معنى المواطنية كاملا غير منقوص .

وإذن ، فالمواطنية . هى المحور الذى نختاره لننظم حوله شتى قيمنا ، وكافة معاييرنا .

المواطنية — يامواطنى العزيز هى من الآن مثلنا الأعلى .

المواطنية — هى من الآن هدفنا المجيد المفدى .

المواطنية — أن تكون فى وطنك مواطنا — لامستوطنا .. وأن تكون فى المجتمع كفؤا وندا — لا تابعا ولا عبدا .

والمواطنية — تقتضيك أن تكون فى وطنك مواطنا — لا لمجرد حب الفضيلة ، ولا لمجرد الرغبة فى الخير . . بل لتكون ياصاحبى جديراً بوطنك . .

ونستطيع الآن أن ننصت لمؤلف « التربية لعالم حائر » يحدثنا عن المواطنية حديثا بليغا[1] .

« .. إذا نظرنا إلى المواطنية نظرة صحيحة — وجب أن تشمل جميع أعمال الإنسان التى تمس بنى جلدته ، وتؤثر فى سلامـــة الدولة ورخائها — وتكاد تكون صنوا لواجباته نحو جاره ، وتضمن هذه المواطنية كل شىء تقتضيه شرائع الدولة ، ويتطلبه الضمير الانسانى .

وليست المواطنية شيئا سلبيا — أى مجرد امتناع المرء عن التصرفات الغير وطنية . بل هى عمل إيجابى . وفى هذا يقول « بركليس » — إننا لانعد الرجل

---

(١) هو سير وتشرد للفنجستون ومعرب الكتاب — الأستاذ وديع الضبع .

الذى يقف موقف العزلة أمام الواجبات العامة رجلا هادئا . بل نعده رجلا لاخير فيه .. ويقول «بيرك» الحياة العامة مركز للسلطان والنشاط . والرجل الذى ينام أثناء نوبة حراسته يذنب فى حق الدولة عليه ، شأنه فى ذلك شأن من ينضم إلى أعداء بلاده .. »

ويستطرد لفنجستون قائلا :

« والدولة المثلى هى التى يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على أن يكون جزءا من المجتمع الذى يعيش فيه ، ويساهم فى أعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل مصلحته الخاصة

« وهذه الدولة آلة لانجد فيها جزءا واحدا من أجزائها معطلا ، أو خاملا أو صادئا ، أو مكسورا ، أو موضوعا فى غير موضعه . وفيها يساهم كل ترس بقسطه الكامل من العمل فى سرعة وتناسق .

« فالرجل الذى يتملص من أداء الضرائب المفروضة عليه — مواطن ردىء ، ومثله أيضا الرجل الذى لا يفكر حين يدلى بصوته فى الانتخابات البرلمانية إلا فى مصالحه الخاصة ، أو يهمل الاقتراع بتاتا — وتلك أيضا حال صاحب العمل الذى يضاعف مشاكل وطنه بسوء معاملة عماله . . . ومثل هؤلاء أيضا أرباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعملاؤها ، والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم فى كفة الأقدار . »

بهذه البسطة من الفهم — صور لفنجستون جغرافية المواطنية ، ووضح معالمها وضرب الأمثال للتبعات الشداد التى تفرضها على أصحابها .

إن المواطنية ، كما رأينا — دين يدعو المواطن إلى بذل الواجب من أجل الوطن . ، ويدعو الوطن إلى تمكين الفرد من أداء الواجب .

هى ألا تعيش فى بلادك محايدا — بل مجاهدا .. هى أن تحترم حقوقك ، وتمارسها حقا حقا .. هى أن تدوس مصالحك الخاصة — عندما تصبح مصاير بلادك فى كف القدر .. وهى أن تعامل الدولة أعضاءها ، باعتبارهم مواطنين — لا رعايا ..

وأن توقظ فى ضميرها معانى الإنسانية والكرامة : وأن تضع كل مواطن فى مكانه . وتتحدى كل اعتبار آخر يفتح للمحاباة الطريق . وأن تعدل — ليس فقط فى توزيع الخبز .. بل قبل ذلك فى توزيع الواجبات والحقوق . وأن ترفع لواء المساواة — ليس فقط بين الناس ، والناس . ، بل وبين العمل والجزاء . . . فالأشراف العاطلون الذين لايعملون شيئا . يجب أن يحرموا من كل شيء ، وإذا أغدقت الدولة عليهم تكريمها فقد انتهكت كرامة المواطنين ، وحطمت معنى المساواة . . .

والعاملون الكادحون يستحقون التقدير والتوقير — فإذا بخلت عليهم الدولة ، وازدرتهم ، فقد باءت بشر ما يبوء به الظالمون ! !

بقى شيء آخر ، هو أسمى ماتتيحه المواطنية للناس — الكرامة ...

فأظمأ إن أبدى لى الماء منة ولوكان لى نهر المجرة موردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلل لسار الهدى ألا أميل إلى الهدى

وإذا لم يجد المواطن من دولته الحرص على كرامته ، فما أصعب الاحتفاظ بها والحرص عليها ..

وهؤلاء الذين وجدوا طريق الوصول — التملق ، فتملقوا ونافقوا وهانوا وهؤلاء الذين رأوا الدولة تهملهم ، فأهملوها ، وحسبوها تخونهم ، فخانوها ..

هؤلاء ، وهؤلاء — ما الذى أغراهم بالكرامة والواجب .. ؟

إنه إهمال الدولة لاريب .. إهمالها الأخذ بمبدأ السوائية بين مواطنيها . ومالم تقض على مظاهر التمايز غير المشروع ، فستظل أمة بطيئة الاحساس بكرامتها . .

ألغوا هذه الألقاب ..

ومسألة الألقاب فى مصر من أهم مشاكلنا — قد يراها بعضنا مسألة شكلية تافهة . وهذا منهم حسن ظن عجيب . والحقيقة أن الألقاب فى بلادنا مصدر قلق وإزعاج للكرامة القومية بل والانسانية .

إنها إذلال لكبرياء الشعب ، وإيغار لصدره وإرباء لروح الطبقية المقيتة فيه . وإذا كان لا بد من مثوبة شرفية تستحث بها الدولة مواطنيها نحو التبريز والتفوق والكمال ، فلتكن كلمة « مواطن » :

صحيح أن لقب « مواطن » حق طبيعى لكل فرد فى وطن . . ولكن الدولة حين تمنحه أحدا — يكون اعترافا منها بأنه قد أدى واجبات المواطنية ، واستحق تكريم الدولة واحترامها ..

أما لقب «باشا» مثلا ، فهناك أكثر من سبب يحتم علينا هجره وإلغاءه؛ فهو:

أولا — لقب غير وطنى ، وهو من بقايا الاستعمار التركى العثمانى . والأمة التى تعجز حتى عن تمصير ألقابها — أمة ساقطة ..

ثانيا — هو رمز بغيض للباشوات الأتراك الذين كان السلاطين يولونهم أمرنا .. ، فيقتلون آباءنا ، ويستحيون نساءنا . وينهبون أرزاقنا ..

ثالثا — إن أول رتبة « باشوية » أنعم بها فى مصر — كانت ثمن خيانة اقترفها المنعم عليه ..

فقد حدث عندما غزا بلادنا سلطان البرين ، وخاقان البحرين.. السلطان سليم أن انحاز إليه أمير شركسى اسمه «خيربك» وقد لعب هذا الرجل دوراً هاما فى تصفية المقاومة ، وتعبيد الجماهير للغازى سليم فاجتباه وأنعم عليه بلقب «باشا»..!

وهكذا ظهرت الباشوية فى مصر .. وتوالت علينا بعد ذلك أرجال الباشوات كأنها جراد منتشر . . .

وكان لقب « باشا » رشوة تركية يغرى السلاطين بها سفهاء الأحلام والنهى ليتفانوا فى خدمتهم التى تقوم على الجبى والظلم . وكانت أيضاً أداة يتوسلون بها لإذلال الشعب وأشاعة الشعور بالدونية فى نفسه أمام طبقة الباشوات العاطلين..!

فلماذا إذن نبقى على ألقاب غير مصرية . ألقاب حملها من قديم الزمن أناس شردونا ، واستباحوا دورنا وحمانا .. ؟

ألقاب كان لها منذ حين قريب سماسرة يتجرون بها علنا ، ويبيعونها جهاراً نهاراً .!

يقول المواطن الأستاذ : «أحمد لطفى السيد » فى مذكراته المنشورة بالمصور العدد (١٣٥٤) :

« من أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين، وصارت تباع فى ذلك العهد وتحدثت بها الصحف عام ١٩٠٨ — وقد كان لها سماسرة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، وأصبحت تعطى لامكافأة على عمل من أعمال البسالة .. ولا على خدمه من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون ألقاب التشريف . . وكان السمسار يأخذ المقدم من المشترى ، فاذا تم التشريف أخذ المؤخر .

« وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائماً يهتمون برضاها عنهم . . فهى تلعب بأهوائهم ، وشهواتهم ، وتأسرهم بها ،

« وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت إلى الحكومات الحديثة فكانت أثراً من آثار الاستبداد الأولى».

أرأيتم : ؟ أولئك هم الباشوات الذين كان أجدادنا يرتعدون أمامهم فرقا .. لم يكونوا على شيء من العلم ، ولا من الصلاحية . ولكنهم اشتروا من السماسرة لقباً فضفاضا يسترون به هزالهم ويتألهون به على العباد . !

ما أروع ابن عبد الله — حين ناداه صحبه — أنت سيدنا ، فقال غاضباً : « لا يستهوينكم الشيطان ، ولا تقولوا عنى «سيد» .. إنما إنا عبد الله ورسوله .!!».

ثم ما أبلغ العبارة التى رفض بها « برناردشو » الألقاب الكثيرة التى عرضت عليه : « إنها قيود من ذهب ، تضطر الإنسان لأن ينحنى كى توضع فى رقبته»..!

وما أشد حاجة الأمة التى تحللت شخصيتها وتلاشت ، إلى نبذ مظاهر التمايز ، وإماطة « الألقاب » عن الطريق .. إن اللقب دثار يغطى عرى لابسه .. عريه الوطنى وعريه الأخلاقى .

ألم يكن كذلك . لخير بك . الذى صار خير « باشا » فغطى خيانته إلى حين . . ؟

ونحن على يقين من أن الذين يسفكون كرامتهم ، ويهرقون ماء وجوههم لينالوا لقباً إنما يحفزهم لهذا الرغبة المنحطة فى التبذخ على الشعب ، فلنقطع عليهم السبيل ، ولننضُ عن أعناقنا هذه الأطواق .

وبعد ، فهل يمكن أن نكون مواطنين بلا وطن .. ؟

لقد وضحنا فى هذا الفصل إلى حد ما الوسائل التى تفضى بنا إلى إنهاض شخصية الشعب كى تعمل .

ولكن أين تعمل إذا هي لم تجد لها مجالا . ؟ لابد لنا من وطن يكون خالصاً لنا دون المستعمرين والمستغلين .

ومصر — هي الأرض التي درجنا منها ، ومهدنا فيها ، ورضعنا بلبانها .

ولكن الاستعمار اختلسها منا .. وصيرنا فيها غرباء وصبغ كل مقوماتها بلونه ، ومن أردأ من الاستعمار صبغة . ؟

ومهمتنا الكبرى تحرير الوطن.

فكيف السبيل ؟

تمصير مصر ...

« لتكن غايتنا فى الحياة — بلادنا

« بلادنا وحدها . .

« وبلادنا كلها . .

« ولا شىء إلا بلادنا » .

بلاد من . ؟

فى الفصل الأول من الكتاب رأينا كيف دخل الانجليز مصر وكيف دخلها قبلهم الأتراك . ثم كيف صار بعضهم لبعض ظهيرا .

وقلنا — إن الاستعمار التركى قد اختفى حكامه — وبقيت تقاليده وشعائره وأحكامه . ولكى نمصر مصر ، لابد من أن ننفى عنها هذه البقايا ونطهر حياتنا من تلك الشعائر والأحراش وذكرنا أن الطريق لهذا — هو الحرية الغامرة ، وتقويم شخصية الشعب ، وشد زناد الكرامة والكبرياء فيها — وفى هذا الفصل نتدارس الوسائل المفلحة التى نمصر بها مصر من الاستعمار البريطانى ، وخليق بنا أن ندرك بادىء الأمر ، أننا حتى اليوم لم نحدد وعينا لهذا الاستعمار، ولم نحدد الوسائل المجدية فى مكافحته وطرده ولعل سبب ذلك أننا لم نؤت بصرا كاملا بأخطاره وأوزاره ومدلوله . .

فالكثرة الغالبة منا تولى وجهها شطر الجيوش الرابضة فى القنال ، ثم تتميز من الغيظ ، وتظن أن هذا الاحتلال المسلح هو وحده — الاستعمار البريطانى .

علينا أن نتعمق فهم هذا الاستعمار ونفوذه . وعلينا قبل الخطوة الأولى أن نعلم أن هذه الجيوش المعتدية التى « برطنت » منطقة فايد وجعلتها مدينة إنجليزية كبرى .

هذه الجيوش التى تسبب لنا الضنك والغلاء بما تستهلكه من منتجاتنا الزراعية استهلاكا تنوء بحمله الأرقام . هـذه الجيوش التى تطأ بنعالهـا كرامة الشعب

وطموحه — ليست الاحتلال البريطانى . ولكنها فقط مظهر من مظاهر الاحتلال .

ومن الممكن جداً أن تجلو القوات البريطانية عن ديارنا .. ويظل جاثماً ينشر وباءه وبلاءه . وإنه لأمر مؤسف أن تغيب هذه الحقيقة عن بصائرنا . ألا تذكرون الأيام الغبية التى حشدت الدولة فيها كل مظاهر الحفاوة والفرح بعيد الجلاء . جلاء بضع كتائب عن (القاهرة) فهللنا وكبرنا ، ونحن نعلم أنها ستعسكر على بعد خطوات .. !

لقد كانت هذه الظاهرة ، ولا تزال آية على أننا نحس حقوقنا إحساس العبيد لا إحساس الأحرار . ولقد كان مثل الانجليز معنا بهذا الجلاء كمثل لص تسور الأبواب ، واقتحم الدار على أهلها ، وأشاع فى البيت الرعب والغش والفساد ، ثم أخيراً تفضل وتكرم . وقرر أن يدع لأهل البيت غرفة النوم . ويذهب هو بقية الحجرات . ! فلننظر إلى الاستعمار نظرة واعية شاملة . ثم لننهض فى طريق إجلائه أو إفنائه .

النفوذ ، والاحتلال :

قلنا : إن الاحتلال العسكرى لمصر مظهر من مظاهر الاستعمار ـ ولا يزيد.. وهو وإن يك أكثر المظاهر بشاعة ودناءة ، وأفعلها فى إثارة كوامن الحقد والثأر — إلا أنه لاينبغى أن يشغلنا به وحده عن بقية المظاهر والآثار .. بل يجب أن يتجه كفاحنا إليها جميعاً بعد حصرها وتحديدها ..

والاستعمار يعتمد هنا على شيئين :

(١) النفوذ السياسى .

(ب) الاحتلال العسكرى ..

ولنبدأ بالحديث عن أولها متتبعين نقط ارتكازه ثم باحثين عن طرائق إبادتها واجتثاثها .

النفوذ السياسى :

إن بريطانيا تسيطر على حياتنا ووجودنا سيطرة سياسية محيطة .. وآراؤها ، وخططها هى عجلات الآلة الدوارة . ونحن — شعباً ودولة — لسنا أكثر من الصوت الخارجى لهذه العجلات ..

إننا أمة لاتريد .. بل يراد لها .. !

• يراد لها أن تنشىء جامعة عربية ، تريدها وهنا على وهن ، فتنشئها .

• ويراد لها أن تبرم معاهدة لتوكد مشروعية الاستعمار فتبرمها .

• ويراد لها أن تخوض حروباً مرتجلة ، فتخوضها .

• ويراد لها عام « ١٩٢١ » أن تدخل فى مفاوضات مع مستعمريها لتمزق وحدتها ، فتدخل فيها .

• ثم يراد لها الدخول فى مفاوضات أخرى — هى امتداد لنفس المفاوضات القديمة جداً .. فتسارع وتتهافت .

• يراد لها أن يحكمها هـذا الحزب . فيحكمها .. ثم تتغير المشيئة ، ويراد لها أن يحكمها حزب آخر ، فتتم الأمور على مايراد .

ونحن فى كل هذه النقل والتغييرات والأحداث نظن أننا نتحرك بإرادتنا ، ونفكر بعقولنا ونقف على أرجلنا . !

إن تطهير « الإرادة المصرية » من هذا النفوذ السياسي ، لايقل أهمية عن تطهير « الأرض المصرية » من الاحتلال العسكري — فاذكروا هذا جيداً ، ودعونا نسأل : على أي شيء يرتكز النفوذ البريطاني ؟ .

هذه نقط ارتكازه ..

١ — المعاهدات :

عندما يريد الاستعمار استعباد أمة واستثمارها يحاول جاهداً أن يربطها بعجلته عن طريق صك عبودي — يسمى في اللغة المظلومة . « المعاهدة » ؟ وبريطانيا تعلم أن هذا العصر الذي تعيشه الإنسانية ليس عصر احتلال بالجيوش . فالشعوب تنفر من رؤية الغزاة يروحون في بلادها ويجيئون ، لذلك فهي تستعيض عن الاحتلال العسكري بالاحتلال السياسي ـ أي بالمعاهدات . وعن طريق المعاهدات يصلون إلى كل الأغراض التي كان الاحتلال المسلح يحققها لهم . فباسم المعاهدات يحرمون حليفهم من التسلح . وباسم المعاهدات يثيرون في الشعب الحليف كل أنواع الفتن والمؤامرات . وباسم المعاهدات تجتاز طائراتهم المناطق الحرام عنوة واقتسارا . وباسم المعاهدات يحاصرون قصر الملك الذي تخالفهم حكومته .. وباسم المعاهدات تؤخذ أقوات الشعب وخيراته ليطعم بها الجيش المحتل ، ولتباع إلى الدول المعادية التي أنشأها حلفاؤنا إنشاء لتكون لنا شوكة الجنب على الدوام . وباسم المعاهدات يجترح الاستعمار — وهو يبتسم — كل القبائح التي كان يقترفها ، وهو يزمجر .. ! والدليل الذي ليس بعده دليل على أن المعاهدة هي بديل الاحتلال العسكري تشبث بريطانيا بعقدها معنا .

لقد كنا نحسب أننا خلقنا فقط لنتألم ، ثم نموت . بيد أننا تبينا أخيراً — أننا خلقنا لنتألم ، ونحالف بريطانيا .. ثم نموت . !

لماذا نحالفها .. ؟ وهل تشجع سوابقها على بناء حلف معها . ؟

لقد حالفناها بمعاهدة « ٣٦ » وكان لهذه المعاهدة معنا قصة البيغاء التى تجيد جميع اللغات .

أو تعرفونها معشر الزعماء .؟ اقرءوها فقد ترون فيها فائدة ودرسا .

* * *

رووا — أن رجلا كان يملك « بيغاء » أعياه غباؤها المطبق ، فاجتهد أن يعلمها فقط هذه العبارة «لاشك فى ذلك» ! ثم خرج بها إلى السوق ونادى : — من يشترى بيغاء تتكلم جميع اللغات .. ؟ — وساق الحظ إليه زبونا مغفلا تقدم إليها وسألها : — هل تجيدين جميع اللغات .؟ أجابت : لاشك فى ذلك .!

فاستخفه الطرب ، ونقد صاحبها كل مامعه من مال .

وهناك فى قصره الكبير ، أقام لها حفل استقبال دعا إليه أصدقاءه من كل نحلة ولسان ، وبعد تناول المرطبات قدم إليهم ، أو قدمهم إلى بيغاء الشرف والكمال . وأخذ كل منهم يخاطبها بلسانه . وهى لا تجيب بغير هذه العبارة — لا شك فى ذلك .. !

وأدرك صاحبنا هول الكارثة — فلما انصرف الضيوف اقترب منها فى خطوات متهالكة ودار بينهما هذا الحوار :

هو — إذن ، فأنت لا تعرفين شيئاً .. ؟

هى — لا شك فى ذلك .

هو — وإذن فأنا مغفل مخدوع . ؟

هى — لاشك فى ذلك . . !

وحملها من فوره ، ومضى يبحث عن بائعها حتى اهتدى إليه — وهناك أجلسها أمامه وسألها : أن بائعك هذا أفاق وغشاش — أليس كذلك . ؟

أجابت - لاشك فى ذلك .

قال — ويستحق الزجر والعقاب ؟ أجابت : لاشك فى ذلك ، وقذف بها فى وجهه ، واسترد ثمنها ومضى .

أليست قصة هذه الببغاء هى بالضبط قصة معاهدة « ٣٦ » مع فارق هام . هو أن مخدوع الببغاء مسح الإهانة عن نفسه ، واسترد حقه المنهوب ..؟ لقد رجع زعماؤنا إلينا ذات يوم يحملون معاهدة جعلوا منها «ملكة جمال» المعاهدات . ! وفى غمرة الحفاوة بها ، وقبل أن يجف مدادها سألناها :

— أيجوز أن يبيعنا الانجليز غداة توقيعك ذخيرة « كذابة » . ؟

أجابت ، لاشك فى ذلك !

— أيليق أن يتخلوا عن التزاماتهم نحونا فى معركة فلسطين ؟ أجابت : لاشك فى ذلك . !

— أيجوز أن يتقاضوا منا ثمن أسلحة . . ثم يحنثون بالعقد ويبيعون السلاح لإسرائيل ؟ أجابت ، لاشك فى ذلك !

— أيجوز أن يشيدوا فى بلادنا مدائن باذخة ، بعد أن كانوا يسكنون قصرا متداعيا على ضفة النيل .. ؟ أجابت : لاشك فى ذلك . !

أيجوز أن يمخروا مياهنا حاملين البترول والمعدات لإسرائيل التى لا تزال تتربص بنا .. ؟ أجابت : لاشك فى ذلك . !

— إذن ، فلست معاهدة شرف واستقلال .. ؟ أجابت : لاشك فى ذلك !

— وإذن ، فنحن مغفلون مخدوعون — ؟

أجابت : لاشك فى ذلك . !

إن كل معاهدة تعقد اليوم ، أو تبرم غدا مع بريطانيا لن تكون أحسن حظا من سابقتها ، وأن الطريق الوحيد المفضى لعهد شريف أبى عزيز أن يجلو عن بلادنا النفوذ السياسى والاحتلال العسكرى البريطانى .. ثم بعدذلك نفكر بعقولنا ، ونريد لأنفسنا بأنفسنا .. أما معاهدة يساومنا بها المستعمر على استقلالنا — فأهون منها عدمها .. وبقاء الاستعمار غير متلفع بأردية كاذبة خادعة من الاتفاقيات والمعاهدات ، أيجوز بعد كل هذا أن نحالف الذين جعلونا سخرية وهزوا .. ؟؟

لقد خادع حلفاء الرسول حليفهم مرة واحدة ، فقطع الله حبال هذا العهد فى سورة عاصفة أبى أن يبدأها ببسم الله الرحمن الرحيم حتى تأخذ طابع القسوة والازدراء والهجوم فقال تعالى :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » .

ثم رسم الخطة لتنفيذ هذا الفسخ فقال :

— « خذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » . !

وانجلترا نفسها تأست بالقرآن فى ظروف مشابهة ، مع أنها كانت تمثل جانب البغى والعدوان .. فحين هب رشيد عالى الكيلانى فى وجهها قالت : هذا خرق المعاهدة ، وبعد ساعات ، كانت السماء تمطر جنودا حاربوا العراق حربا خاطفة عصوفا .

ولقد كان الوضع الطبيعى ، وقد خرقوا مابيننا من عهد أكثر من مرة أن نصنع ما كانوا لابد صانعيه لو أنهم مكاننا — فنأخذهم .. ونحصرهم .. ونقعد لهم كل مرصد وطريق .

قد يقال : إن بريطانيا اليوم غيرها فى الأمس البعيد والقريب — بريطانيا العمال — غير بريطانيا المحافظين ألا فلنستمع إذن لآية فاصلة من انجليزى عريق تمرد على سياسة بلاده وحرض عليها جميع البشر وكشف للناس عن «ثعبانيتها» وتأصل الغدر فيها — ذلكم هو توماس بين : فلننصت لكلمته ، ولنحفظها ولنلقنها صغارنا والكبار ..

« هل تستطيع أن ترد إلى المومس طهارتها الأولى .. ؟ إن السياسة البريطانية كذلك ـ فقدت إلى الأبد شرف القصد ، وطهارة الضمير » ! !

ولكن قد يقنعنا الانجليز بأن « بين » كان رجلا آبقا عاقا .

فاندرس أخلاق سياستهم إذن على ضوء عبارة أخرى قالها قطبهم الأكبر « دزرائيلى » واتخذوها مبدأ وشعاراً — تلك هى :

« اكذب .. واكذب ... ثم اكذب دائماً ، فلابد أن تجد من يصدقك » ؟!

إن الانجليز لا يصلح معهم عهد أبدا — إلا إذا كان مع قوم أولى بأس شديد يخافونهم ويرهبونهم ..

ونستطيع أن نفترض حسن نيتهم إذا ماعاهدناهم من جديد ، وننسى طغاوتهم وفسادهم الكبير .. ولكن مع هذا أيضا لا يكون من صالحنا قط أن نتخذهم حلفاء أو أصدقاء . . . لماذا . . ؟

لأن الانجليز تعودوا دائماً أن يتخذوا من حليفهم « كبش الفداء » ولقد ذاق الأمريكان أنفسهم مرارة هذه التجربة ، وسربوا غيظهم أيام الحرب الأخيرة فى سخريات .. أطلقوها

دخلت سيدة أمريكية المسرح ، فوجدت الجنود الانجليز يحتلون جميع المقاعد الأمامية ، فقالت : إن الإنجليز فى المسارح يحتلون الصفوف الأمامية ويتركون

الخلفية لنا ـ ولكنهم فى الميدان يحتلون الصفوف الخلفية ، ويتركون الأمامية لأبنائنا . !

هذا تعبير رائع ، وفهم دقيق لأخلاق الانجليز فالمعاهدات التى تربط الضعيف بالقوى ستكون من باب أولى غير متكافئة وستكون ثمرتها مشروعية الاحتلال وأحر بنا أن يحتلنا الإنجليز بإكراه ، من أن يحتلونا بمعاهدة ورضا واختيار .

شاهد من أهلها :

ثم إن أى معاهدة جديدة تربطنا بالإنجليز ، سيكون عصبها الدفاع المشترك وهذا الدفاع المشترك كائنا ما كان اسمه وطريقته ـ يقف فى الوجهة المغايرة للسيادة والاستقلال .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك ـ بل هو السيد « بيفن » نفسه ـ وإلى زعمائنا الأبرار نقدم هذه العبارات التى قد تنير لهم الطريق .

فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ـ وقف مستر بيفن يخطب فى مأدبة الغرفة المصرية البريطانية فقال مخاطباً الأعضاء المصريين :

« . . ولكن يجب أن يبقى ماندعوه بالدفاع المشترك ، لأنه لاغنى لأحدنا عن الآخر ـ وأن الاستقلال آت لاريب فيه .. ! »

إذن فالدفاع المشترك شىء آخر ينافى الاستقلال ولا يظاهره .

وبيفن يريد منا سنة ٤٥ أن نوافق على الدفاع المشترك ، ويطمئننا على أن الاستقلال آت فى ميقات مجهول قد يعلمه « بيفن » ولكن للمصريين آخر الذين يعلمون . . والذين لا يعلمون .. ! وبهذا القدار من الحديث نرجو أن نكون

قد وقفنا على ماقى التحالف مع الانجليز من غرم وبوار . وسنتحدث عن وسائل الخلاص بعد أن تتم سردبقية القواعد التى يرتكز عليها نفوذ الاستعمار .

(ب) الأرجاف بالشيوعية والحرب :

إن بريطانيا المومس ، لن تسترد طهارتها الأولى هذا إذا كانت السياسة البريطانية قد أتى عليها حين من الطهر والنقاء .

انظروا .. إن أسلوبها الاستعمارى لم يتغير .

والأحفاد من ساستها يسيرون وراء الأجداد حذو النعل . بالنعل فيوم دخلت بلادنا لأول مرة ، زعمت أنها آتية لتثبيت سلطة الباب العالى . وطرد الفرنسيين الطغاة ، وكانت انجلترا يومئذ تتزعم حركة مقاومة عنيفة للثورة الفرنسية ولما يمكن أن يترتب عليها من تغيرات اجتماعية خطيرة .. ويوم استولى هتلر على حكم بلاده . وقف رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وقال :

« يجب أن نعاون الألمان على النمو والتسلح حتى نشرد بهم من وراءنا من الروس الخطرين . » ـ وفى سنة ١٩٣٦ ـ بدأت انجلترا نفسها تتزعم مقاومة عاتية ضد النازية ــ وضحكت علينا يومها واختلست منا توقيعا على معاهدة فاشلة هى معاهدة « ١٩٣٦ » .

واليوم لاخوف من ثورة فرنسية . ولا خوف من النازية . فبم تبرر انجلترا بقاءها . ؟ بالشيوعية طبعا .

فلتكن الشيوعية خطراً على بريطانيا كل الخطر ، ولتكن بريطانيا موطدة

العزم على محاربتها فى عرينها الأول روسيا ، لكن ذلك ، ويبقى أن نتساءل : ماصلتنا نحن بهذه الفتنة ؟

مالنا وبريطانيا تحارب أو لا تحارب ، تظفر أو تهزم ... !
هل نحن إحدى كتائب جيشها الثامن .. ؟
أو نحن وإياهم كما قال الشاعر العربى القديم :
أ كلما حاربت خزاعة تدعو ني كأني لأمهم جمل ؟؟

إن « الشيوعية » ضوء أحمر تسلطه بريطانيا على عيون الحاكمين لتزيغ به أبصارهم عن الهدف المتمثل فى طردها ، وإجلائها ، ماذا كان يعنى بيفن حين قال أكثر من مرة وفى مناسبات عدة ، إن الشيوعية لن تسمح ببقاء الباشوات إذا دخلت مصر .. ؟ !

قالها مرة فى حديث صحفى .. وقالها لسفيرنا فى لندن ونشرتها مجلة المصور ضمن الوثائق السرية التى أذاعتها عن محادثات « عمرو - بيفن » أليس ذلك أرجافا وتخويفاً تهدف السياسة البريطانية بهما إلى فل إرادة الباشوات والحاكمين وعزلهم عن حركة المقاومة التى يدخرها الشعب للانجليز .. ؟

لكن الباشوات الذين عرض بهم بيفن سيخلفون ظنونه . . والذى يتخلى منهم عن جهاد أمته لن يضيرنا ولن نعير به - لأنه ساعتئذ لن يكون مصريا ، ألم يقل لنا « توماس بين » - أن المومس لاتسترد طهارتها الأولى ؟ - إن السياسة التى احتفرت وقيعة قديمة بين توفيق وعرابى ، وبين الباشوات والشعب .. تريد اليوم أن تلعب نفس الدور . فتلقى فى روع الحكام والزعماء أن الشعب يترصد لهم لينهى حيواتهم بفاجعة ويوهمون الشعب أن كبراءه ، وحكامه - يعملون معهم ضده ، ولن تقر للمومس عين حتى تحقق اليوم نفس النتائج الأثيمة والوخيمة

التي حققتها بالأمس . وهذا يفتح أعيننا على نقطة الارتكاز الثالثة التي يعتمد عليها نفوذ الاستعمار .

(ج) شحذ بأسنا بيننا .

والسياسة البريطانية لكي تبقى وتسود ، تورى نار البغضاء والفرقة إيراء موصولا ، وتذر شعبنا المسكين يمور في حديدها المفرغ ، وصخرها الأصم ، وهي في ذلك ذات براعة ومهارة ، ليست كالمغفل الأكبر «موسوليني» ، الذي كان يقيم لرعاياه المتذمرين حرب « المقلاع » !

بل هي تضن علينا حتى بثمن الرصاص الذي تفرغه في صدورنا وتتركنا نحن نشتري الرصاص بأموالنا — ثم تحرضنا . فنطلقه لا في دماغ الاستعمار فتفجره تفجيرا بل نمزق به أنفسنا ، ونهرق به دماءنا . .

وهي تعتمد في تأليب بعضنا على بعض على سلاح تناهى في الخطورة هو — تشريد الثقة التي تربطنا ، وإشاعة روح الاتهام في المجتمع .. ولقد أفضى سعيها الخبيث في هذا السبيل إلى ما نحن فيه اليوم من استرابة في كل إخلاص، وتصديق لكل شائعة واتهام . لقد قلنا من قبل : إن لبريطانيا سفارة أخرى غير رسمية ، سفارة مجهولة تحيط بكل شيء علما . وتملأ ضمير الأمة شكا وريبا ، ومهمتها الأولى تشويه سمعة الزعماء والناصحين حتى لا يؤمن بهم الشعب ، وهذا نبأ قريب من آلاف الأنباء التي تؤكد هذه الحقيقة أعمق توكيد .

— في أثناء الحرب الأخيرة . أو في بداءتها — وقف الأستاذ الأكبر المبرور الشيخ « محمد مصطفى المراغي » وقال في خطاب أحد أعياد الهجرة — « أن العالم الإسلامي لن يخوض حرباً لا ناقة له فيها ولا جمل . . »

وفى صبيحة الأمسية التى أذيع فيها هذا الخطاب ـ كانت شعوب الشرق الاسلامى تردد ـ فيما نظن ـ هذه العبارة المستنيرة . . وأسرها الإنجليز فى أنفسهم، وأصدرت السفارة غير الرسمية أوامرها إلى «لجنة الاشاعات والتهم» أن تشكك الجماهير فى قيمة الشيخ المراغى ، وفى سلوكه وذات يوم عقب صلاة الجمعة ، إذا بالسماء تمطر سيلا من المنشورات تزعم أن الشيخ المراغى حضر ليلة «كذا» حفلة ساهرة بالسفارة الانجليزية وأنه شرب الخمر حتى فقد صوابه . . !

إن الانجليز لايهدفون بمثل هذا التشهير إلى هدم القيمة الشخصية والشعبية للمواطن المخلص وحسب ! بل هم يستهدفون غاية أبعد ، وهدفا أخطر .

فهم يعلمون أن مجرى حياة الأمة هو مزيج إحساسها وتفكيرها . وتسميم هذا المجرى يتأتى بجعل الاتهام وسوء الظن بعض عناصر شعورنا وتفكيرنا ، ليفسدوا علينا أمرنا كلـه ، وهم قوم لايعجزهم أن يفتاتوا ويكذبوا . إن كبيرهم دزرائيلى علمهم أن يـكذبوا ــ ويكذبوا دائما ، فلا بد أن يجدوا من يصدقهم .

ولقد وجدوا فعلا من يصدقهم ، وا أسفاه علينا ، ما أسرع ما نصدق وما أسرع ما نحاكى . فنحن لم نصدق خرصهم فحسب ، بل ذهبنا نحاكيهم فى الأرجاف ويتلمس بعضنا لبعض التهم والعيوب . كثيرون منا من أشبع بهذا السلوك النفسى روحه ، وصغا إليه قلبه ، وصار يعتمد فى محاربة مخالفيه فى الرأى على هـــذا السلاح الموتور . وإن أقدامنا لتتعثر بهؤلاء الذين وقفت أخلاقهم . . إذا جاءهم أحد بما لاتهوى أنفسهم ، قالوا :

هــذا صنيع جماعات تبشيرية ـــ وطليعة حرب صليبية ، أو مؤامرة شيوعية . ! وقد تلتقى بهؤلاء المرجفين أنفسهم يقولون فى غباء مضحك : ـــ إن الإسلام أخذ الشيوعية ، وأخذ المسيحية ، وصنع منهما معاً نظاماً إسمه الإسلام .

ثم لايتهمون أنفسهم — طبعاً — بأنهم شيوعيون ، ولا صليبيون . مساكين ، إنهم ضحايا الاستعمار الذى أفسد علينا أنفسنا . وشرد ثقتنا بها ، وبالآخرين .

د — الخداع بالهيئات الدولية :

إن الاستعمار يؤمن بعلم النفس ، ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً ، وهو يعلم روح العصر الذى نعيش فيه ، هـذا الروح الانقلابى المتحرر الذى لايريد أن يرضخ لضيم ، ولا أن يسام كما تسام القطعان . لذلك اصطنع هيئات دولية تكون أداة تنفيس ، وتسرية ، ومماطلة فلو لم يكن فى الدنيا آفة تسمى «مجلس الأمن» لكانت مصر قد حلت قضيتها بسواعدها — يوم كانت تمور مورا عنيفا عقيب وضع الحرب أوزارها . ولـكننا اتجهنا إلى مجلس الأمن ، وهيئة الأمم ، وران علينا الركون وقامت فتن وأصبحنا اليوم فى شغل بأنفسنا عن عدونا — وهذا مايريده الاستعمار ، وهيئاته الدولية . !

ماذا صنع لنا مجلس الأمن ؟ لقد أوصانا بالأناة ، والحلم ، وحسن الضيافة ؟!

وماذا صنعت هيئة الأمم ؟ لقد استجابت لرغبة وزير خارجيتنا «الدكتور صلاح الدين» وعطلت جلستها يوم عيد الأضحى الماضى ، احتراما لنا ومجاملة كريمة منها ! هذه هى التضحية الوحيدة التى ضحت بها الهيئة من أجلنا ، وشكر الله لها ورعاها إلا أنه إذا أراد قادتنا وحكامنا[1] أن يصيبنا جنون ، فليحدثونا عن قيمة هذه الهيئات ومناقبها كثيراً . . أما نحن فنريد لهم مزيداً من العقل والفهم . لذلك لن نحدثهم عن مناقبها . بل عن مساوئها ، وهم بها عالمون .

إن هذه الهيئات التى يخدعنا الاستعمار بها — ويتظاهر بالتفزع حين نلوح

---

(١) المقصود هو الحكومات القائمة وقت صدور الطبعة الأولى سنة ١٩٥١

بالاختصام إليها — هى « القابلة » التى استقبلت « إسرائيل » على كفيها الآثمتين : وقالت لها كونى شوكة الجنب لهؤلاء العرب الصعاليك . !

هى التى وقف « النقراشى » تحت سقفها ، يقول مالم يقله أحد قبله ، وما لن يقوله أحد بعده . والأعضاء المحترمون يتثاءبون حتى إذا قام ممثل بريطانيا ليتكلم ، أصغوا إصغاء جميلا ، وصدقوا إفكه — وتركوا مصر لاتزال تعبج فى قيودها الغلاظ ، الثقال . ! وكل محاولة ولو فاجرة ، لدولة كبرى تسارع هذه المنظمات الدولية لمناصرتها . فإذا نوديت لغوث أمة ضعيفة مضطهدة ، فالهيئة نائمة ولعن الله من أيقظها . !

إن أحسن عبارة وصفت بها هذه المنظمات تلك — العبارة الجامعة لكاتب أمريكى نعتها بأنها « وكالة حكومات » . فلنرفع عن أبصارنا غطاء الوهم ، ولنوفر مانسفكه فى تلك الهيئاتمن وقت وجهد . ولناخذ الحكمة ، ولو من وايزمان ، الذى كتب لأمته يقول : « مامن دولة فى العالم بنيت بوعد ، أو مرسوم ، إنما يبنى الدول ، كفاح الشعوب عبر الأجيال » .

لامجلس الأمن ، ولا هيئة الأمم ، بقادرين على منحنا الحرية والإستقلال — إلا إذا منحناها نحن القدرة أولا ، من كفاحنا الحاد . وصراعنا الرهيب .

هـ — الاحتلال العسكرى ..

وختام هذه المرتكزات التى يعتمد عليها — الاحتلال العسكرى .

إن الإنجليز متشبثون ببقاء جيشهم جاثما فوق استقلالنا وكرامتنا — لاخوفاً من روسيا ، ولكن خوفا منا نحن . إن تاريخهم الأسود معنا يفزعهم ،ويوحى إليهم أننا حين نملك حريتنا كاملة ، فلن نختارهم حلفاء ، ولا أصدقاء . .

لقد قال الشعب رأيه فيهم ، وهو لايخرج عن رأى صاحبهم « توماس بين» وقالت الحكومة رأيها واضحا كفلق الصبح فى مجلس الأمن ، قالت : (١)

«إن الإنجليزفضوليون ، ويعرقلون توثيق روابط الوحدة بيننا ، ويعملون على هدمها ، ويخلقون الأقليات ويشجعونها ، ويبقون البلاد فى حال من التأخر والشقاق . .

« . . إن العهد الذى بيننا وبينهم بمعاهدة «٣٦» ليس سوى أثر من آثار القرصنة التى نجهد فى نسيانها . ولم يبق فى هذه المعاهدة إلا مايهدد السلام .

« . . ولا ريب أنكم ستكونون عونا لنا على استئصال هذا السرطان الذى ينتاب السلام فى وادى النيل . . »

بعد إبدائنا هذه الآراء فيهم ـ حكومة وشعبا ـ فقدوا كل أمل فى مودتنا ـ واعتقدوا أننا سنختار أصدقاءنا من غيرهم . وربما من أعدائهم لهذا قرروا الاحتفاظ بجيشهم المسلح لينالوا مآربهم منا كرها ، واقتسارا .

إن بريطانيا تضمر لنا زراية أكيدة ، واحتقارا كبيراً . بل هى لا تضمر ذلك وإنما تنادى به وتصيح ، وشاهدنا على ذلك مستر آتلى نفسه ..

لقد وقف خطيبا فى المؤتمر السنوى لنقابات العمال البريطانيين يوم ٥ ـ٩ـ ١٩٥٠ فقال بالحرف الواحد : (١)

« . . قابلنا العدوان الشيوعى فى الطريق حين تركنا الهند والباكستان ، وسيلان ، تتمتع بكامل حريتها وسيادتها » !! أرأيتم يازعماء مصر . ؟ أسمعت ياشعب مصر . ؟ بل أسمعتم ياضحايا الاستعمار ، فى العراق وفى الشام .

---

(١) من خطاب النقراشى باشا بمجلس الأمن .

(١) آخر لحظة العدد (٨٨)

لو كنا مصدر إخافة وخطر ، لتركتنا بريطانيا تتمع بحريتنا ، وسيادتنا ولو أن بريطانيا ترجو لنا وقارا — مثل الوقار الذى ترجوه للهند وجارتها لتغير تاريخنا على الأقل ، لم نكن سنجد ذلك الضابط البريطانى الذى يطرد من أمامه ضابطا مصريا دخل عليه فى « فايد » قائلا :

اخرج .. أنت هنا فى أرض إنجليزية !

هذه — مجتمعة — هى الاستعمار . .

(ا) المعاهدات . .

(ب) التخويف بالشيوعية والحرب .

(ج) إغراء بعضنا ببعض ..

(د) الخداع بالهيئات الدولية ..

(هـ) الاحتلال العسكرى ..

والآن — أين الطريق طريق الحرية والخلاص ؟

هذا هو الطريق :

فى نقيض الوسائل التى يتوسل بها الاستعمار لدعم نفوذه تتمثل وسائل تحررنا وظفرنا ، فإذا كانت أولى وسائله المعاهدات فليكن نهجنا لامعاهدة !

إننا مع بريطانيا فى مفاوضات منذ عام ١٩٢١ ولم ننل منها سوى تمزيق صفوفنا ، وتحطيم مقاومتنا ، وتاريخ بريطانيا معنا ، ومع سوانا ، لايشجع أبداً على التفاؤل بمستقبل أخلاقها السياسية . ستظل كما هى تتوسل بكل موبقة لمنافعها الخاصة ، وأغراضها الاستعمارية . وما من زعيم مصرى إلا وصرح بهذه الحقيقة وهو خارج الحكم . ونحن نهتم جداً بآراء زعمائنا خارج الحكم لأنها غالباً لاتكون ثمرة حرص ولا غرض ..

فى يوم ٣١ - ٧ - ١٩٤٨ صرح عزام باشا لجريدة المصرى هذا التصريح :

« إن موقف انجلترا معنا فى هذه الحرب — يعنى حرب فلسطين — دليل واضح على أن معاهداتنا معها لاقيمة لها ، إلا حيث تكون المصلحة الانجليزية . ولا يمكن لعاقل بعد هذه التجربة أن يرضى بحلف مع بريطانيا كل نتائجه بالنسبة لنا أن تمتنع فى أيام شدتنا عن الوفاء بما فيه من التزامات » .

هذا كلام رجل مسئول ، نختاره من دون الرجال والزعماء ، لأنه شخصية محايدة ، ويحتل مركزا محايدا ، وهو لهذا أبعد من غيره عن مواطن الريبة فى أحاديثه السياسية ، على الأقل .

ولنكن واقعيين ، فنسأل : من إذن نحالف ، غير بريطانيا ؟

هل نحالف أمريكا مثلا .. ؟

كلا .. أن أمريكا شريكة الاستعمار البريطانى فى كل جريمة منذ غادرت عزلتها .. وانطلقت فى شره واستكلاب نحو السيطرة السياسية على العالم ، وعلى البترول ..

ولقد جاهر أيضاً بهذه الحقيقة سفيرنا بوشنطن فى حديث مسهب طويل . وكتب مراسل من أمريكا يصور وجهة نظر وزارة الخارجية الأمريكية فى قضية مصر بالذات ، فاسمعوا ماذا يقول :

« إن وزارة الخارجية الأمريكية ترى أن جلاء القوات البريطانية عن مصر ، لابد أن يعقبه إشراك مصر فى الكتلة الغربية للدفاع عن البحر الأبيض المتوسط ومناطق الشرق الأوسط ، وأفريقيا . . وهذا يتطلب بطبيعة الحال مد برنامج الرئيس ترومان ومد مصر بالأسلحة .. ثم ضمها إلى ميثاق الأطلنطى خاصة إذا ضمت تركيا إليه ..

«ولكن وزارة الخارجية الأمريكية تشعر بأن الوقت لم يحن بعد لأن تقف مصر كتركيا على قدم المساواة مع الدول الكبرى فى الدفاع عن الشرق الأوسط..!

« والسياسة الأمريكية التى تخضع إلى حد كبير للنفوذ الصهيونى ، لن تسمح بهذا لأنه يؤدى إلى الاضرار بمركز إسرائيل » . !

« وبالرغم من أن مصر دولة مستقلة ، فان وزارة الخارجية الأمريكية لاتزال تعتبرها منطقة نفوذ بريطانية — وهى لاتنظر إليها نظرتها إلى تركيا وباكستان كدولة ذات شخصية دولية مستقلة » . . ! !

فليحفظ المصريون هذه الحقائق ، كما يحفظون السورة من القرآن . . أو الآية من الإنجيل . .

• إن السياستين الأمريكية والبريطانية شىء واحد فيما يتصل بقضيتنا .

• الاتفاق تام بين الدولتين على عدم تسليحنا خوفاً من أن نستعمل السلاح ضد إسرائيل ، وليدهم الناشىء المدلل . .

• والاتفاق تام كذلك بينهما على أن تظل مصر دولة صغرى ومنطقة للنفوذ البريطانى ، يطلق فيها يده كما يشاء . . !

والدليل على هذا أن أمريكا نفسها تقدمت للمسئولين فى مصر بنصيحة فحواها — أن نحل مشاكلنا مع بريطانيا عن طريق المفاوضة . .

من إذن نحالف غير بريطانيا وأمريكا ؟

وأجيب — فلنحالف أنفسنا . ، ولن نجد أحدا سوانا يستطيع أن يدرأ عنا الأعاصير . وصدق المتنبى :

خليلك أنت ، لا من قلت خلى وإن كثر التجمل والكلام

وإذا كان الحياد اليوم قد أصبح منوطا بمؤثرات خارجة عن إرادة الأمم التى ترغبه وتريده . . وإذا كان لاغنى لنا عن حليف فلنعمل بنصيحة عبد الرحمن عزام التى سلفت . ولنستمع لصوت مصرى مسئول آخر ـ هو الأستاذ حسن سليم ـ رئيس مكتب الاستعلامات المصرى بنيويورك : لقد وقف فى النادى الدولى للطلبة بجامعة « كولمبيا » وقال :

« إن روسيا لم تهاجم مصر قط . . أما انجلترا وفرنسا فقد هاجمت كلتاهما مصر أكثر من مرة . »

كلمة واحدة فاسمعوها .

إما أن نحالف أنفسنا ، ونمنح صداقتنا ، وسلامنا لكل من يريدها .. وإما إذا لم يكن من الحليف بد ، فلنحالف روسيا ..

روسيا .. ؟ !

نعم ، . روسيا .. وهل بدارة بالناس من عار . ؟

نحالف روسيا الدولة ، لا الشيوعية .. المذهب . لقد حالفتها أمريكا ولا تزال ملاذ الرأسمالية . .

وحالفتها بريطانيا ، ولم تصر شيوعية . .

ومنذ أربعة أعوام تقريبا حاولت أمريكا أن تعقد خلسة اتفاقا مع روسيا دون أن تعلم بريطانيا وفرنسا : لولا أن أعلن مولوتوف ذلك فى إذاعة له فضحت الدولة المحترمة جداً .. أمريكا ! .

إن دولتى « المحور » بريطانيا وأمريكا ـــ لاتساعداننا ، ولاتدعان الغير يساعدنا . لقد حرمونا من السلاح بينما أبدت روسيا استعدادها لتزويدنا بالسلاح الذى نريد . ولكن « المحور الاستعمارى » هدد حكوماتنا ، وحذرها . فإلى متى سنظل نجبن ، ونخاف ؟

لقد وافقت بريطانيا بعد طول تذلل ورجاء أن تورد لنا بعض الأسلحة فى عام ١٩٥٦ ؛ أتدرون — لماذا . ؟ لكي تكون إسرائيل قد بلغت من القوة والتمكن مايجعلنا نحجم عن استعمال السلاح ضدها . !

هؤلاء هم الحلفاء الشرفاء . . ! !

وفى نفس الوقت عرض وزير روسيا المفوض باسم حكومته على حكومتنا استعداد روسيا لتزويدنا بكل ما نحتاجه من طائرات ، وأسلحة ثقيلة وخفيفة — على أن تسلمها لنا من فورها . ليس ذلك فقط . بل وأبدت استعدادها لتسليمنا مايلزمنا من آلات الصناعة والزراعة الحديثة .

فماذا كان جواب حكومتنا . ؟ تجيبنا على ذلك صحيفة تنطق باسم الحكومة فتقول : « والمفهوم أن ولاة الأمور قد تلقوا هذه العروض بالشكر » !

كونوا انجليز . .

لماذا تصر بريطانيا على أن تربطنا بعجلتها هى وأمريكا ؟

لماذا تريد أن تسخرانا لمحاربة روسيا . ؟

أليس يرضى بريطانيا أن نكون بريطانيين ، وأن نتخلق بأخلاقها الطاهرة الفاضلة .؟! سنصنع ذلك . ! وإذن فاسمعوا .

عندما ثارت بلغاريا على تركيا سنة ١٨٧٥ — طلبت روسيا ، وألمانيا والنمسا إلى انجلترا أن توقع مذكرة احتجاج قاسية على تركيا ، فرفض رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وهو « دزرائيلى » وقال : « كيف تساعد انجلترا فى القضاء على

دولة لها صالح فى بقائها . ؟ « وكيف تتعاون مع بسمارك الصديق الذى لايعتمد عليه ! »

يالذكاء درزائيلى هذا ، . وسنردد اليوم نفس كلمته ، ونقف نفس موقفه ونقول :

كيف تساعد مصر فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها . وهى روسيا ؟

وكيف تتعاون مع بريطانيا ، الصديق الذى لايعتمد عليه . ؟ !

هذا إذا تسامحنا ، وارتضينا بريطانيا صديقاً :

وإذا ماسئلت : كيف يكون لمصر صالح فى بقاء روسيا سليمة قويه ، ؟

أجيب : سلوا مستر « أتلى » فهو الذى يقول ذلك — لاأنا .

وإذا كنتم قد نسيتم فأعيدوا تلاوة كلمته الق مرت بنا من قبل ، والق قال فيها : « لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق . حين تركنا الهند وباكستان وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها » .

إذن لولا خوف بريطانيا من روسيا ، مامنحت هذه الأمم استقلالها . ويوم يتتابها نفس الحذر من جهتنا ، فلن تتردد قط فى أن تسلم لنا بحقوقنا كافة . إن بريطانيا تتدلل علينا ؛ وتستهتر بنا — لأنها على يقين بأن سادتنا لن يمدوا أيديهم البضة المترفة إلى روسيا أبداً .

ولو أحست أدنى إحساس بأننا سنفعل لتكون أسبق إلى ما نريد منا أنفسنا : ! فلنحالف روسيا دون أن نكون شيوعيين — إن ذلك ممكن جداً بدليل ماقلناه من أن بريطانيا وأمريكا حالفتاها دون أن تصيرا شيوعيتين . إنه فى

لوقت الذى تصرح فيه أمريكا بأن مصر منطقة نفوذ بريطانية ؛ يعلن وزير خارجية روسيا فى حديثه لجريدة المصرى فى ٢٩ / ١١ / ١٩٥٠ ما يأتى :

« لقد سبق أن قلنا ورددنا على مسامع الزعماء المصريين أن الاتحاد السوفييتى سيظل دائما فى جانب الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار البريطانى ، وعندما عرضت المشكلة المصرية على هيئة الأمم المتحدة منذ أربع سنوات — دافع الاتحاد السوفييتى عن حقوق هذه البلاد التى أصيبت فى كرامتها بوجود القوات الأجنبية فى أرضها — وفى كل عمل تريد أن تقوم به الحكومة المصرية والشعب المصرى التخلص من القوات البريطانية سيجدان الاتحاد السوفييتى دائما إلى جانبهما .

« إن مكافحة الاستعمار لاتتأكد فى نظرنا ، ضمن نطاق بلد أو بلدين ، بل إننا نرى وجوبها فى كل بقعة من بقاع العالم » .

« إن الحقوق الشرعية ، والمطالب الطبيعية للشعب المصرى يجب أن يعترف بها ، وأن تتحقق : »

فهل بعد المقارنة بين هذين الموقفين . موقف بريطانيا وأمريكا من جانب ؛ وموقف روسيا من جانب آخر نتردد فى اختيار حليفنا ، إذا كان لابد لنا من حليف . ؟

الاشتراكية . . والسلام . !

وإذا كان المرتكز الثانى للاستعمار فى بلاد هو تخويفنا بالشيوعية ، وبالحرب فليكن موقفنا من الشيوعية أن نسبقها بالاشتراكية ، ونطبق من نظمها ما يسمح به تطورنا وإمكانياتنا .

ثم لماذا نخاف الشيوعية . !

لقد أعلن « ستالين » وأعلن أيضا « فيشنسكي » أن الشيوعية والرأسمالية تستطيعان أن تعيشا بلا حرب ولا خصام .

ولكن الإنجليز يخوفوننا بالشيوعية لنرتمى في أحضانهم ، بل ويصنعون لأنفسهم حركة موسومة بالشيوعية لينفذو عن طريقها أغراضهم الاستعمارية الخبيثة !

وإذا خوفونا بالحرب ، فليكن موقفنا السلام .

إنه يوم يقر فى ذهن السياسة البريطانية أننا لن نحارب معها ولا فى سبيلها وأننا لن نسمح لبريطانيا ولا لأمريكا ولا لروسيا ـ أن تكون بلادنا ميدانا لجيوشها وحقلا لتجربة أسلحتها ، فإن بريطانيا ستفكر فى مسألتنا تفكيراً سديداً

فلنردد كلمة المراغى من جديد لن نخوض حربا لاناقة لنا فيها ولا جمل .

ولنعلن من اليوم أننا « سلاميون» نريد السلام ، ونقف بجانبه ..

ولكن أى سلام نريد . ؟

لقد صار السلام صنوفا وألواناً .

إننا نريد السلام الذى تثمره مصالحنا الخاصة ، وتكيفه ظروفنا الخاصة دون أن نتأثر فى هذا بأية مؤثرات أجنبية أخرى ، وبعد ذلك لن يضيرنا أبداً أن نناصر السلام ، ونتشبث به .

لقد وقف رئيس جمهورية فرنسا فى مؤتمر نقابة المحامين الفرنسين يوماً فقال : لقد عرفت فرنسا الاحتلال الأجنبي ، وذاقت مرارة الاعتداء ولذلك فشعبنا سوف يدافع عن استقلاله الوطنى بكل شجاعة ـ إلا أننا لانريد أن نخاطر بكياننا مخاطرة جنونية . ولذلك نريد السلام لأن السلام العالمى شرط أساسى للاستقلال الوطنى .. »

وإذا كان الشعب البريطانى قد وجد من الحرية مايصرخ به يوما فى وجه وزير حربيته : لاحرب من أجل الدولار .. فإننا نمنح أنفسنا من الحرية مانصرخ فى وجه المستعمرين « لاحرب من أجل الدولار ، ولا من أجل الاستعمار . »

وخطب السنيور « جونلر » وزير المعارف الإيطالية ، وعضو الحزب الديمقراطى المسيحى فقال :

« إن السياسة الخارجية للوزارة الإيطالية قائمة على مبدأ دستورى هو — إننا ضد الحرب ، وضد أى عدوان على أرض الوطن . »

إن الاستعمار يعمل فى كل مكان لإعداد ضحاياه للحرب وإن خبراء الحرب من رجاله ليجوبون البلاد لينشئوا القواعد والمعسكرات ، وبكل تبجح ووقاحة يتصرفون فى أخص شئوننا كما لو كنا أحد شوارع لندن ، أو باريس أو وشنطن !

ولقد بلغت الجرأة بالمقيم الفرنسى أن قال :

« إذا قامت حرب عالمية أخرى ، فسأركض برجلى ، فينبثق منها جيش جرار من المغاربة » . !

وأجابه الأمير عبد الكريم الخطابى بمنشور لافح خاطب فيه بنى وطنه قائلا : « إن عقيدتكم ، وعزتكم ، ووطنيتكم لتحتم عليكم أن ترفضوا دعوة الفرنسيون إلى التطوع فى جيوشهم . لأنهم يدفعون بكم إلى التضحية فى سبيل المحافظة على أمبراطوريتهم المتداعية » .

« إن ساعة تحريركم من ظلم المستعمر قد دقت .. فلا تؤخروها بانضمامكم إلى جيوشه » !

مؤامرة على مقدساتنا .

وبلغت الجرأة بأمريكا أن تجعل « الظهران » قاعدة حربية لضرب روسيا بالقنابل الذرية .

وما الظهران هذه . إنها أرض بالحجاز بينها وبين المسجد الحرام ، ومسجد الرسول مثل لمح البصر بالطائرة أو هو أقرب .

ترى هل ستظل روسيا ساكنة ساجية إزاء هذه القاعدة الحربية التي ستنقذف منها حاملات الموت والدمار . ؟

كلا . وعندئذ ستحاول لامحالة ضربها ، وضرب ما حولها .

والذى حولها — يا أربعمائة مليون مسلم — هو مسجد رسولكم ، وبيت الله العتيق . !

لماذا لم تتخذ أمريكا من الفاتيكان قاعدة حربية . ؟

لأنها تخاف عليه ، وتقدسه . ، وتغار على ساحة القديس بطرس أن تمسى مقبرة ضخمة لما هناك من مقدسات . !

لقد نشرت صحفنا كلها خبر اختيار أمريكا للظهران قاعدة حربية بحروف بارزة صارخة . ومع هذا لم يتحرك أولئك الذى استطار بهم الذعر يوم همت بعض أعمدة المسجد النبوى أن تنقض وتتداعى . !

ترى هل المسئلة من السهولة واليسر إلى الحد الذى لايستجيشهم ، ويثير غيرتهم . ؟ ! أنها مؤامرة خطيرة جدا تدبرها أمريكا ياسادتنا المؤمنين .

فنحن لا نضمن ، وفى ضباطها يهود كثيرون — أن يضرب أحدهم فى غمرة الحرب مقدساتنا من الجو ، فينسفها ويذروها .. بل لانضمن أن تصنع أمريكا نفسها ذلك لتصطاد عصفورين بحجر : فتدمر هذه المقدسات أولا .. وتذيع أن روسيا هى التى اقترفت الجريمة ، لتنتفع بحقدنا عليها ثانياً .

إن هذه الخطة الوقحة ، التى اختطها الاستعمار الأمريكى، لتفتح أبصارنا على حقيقة مستيقنة — هى أن أى تمكين دبلوماسى أوتجارى لدول المحور الاستعمارى فى بلد يفضى بها إلى كارثة . لقد دخلت أمريكا الحجاز تاجرة ، تستخرج البترول وتبتاعه ، وبعد عشية وضحاها أصبحت مستعمرة . مستعمرة بكل معانى الكلمة، وأنشأت دون اكتراث العالم الإسلامى كله قواعد حربية فى أرض يجب أن تظل محايدة نائية عن كل قتال وعراك .

لترجع أمريكا عن غيها ، ولتغادر الأرض المقدسة التى دنستها . . والتى تريد لها مزيدا من الدنس والدمار .

ولتخرج انجلترا من بلادنا إذا كانت تخاف علينا من الشيوعية ، فاستعمارها أكبر محرض عليها ، وداع إليها .

وإذا كانت تحتلنا بدافع الحرب .. فلتعلم أننا — حكومة وشعباً — قد آثرنا السلام ، وقررنا ألا نكون الحنطة التى تدور عليها طاحونة الاستعمار .

ليثق بعضنا ببعض :

وإذا كان الاستعمار البريطانى يتوسل أيضا لبقائه بتبديد ثقة كل منا بمواطنيه ويرسل الإشاعات الكاذبة ليفسد بها ضمائرنا فلنضع نحن أصابعنا فى آذاننا . وليس ثمة واجب يتجلى فيه الالتزام الفردى ، كهذا الواجب. فلا تصدقوا إشاعة

ولا اتهاما ، ولا تروجوا لإشاعة، ولا اتهام. لقد سأل الرسول عليه السلام رجلا يتهم آخر فقال : « أترى هذه الشمس ؟ »

قال : نعم . قال الرسول : على مثلها فاشهد ، أودع .

وكان يقول : « لا تبلغونى عن أصحابى شيئا ، فأنى أحب أن أخرج إليكم منشرح الصدر » .

وأخبر أن أبغض الناس إليه ، وشرهم مكانا عند الله ، الملتمسون للأبرياء العيب .

إذا جاء من يتهم مواطنا لك ، فأعرض عنه ، واذكر دائما أن السفارة البريطانية غير الرسمية. تعمل ليلها ونهارها لهذا الغرض الدنيء، فأفسد عليها أمرها ومسعاها .

إن زعماءنا — مهما نشتد فى نقدهم — ليسوا شراً خالصاً . وإنما هم قوم خلطوا عملا صالحاً ، وآخر سيئا . فلننتفع بما فيهم من خير ، ولنعاونهم على التخلص مما بهم من سوء .

نحن . . وحدنا :

وإذا كان الاستعمار يلهينا بالمنظمات الدولية ، فلنكن أيقاظا .. ولنعتمد على أنفسنا وحدها . ولنجعل صلتنا بتلك المنظمات صلة شكلية نبرز بها شخصيتنا الدولية فقط .. أما حقوقنا ومطالبنا فلنسلك إليها الطريق وحدنا وهذا يفضى بنا إلى النقطة الأخيرة وهى :

الاحتلال المسلح :

فى سنة ١٨٧٥ قال دزرائيلى : إن روح انجلترا هى الحرب — مادام ذلك دفاعا عن كيانها .

وفى سنة ١٩٤٢ — قال تشرشل : إذا خيرنا أعداؤنا بين الحرب والعار ، فسنختار الحرب . وسنقاتل على الشواطىء . . ونقاتل على المهابط ، ونقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وفى الجبال . سنقاتل من أجل حريتنا . ولن نستسلم أبداً » .

وبعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ، وفشلت المفاوضات الدائرة بين هولاندا وأندونيسيا — أذاع « أحمد سوكارنو » رئيس جمهورية أندونيسيا هـذا الأمر على الشعب !

— «عندما تدق الساعة الرابعة من صباح الغد ستكون أندونيسيا جميعها — الحكومة والجيش والشعب — فى حرب فعلية مع هولاندا الغاصبة . وسنقاتل بكل الأسلحة . بالمدافع . والبنـــادق . والخناجر . والهراوات . والعقارب . والثعابين . ولينصر الله الوطن . »

فى هذه الـكلمات الثلاث — يامصر — تتمثل الوسيلة الواحـدة لإجلاء البريطانيين الغزاة ، وكل طريق أخرى لن تفضى إلا إلى مذلة ودمار. وإذا كانت الحكومة المصرية قد عاونت الثوار سنة ١٩١٩ .

فإن واجبها فى سنة ١٩٥٠ أن تقود بنفسها الثورة المشروعة ضد الاحتلال الرجيم متأسية بمبادىء انجلترا نفسها — التى وضعها دزرائيلى ، وتشرشل نعم — إذا خيرتنا انجلترا بين الحرب والعار . وجب أن نختار الحرب فورا .

ولقد خيرتنا فعلا .. وبقى أن نختار . فلنذكر جيدا — أن الحياة لاتستحق أن نشتريهسا بالعبودية والرق . وأن البريطانيين لن يغادروا بلادنا طوعا ، بل كرها ، وهم صاغرون .

إذا لم نطرد الاستعمار :

إلى هنا نسكون قد أجملنا الحديث فى وسائل تمصير مصر ، وتخليصها . بقى أن نذكر أنه ليس حب الاستقلال وحده هو الذى يحتم علينا هـذا التمصير بل يحتمه قبل ذلك حب البقاء..

إن الحوادث تمر بنا مسرعة ، وهى تجلجل كدقات ناقوس هائل بأننا إذا لم نشتت شمل الاستعمار . فسيشتت الاستعمار شملنا . إنه يهيىء لحرب أهلية تقوم فى مصر ليدفن تحت أنقاضها مصيرنا .

لابد من الصراحة ، فاسمعوا .

لقد بث الاستعمار ألغـامه فى حياتنا كلها ، وأعدها للتفجير . ولقد خلق « الفتنة الـكبرى » بين الهيئات المختلفة ، ولعب لعبته من وراء ، وحقق للأسف — دون أن يظهر على المسرح — كل ما يشتهى ويريد . وأفلح بهذا فى أن ملأ بحوافز الثأر . ودواعى الانتقام — نفوسا كانت مفعمة بحوافز الانقضاض على الاستعمار ، ودولته ، وجيوشه . !

ومن ناحية أخرى خلق نشاطاً شيوعياً انجليزياً وأقنع الحاكمين بأن العاصفة فوق رءوسهم ، فمضوا ينكلون بمواطنيهم ، وملئت نفوس أخرى بالحقد ، لاعلى الإنجليز ، بل على مصريين مثلنا . ! وصار الشعب يلعن حكوماته ، والحـكومات تلعن الشعب . . والمفسد الأكبر ذلك الاستعمار البغيض رابض يقهقه فى نشوة وجذل . !

فاذا كنا حريصين على وحدتنا ، وبقائنا — فلنرفع تجاه القلوب المتناحرة . والوجوه المتنافرة أملها القديم يوم أن كانت جميعا . . ولم تكن شتى . . أملها فى الظفر بالاستعمار وطرده وإقصائه .

وإذا لم نفعل ، فستنطلق الأحقاد المكظومة . والترات الموتورة فتمزقنا شر ممزق . وعندئذ تذرع جيوش الاحتلال شوارع القاهرة مرة أخرى وتدوس الأشلاء المهينة . أشلاء الذين واتتهم الفرصة غير مرة ليتحرروا فأبوا . وضلوا ضلالا بعيدا .

ياليت قومى يعلمون . . ! إذا لم نلاق الاستعمار فى ملحمة عاجلة ، فسنلاقى أنفسنا .

حيث يفنى بأسنا بيننا ، ويضرب بعضنا رقاب بعض .

ولو وجد فينا اليوم رجل رشيد. فلن تكون رسالته سوى أن يركمنا جميعا فى قذيفة واحدة يقذف بها الاستعمار البريطانى فيرديه ، ويحيينا .

أتخافون انجلترا يارجال . ؟

إذن ، فاقرءوا — وهذا خير مانختم به الحديث — نداء الانجليزى العظيم «توماس بين» إلى الأمريكان يوم وقف يحرضهم على قتال بريطانيا فى حرب الاستقلال .. قال : —

« سلونى عن الإنجليز . فأنا أعرف بهم منكم . إنهم لن يخرجوا من بلادكم إلا كرها . ولن يغادروها إلا مقهورين ، فلا تجبنوا عن لقائهم .

« ليس على وجه الأرض إنسان يمكن أن يكون جبانا ـ المسألة كلها موازنة. إما أن الخير فى الاقتحام ، أو الخير فى الهرب ... وليس العيب عيبكم .

أنكم توشكون أن تجعلوا أقوى دولة فى العالم تجثوا على ركبتيها ولذلك فأنتم ترتعدون .

« أيها الإخوة .

« ثقوا بالنصر .

« اجعلوا أيديكم تدافع عن أسلحتكم ، وليس العكس . .

« غطوا وجه الأرض بأساطيركم . .

« غنوا ، واستبسلوا . .

« وأحبوا ، وقاتلوا .

« دعوا زوجاتكم ، وأولادكم يفرحوا بموتكم شجعانا . .

« فكروا فى النصر وحده » . .

وبعد . .

« إن الحوادث لا تضيرنا . . ولكن
الذى يضيرنا بحق ، هو تقديرنا لها .
وهذا التقدير متروك لنا وحدنا ... »

مونتان

إلى هنا تنتهى فصول الكتاب ويبدأ ختامه .. ولقد حاولنا جهد هذا البحث المقتصد الموجز ، أن ننفض عن أمتنا طغاوة البغى ، وخيبة الانكسار ، ونعاونها فى فض قيودها وأغلالها .

وإذا كان الله لا يساعد إلا الذين يساعدون أنفسهم ، فما لا ريب فيه إذن أن أمرنا متروك إلينا .. وأن مصايرنا قد وضعت بين أيدينا . وهذه حقيقة يجب أن تملأ وعينا . إن الشعوب التى كانت تبيع نفسها فتوبقها ، قد ضجت فى قيودها .. وهى اليوم غادية لتبتاع نفسها وتعتقها .

أترانا من هذه الشعوب الميممة وجهها شطر التحرر والانعتاق ؟ إذا لم نكن منها ، فيجب أن نكون .

وعلينا أن نبذل من أنفسنا أطيب البذل لنبلغ ما نريد .

ونحن مصرون على أن يعود الضمير «نا» إلى الشعب ، والحكومة معا . . إن الاثنين مجندان اليوم لنضال شاق نبيل يحرر مصر من أعدائها ، ومن نفسها .. وقد يرى بعض المواطنين أن استنجادنا بالحكومة وتشبثنا بزاملتها للأمة فى الكفاح . نتيجة عدم الثقة ، أو ضعفها بالشعب : وهذا خرص يحتاج إلى الفطنة وحسن التقدير فنحن لا ننسى أن حركات التحرير لم ترفع ألويتها قط إلا على أكتاف الحفاة العراة الكادحين . ولكننا لا ننسى أن سواس الأمم اليوم غير سواسها بالأمس ، وأنهم مهما يحاولوا تجاهل الشعوب وحقوقها ، فانهم يخشون بأسها ، ويحذرون انتفاضها : ويحاولون جهد وعيهم أن يقابلوها فى الطريق فلماذا لا نتيح لهم هذا اللقاء .

ولبلادنا بالذات وضع يحتم علينا أن نعمل معاً — حكومةً وشعباً .. فنحن متفقون على أن محاولات النهوض جميعاً مكتوب لها البواء بالفشل . ما دام ذلك السرطان الوقح يجوس خلالنا ، ويعيث فى بلادنا ..

ومن سوى الاستمار البريطانى نعنيه بالسرطان .. !

ونحن متفقون أيضاً على أن عصر الخيانات قد تولى وتقوض .. واستيقظ فى الشعب وجدان ثائر مستريب يقظان . لا يزدرد الخيانة فى يسر ، ولا يتجرع الأفك فى صمت .

ومتفقون مرة ثالثة على أن ضعف شعب من الشعوب لم يعد مبرراً لاستغلاله وهوانه .. فالشعوب كلها تتآخى اليوم تآخياً واعياً وهادفاً .. ولا يسمح شعب حر أن تطوق حكومته شعباً آخر بالسلاسل والأصفاد .

من كان يظن ، أن يقف فى فرنسا رجل من بينها ، هو «موريس توريز» وتقف من ورائه صفوف الجماهير التى لا تنتهى عند مد البصر ، فيعارض والجماهير معه . إرسال جيش فرنسى إلى الهند الصينية لمحاربتها ، وإخضاعها للاستعمار الفرنسى الطائش . ويقول قولته الحرة :

« لن يحارب آباؤنا وإخواننا من أجل استعمار غيرنا .. دعوا الهند الصينية تتحرر .. إنهم بشر مثلنا » .. !

بل من كان يظن ، عند ما تمادت الحكومة الفرنسية فى استهتارها . وطفقت تعد حملة عسكرية لتأديب تلك البلاد . أن يدعو «توريز» هذا جهاراً علنا ، إلى عرقلة المجهود الحربى الظالم الذى تكتله حكومته ضد الهند الصينية ، ثم يساهم ، ومعه نجل رئيس الجمهورية الفرنسية مساهمة عملية فى تعويق الحملة وعرقلتها .. ؟

علام تدل هذه الظاهرة الخيرة فى تاريخ الحرية .

إنها انبثاقات ضمير جديد يتكون حثيثاً فى البشرية الجديدة .. البشرية

التى تريد أن تسوى فى التقدير والاحترام بين سائس الخيل، وحامل الصولجان . وبين أضعف الشعوب ، وأقواها .. البشرية التى قررت أن تضع حكوماتها . فى خدمة مبادئها .. لا أن تسخر مبادئها لأغراض حكوماتها ..

البشرية التى وقفت على سر ظفر الذئاب بها .. وهو أنها كانت تسير فى موكب الحياة متصدعة متشتتة .. قد شطت نواها .. وانشقت عصاها . تظفر الذئاب منها بكل مستفردة قاصية فتعلمت وعرفت . وقررت أن تجمع شملها : وتضم ألفتها ، وتصل نظامها ، وتتحرك فى الموكب العتيد متشابكة الأيدى ، موصولة الصفوف .

ألا إنه من الغفلة أن يستهين اليوم حاكم بحق شعبه وحريته ، كائنا ما كانت قوة الحاكم ، وضعف الشعب .

ومن الصفاقة الممتازة .. ألا يرى حاكم شعبه جديراً بالحرية ، ثم يرى نفسه جديراً بالتفرد والاستبداد . !

فلنذكر جيداً ، أن الشعب مهما تكن ضآلته وتخلفه ، جدير بالحرية جميعا لأن الحرية ليست مثوبة يثاب الشعب بها أو نوطاً من أنواط الزينة والتكريم يزين صدره .. بل هى حياته .. هى وجوده .. هى ضرورته الكبرى التى لاينهض بسواها ، ولا يحيا

وإذا كنا اهتدينا فى مسيرنا عبر هذا الكتاب إلى وسائل التحرر والخلاص كما نراها .. وربما أيضاً كما يراها بقية المواطنين ، فقد بقى أمامنا إدراك حقيقة هامة .

يقول الفيلسوف « جوته » :

« إن التفكير سهل . لكن العمل صعب .. والعمل وفق التفكير هو أشق واجبات الحياة ، وأهداها سبيلا . »

ونحن اليوم شعب يحس كثيراً . . ويفكر قليلا . . ولا يعمل أبداً .

ولكنه مع ذلك وللأسباب التى أبديناها آنفا يستحق الحرية .. جميع الحرية والواجب الذى يتوسل به لحقه ، يشع من كلمات ذلك الفيلسوف .

فلنفكر لأنفسنا فى دقة وعمق .. ولنهيء لها ، ونحن نفكر ، إرادة العمل. فإذا ما انتهينا من إنضاج الفكرة .. انتهينا أيضاً من إنضاج الإرادة .. عندئذ نعمل فى ثبات وجرأة وفق تفكيرنا الواعى لاوفق عواطفنا التميعة .

إننا حتى الآن لانجيد فن التفكير ، ولا فن العمل .. فتفكيرنا وساوس غامضة ، وعملنا انفعالات غريرة .

هكذا نحن الدولة والمجتمع ..

فالدولة لاتزال تؤمن أن خلاصها من المستعمر يأتى بالسلم عن طريق المفاوضات .. ويأتى بالحرب عن طريق التمثيل والمظاهرات .. والشعب على دينها من المؤمنين .!

وهنا يبين حظنا الوافر من ضعف التفكير..فلو أننا فكرنا تفكيرا مركزاً لانتهينا إلى أن انجلترا دولة تحترم القوة ، وتحتقر الحق ..

دولة تؤمن بحقوق الإنجليز أولا .. ثم حقوق الإنسان ثانياً !

دولة يجلد رجالها عراة .. فتنشىء للجلادين دولة ..

ويكرم رجالها فى نادى «العلمين» فتعض الأيدى التى كرمتهم ، وتبصق على الوجوه التى استقبلتهم .. !

نعم — لو أننا فكرنا ، لأعرضنا عن كل حاكم يتظاهر ضد الإنجليز . . لأنه فقط يخدعنا ، ويطيل أمد مكثهم بيننا .. ولبحثنا عن الحاكم الذى يصنع كما صنع « أحمد سوكارنو » فيقود الأمة والجيش إلى التحام هائل مع قوى الشر والضلال التى أفنتنا وسوت بنا التراب .. !

ماذا وراء هذه المخاطرة من عاقبة .. ؟ الموت .. ؟

ما أعذب الموت إذا حان الأجل ! .

أن رائداً من خيرة رواد الحرية ينادينا ويقول :

« هل بلغ من قيمة الحياة ، وحلاوة السلم أن نشتريهما بالأغلال والرق ؟ وقانا الله ذلك . ! »

«لست أدرى أى نهج ينهجه غيرى ، أما أنا فأقول : الحرية . أو الموت ! »

وضعف تفكيرنا ، هو الذى يجعلنا نسىء الظن بالحرية ، ونخاف على النظام من ضراوتها ، ونحاصر الأمة بسلسلة عاتية من القوانين والإجراءات ..

ولو أننا فكرنا جيداً لعلمنا أن الجهد الذى نبذله لترويض الشعب على احترام القوة ثم لا يجدى ، خير منه جهد يبذل لترويض الشعب على احترام الواجب ، ثم يجدى ويفيد .

وضعف تفكيرنا ، هو الذى جعلنا فرقا وأشتاتاً .. يكيد بعضنا لبعض ، ويلعن بعضنا بعضا ..

ولو أننا فكرنا قليلا ، لرأينا الأرض المشتركة التى تجمعنا كافة — من كل الهيئات ، والأحزاب — هذه الأرض المشتركة هى « إرادة التحرر » .

كلنا — نحن الشعب — متفقون على إرادة التحرر مما نحن فيه من ذل واستعمار واستبداد ، والخلاف بيننا فى الوسائل ، وهو لهذا خلاف صغير لا يعتاق سوى القلوب الصغيرة ، والعقول الصغيرة .. فلنتكتل معا فى هذه التخوم المشتركة والأرض الجامعة .

التفكير السديد — والعمل وفق هذا التفكير — هما الخطوة الأولى يارواد التحرير والإنقاذ .

والشعب الذى يكتظ فكره بالبغضاء ، والثأر ، والحسد ، والتربص ، والعجز ، والتلاوم ، لن يكون شيئاً فى يوم ما . . . وسيظل رمزاً لما تستطيع هذه الأفكار الرديئة السوداء أن تصنعه لتمزيق الأمم والجماعات .

فلنغسل تفكيرنا من هذه الأوضار .. ولنواجه مشكلتنا الكبرى بأفكار مستقيمة مستبشرة باسلة .. ولنحول طاقة الثأر والحقد التى تغص بها نفوسنا إلى عدونا الحق المستعمر ، والمستبد ..

لماذا تتخاذل أفكارنا وتتراجع عنـــد ما نوجهها لملاقاة مشكلة الاستعمار البريطانى .. ؟

ولماذا تتقاحم وتندفع من تلقاء نفسها لتضرب بعضنا ببعض ، وتجعلنا عبرة وأحاديث .. ؟

لماذا تجبن فى الأولى . وتستبسل فى الثانية .. ؟

السبب أنها أفكار طائشة .. بل هى ليست أفكاراً على الإطلاق . . لكنها انفعالات غريرة مجنونة تتسرب خلالها — ويا أسفاه — كل طاقتنا حتى إذا يممنا كفاحنا شطر الاستعمار . لم نجد من أنفسنا ناصراً ولا ملتحداً . !

أن المرء لا تضيره الحوادث ؛ وإنما الذى يضيره بحق ، هو تقديره للحوادث

فلنقدر الحوادث التى تقع بيننا — نحن المواطنين — تقديراً كريماً يرتفع بنا عن التناحر .

ولنقدر الحوادث التى تجرى بيننا وبين الاستعمار تقديراً يندفع بنا إلى مناهضته ومقاتلته .

ما أروع محمداً عليه السلام ، وهو يقول لصاحبه فى الغار : ما ظنك باثنين .. الله ثالثهما !

إن هذا التفكير المؤمن بالنصر، الواثق بالفوز، والعمل وفق هذا التفكير، وكان ساعتئذ يتمثل فى الهدوء ؛ ورباطة الجأش — هما اللذان صرفا عنه أبصار الذين لو نظر أحدهم إلى الغار لرآه .. ورأى صاحبه معه . ؟

لقد انتهى العهد الذى كنا نتساءل فيه . ماذا نعمل .. !

وحل عهد جديد شعاره : يجب أن نعمل .

* * *

وبعد . فها أنت ذا تبلغ ختام الكتاب .

أتظن أن ما بينك وبينه قد انتهى ببلوغ هذا الختام . ؟

كلا .. فالآن يتلقفه عقلك الكامن . ووعيك الباطن ليصوغا لك منه فكرة . وربما نهجا .. ويصطنعا إرادة تحدث بعد ذلك أمراً :

فلندعهما إلى حين .

ولنتصور من جديد ذلك الشوط الذى قطعناه . . لقد سرنا هكذا .

شعب فى السلاسل .

الحرية .. هى الخلاص.

الشخصية.. كى تعمل..

تمصير مصر

إن هذه الشمس التى تشرق علينا كل صباح تذكرنا بدفء الحرية ..

وهذا الفجر التى تتشقق عنه أرحام الليالى وأكمامها يذكرنا بضوء الحرية

وهذا الربيع فى مهرجانه الطليق الحافل يستجيش حنيننا إلى الحرية

وصيحة آتية من وراء القرون تنادى الطغاة :

متى إستعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. ؟؟

وتسوقنا سوقاً عنيفاً لمعركة الحرية .

* * *

وإذا سئلنا ـ ما نحن . ؟ كان جوابنا :

نحن شعب يريد أن يصحح شخصيته

ويحقق حريته . .

ويعلن فى ربوعه ونجوعه حقوق الإنسان .

م. السعادة
بمصر